طرائف الحيوان في الشعر

الدكتور ناصر الحاني

ليس ببدع أن يحتل الحيوان مكانة في الشعر العربي ، فلقد اتخذه العرب رفيقا سواء في بواديهم أم حواضرهم وأنفوه في حلهم وترحالهم . وكان لهم في هذه الالفة شؤون كثيرة حفلت بها أمهات كتب الأدب .

وليس يعنيني هنا أن أعيد ما هو معروف عن الخيل وعناية العرب بها خاصة ، والكتب التي عركت أنسابها وأسماءها كما فعل ابن الأعرابي في كتاب (أسماء خيل العرب)[١] أو ابن الكلبي في (نسب الخيل)[٢] أو ما كتب عن الابل والكلاب والحمر الوحشية أو الحيوانات الاخرى عامة كما فعل الجاحظ والدميري ، لأن هذه الكتب تشبثت بأحد أمرين : أما العناية بما جاء عن هذه الحيوانات لتكون شواهد لغوية محضة أو العناية بسيرتها وأخلاقها وسبل تربيتها والافادة منها .

ان الشعر بآفاقه الرحبة لا يتسع بطبعه لشؤون الحيوان كما اتسعت لها هذه الكتب ، ولكنه بالرغم من هذا ظل يحفل بتجارب كثيرة عاشها الشعراء مع الحيوان وحشيه وأليفه ، وحاولوا ان يضفوا عليها اطارا فنيا ممتعا ، وبهذا تهيأ لادبنا فصول فريدة حقا .

لقد عرف بعض الشعراء بوصف حيوانات معلومة اشتهر أمرهم معها ، وصاروا يذكرون بها .

(فأبو داود الايادي)[٣] اشتهر بوصف الخيل وكانت له أشعار كثيرة بها ، وكان (النابغة الجعدي) من وصافها أيضا ، وادعى يونس أن النابغة الجعدي أوصف الناس للفرس[٤] .

وكان (طفيل الغنوي) من أشهر شعراء قيس ومن أوصف العرب للخيل حتى سموه (طفيل الخيل) لكثرة وصفه اياها ، وهو يدخلها في كل باب من شعره[٥] .

وسمي (زيد الخيل) بهذا الاسم لكثرة خيله يوم لم يكن لسواه من العرب الا الفرس والفرسان فكانت له خيل كثيرة من المسماة المعروفة التي ذكرها في شعره وهي ستة ، (الهطال) و (الكميت) و (الورد) و (كامل) و (دوول) و (لاحق) وله في كل منها شعر[٦] .

ومن وصاف الخيل المعروفين أيضا (سلامة بن جندل)[٧] . واشتهر

(الحصين بن نمير) بوصف الابل وسمي (الراعي) لكثرة وصفه اياها وجودة نعته(٨) ٠

واشتهر (الشماخ بن ضرار) بوصف الحمير وقيل عنه انه أوصف الشعراء للحمير وللقوس وارجزهم على البديهة(٩) ٠

وكان العرب يتغزلون بحيواناتهم ويتمثلون بها وخاصة الناقة والفرس والقطا والحمام ٠ وتغلب فيهم ان يذكروا الحمام في الغزل والناقة في السفر والخيل في الحرب(١٠) ٠

ولا نعرف كتابا عنى بالشعر وأبوابه يخلو من ذكر الحيوان ٠ وتعتبر الفصول التي خص بها (ابن قتيبة) الحيوانات في كتابه الفريد (المعاني الكبير) من أضخم ما وصلنا بهذا الميدان ٠ فلقد روى كثيرا مما عنى بالخيل والحيوانات الاخرى وأبرزها الكلاب والأرانب وبالذباب والجراد والنمل والضب والقنفذ والحية والجرذان ، وبالطيور كالغراب والنسر والعقاب والبازي والصقر والقطا والهوام وأنواعها ٠

ويبدو أن (ابن قتيبة) قد حاول في هذه الفصول الطويلة الاقتصار على الاستشهاد بالبيت والبيتين والثلاثة ، ونادرا ما يجوز هذا المنوال ٠

وظاهر أن الطابع الذي يغلب على هذه الأبيات أو المقطعات انها لا تعنى بتجارب الشعراء مع الحيوانات عنايتها بما يصور أخلاق هـــذه الحيوانات وعاداتها التي شاع خبرها عند العرب ٠ وحاول (ابن قتيبة) أن يشرح كل ما استشهد به شرحا لغويا لا يختلف منواله كثيرا عن المألوف عنــد اللغويين والنحويين ٠

ان قصص الشعراء مع الحيوان كثيرة تهيأ لبعضهــا الشيوع ، ولعل (الذئب) يفوق غيره من الحيوانات الكاسرة فيما تهيأ له من شعر ، وذلك لكثرته في البراري العربية ولأن بالتصدي له خاصة مدعاة للفخر والرجولة ٠

لقد جاءتنا قصص طريفة عن الذئاب لعل أكثرها شيوعا قصة (الفرزدق) وقد نزل به أحدها(١١) ٠

وللبحتري في داليته التي مطلعها :

سلام عليكم لا وفــاء ولا عهــد   أمـــا لكم من هجر أحبابكم بـــد

وصف للذئب لا نعرف ما يضارعه في شعر الحيوان ، فلقد أسبغ عليه من البراعة الفنية والأصالة والابتكار ما أضفى عليه الخلود ٠

و (للشريف الرضي) قصيدة في الذئب طريفة أيضا(١٢) ٠ واذا كنا نكبر براعة البحتري والشريف الرضي وركوبهما مركبا أنفردا به في وصف الذئب فاننا لا نشك في أن (الشنفرى)(١٣) كان رائدا لوصف جميع من الذئاب أبدع فيه أيما ابداع وصيره لوحة فنية أصيلة في أدبنا ٠

وأغدو على القوت الزهيد كما غدا   أزل تهــاداه التنائف أطـــحل
غدا طاويا يعارض الريح هافيــا   يخوت بأذناب الشعاب ويعســل

فلمـا لواه القوت من حيث أمه دعـا فأجـابته نظائر نحـل
مهلهلة شيب الوجـوه كأنهـا قـداح بكفي ياسر تتقلقـل
مهرتة فوه كأن شـدوقهـا شقوق العصي كالحات وبسـل
فضج وضجت بالبـراح كأنهـا واياه نـوح فوق عليـاء ثكل

ومن القصص التي لم يتهيأ لها الشيوع ما جرى (لمالك بن الريب) مع الذئب ٠

« قالوا : وبينما مالك بن الريب ليلة نائم في بعض مفازاته ، اذ بيته ذئب ، فزجره فلم يزدجر ، فأعاد فلم يبرح ، فوثب اليه بالسيف فضربه فقتله ، وقال مالك في ذلك(١٤) :

أذئب الغضا قد صرت للناس ضحكة تقاوى بك الركبان شرقا الى غرب
فأنت وان كنت الجريء جنـانه منيت بضرغام من الأسـد الغلب
بمن لا ينام الليـل الا وسـيفه رهينة أقوام سراع الى الشغب
ألم ترني يا ذئب اذ جئت طـارقا تخاتلني أني أمـروء وافر اللب ؟
زجرتك مرات فلمـا غلبتني ولم تنزجر نهنهت غربك بالضرب
فصرت لقى لما عـلاك ابن حـرة بأبيض قطاع ينجـي من الكرب
ألا رب يوم ريب لو كنت شاهدا لهـالك ذكرى عند معمعة الحرب
ولست ترى الا كميـا مجـدلا يـداه جميعا تنبشـان من الترب
وآخر يهوي طائر القلب هـاربا وكنت امرأ في الهيج مجتمع القلب
أصول بذي الزرين أمشي عرضنة الى الموت والاقران كالابل الجرب
أرى الموت لا أنحاش عنه تكرمـة ولو شئت لم اركب على المركب الصعب
ولكن أبت نفسي وكانت أبيـة تقاعس أو تنصاع يوما من الرعب

ولقد حظي (الاسد) بمكانة في الشعر وأضفى عليه الشعراء الـذين وصفوه جلالا وهيبة دونها هيبة الذئب ، وصار عندهم محورا للشـجاعة والقوة الخارقة والبطش . واكثر تشبيه ممدوحيهم خلفاء أو رؤساء أو قـادة به ٠ وتعتبر قصيدة (بشر بن عوانه) الشهيرة التي وصف بها مقتل الأسد من الشعر النادر حقا ، ومطلعها :

أفـاطم لو شهـدت ببطن خبت وقد لاقى الهـزبر اخاك بشـرا

ولعل من أطرف ما جاءنا عن الأسد حديث (أبي زبيد الطائي حرملة ابن المنذر) فقد كان له كلب يقال له (أكدر) ، وكان له سلاح يلبسـه اياه ، فكان لا يقوم له الأسد ، فخرج ليلة قبل أن يلبسه سلاحه فلقيـه الأسد فقتله ، ويقال أخذه فأفلت منه ، فقال عند ذلك أبو زبيد :

أحـال أكـدر مختالا كعـادته حتى اذا كان بين البئر والعطـن
لاقى لدى ثلل الأطـواء داهيـة أسرت واكدر تحت الليل في قـرن
حطت به شـيمة ورهاء تطـرده حتى تناهى الى الحولات في السنن

وهي قصيدة طويلة ، فلامه قومه على كثرة وصفه للأسد وقالوا له : قد خفنا ان تسبنا العرب بوصفك له . فقال : لو رأيتم ما رأيت أو لقيكم ما لقي أكدر لما لمتموني . ثم أمسك عن وصفه فلم يصفه بعد ذلك في شعره حتى مات(١٥) » .

ولقد وصف البحتري الأسد بقصيدة مدح بها (الفتح بن خاقان) وعبر عن صور طريفة حقا(١٦) .

هزبر مشى يبغي هـزبرا وأغلب ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدل بشغب ثـم هـالته صولة ... رآك لهـا أمضى جنانا وأشغبـا
فأحجم لما لم يجـد فيـك مطمعا ... وأقدم لما لم يجـد عنـك مهربا
فلم يغنه ان فر نحوك مقبلا ... ولم ينجه ان حاد عنـك منكبـا
حملت عليه السيف لاعزمك انثنى ... ولا يدك ارتدت ولا حـده نبـا

* * *

ولقد جاءتنا قصص طريفة ذات طابع يغاير ما عرفناه عن الحيوانات الكاسرة وذلك في خروج بعض الشعراء على المألوف مع هذا الحيوان أو ذاك .

يحدثنا أبو الفرج عن (بكر بن خارجه) الشاعر انه كان يبكر بقنينتين من شراب الى خراب من خرابات الحيرة فلا يزال يشربه فيه على صوت هدهد كان يأوي الى ذلك الخراب الى أن يسكر ثم ينصرف . وكان يتعشق ذلك الهدهد(١٧) .

وروى عن (العجاج) انه كان يأكل الفار ويأبى الا أن يعلل هذا « هو والله أنظف من دواجنكم ودجاجكم اللواتي يأكلن القذر . وهل يأكل الفار الا نقي البر ولباب الطعام »(١٨) .

ولقد وصلتنا قصائد معدودة لكنها فريدة في تجارب الشعراء مع بعض الحيوانات الأليفة . فمن ذلك قصيدة (ابي الشبل البرجمي) التي رواها أبو الفرج أيضا .

كان (أبو الشبل) قد اشترى كبشا للاضحى فجعل يعلفه ويسمنه ، فأفلت يوما على قنديل كان يسرجه بين يديه وسراج وقارورة للزيت ، فنطحه فكسره وانصب الزيت على ثيابه وكتبه وفراشه ، فلما عاين ذلك ذبح الكبش قبل الاضحى ، ورثى (سراجه) بقصيدة طويلة بلغت (٥١) بيتا(١٩) .

ان منوال هذه القصيدة عزيز في شعرنا ، وكانت ـ دون شك ـ فاتحة تجربة جديدة حية .

تتضمن القصيدة رثاء السراج ووصفا مسهبا طريفا لحال الشاعر بعدها ، وهي تنتهي بهجاء الكبش الذي سبب هذه المأساة .

يا عين بكي لفقـد مسرجة ... كانت عمود الضيـاء والنـور
كانت اذا مـا الظـلام ألبسني ... من حندس الليل ثوب ديجـور
شـقت بنيرانهـا غيـاطله ... شـقا دعا الليـل بالدياجيـر

وقبل ذا بدعة أتيح لها — من قبل الدهر قرن يعفور
وصكها صكة فما لبثت — أن وردت عسكر المكاسير
مسرجتي لو فديت ما بخلت — عنك يد الجود بالدنانير
ليس لنا فيك ما نقدره — لكنما الأمر بالمقادير
مسرجتي كم كشفت من ظلم — جليت ظلماءها بتنوير
أوحشت الدار من ضيائك والبيت — الى مطبخ وتنور
الى الرواقين فالمجالس فالمسربد مذ غبت غير معمور
قلبي حزين عليك اذ بخلت — عليك بالدمع عين تنمير
دع ذكرها واهج قرن ناطحها — واسرد أحاديثه بتفسير
كان حديثي اني اشتريت فبما — اشتريت كبشا سليل خنزير
فلم أزل بالنوى اسمنه — والتبن والقت والاثاجير
أبرد الماء في القلال له — واتقي فيه كل محذور
تخدمه طول كل ليلتها — خدمة عبد بالذل ماسور
وهي من التيه ما تكلمني الفصيح الا بعد تفكير
فمد قرنيه نحو مسرجة — تعد في صون كل مذخور
سد عليها بقرن ذي خنق — معود للنطاح مشهور
وليس يقوى بروقه جبل — صلد من الشمخ المذاكير
فكيف تقوى عليه مسرجة — أرق من جوهر القوارير
تكسرت كسرة لها ألم — وما صحيح الهوى كمكسور[20]

ان قصة (أبي الشبل) هذه تذكرنا بقصة طريفة أخرى وقعت للشاعر البصري (محمد بن يسير الرياشي) . فقد كان له في داره بستان قدره أربعة طوابيق قلعها من داره فغرس فيه أصل رمان وفسيلة لطيفة وزرع حواليه بقلا ، فأفلتت شاة لجار له يقال له (منيع)[21] فاكلت البقل ومضغت الخوص ، ودخلت الى بيته فلم تجد فيه الا القراطيس فيها شعره وأشياء من سماعاته ، فأكلتها وخرجت ، فعدا الى الجيران في المسجد يشكو ما جرى عليه ، وعاد فزرع البستان .

وقد هجا شاة منيع بقصيدة بلغت (٥١) بيتا أيضا ، تضمنت وصفا فياضا لحديقته الصغيرة ، واختتمها بهجاء الشاة والدعاء عليها بالموت ليجرها « الصبية » الى « مأوى الجيف»[22] .

لي بستان أنيق زاهر — ناضر الخضرة ريان ترف
راسخ الاعراق ريان الثرى — غدق تربته ليست تجف
لمجاري الماء فيه سنن — كيفما صرفته فيه انصرف
مشرق الانوار مياد الندى — منثن في كل ريح منعطف
يكتسي في الشرق ثوبي يمنة — ومع الليل عليها يلتحف
ينطوي الليل عليه فاذا — واجه الشرق تجلى وانكشف

صابر ليس يبالي كثرة ... جيز بالمنجل أو منه نتف
كلما الحف منه جانب ... لم يتلبث منه تعجيل الخلف
لا ترى للكف فيه أثرا ... فيه بل ينمى على مس الاكف
فترى الأطباق لا تمهله ... صادرات واردات تختلف
فيه للخارف من جيرانه ... كلما احتاج اليه مخترف
اقحوان وبهار مونق ... وسوى ذلك من كل الطرف
وهو زهر للندامى اصلا ... برضا قاطفهم مما قطف
وهو في الايدي يحيون به ... وعلى الآناف طورا يستشف
اعفه يا رب من واحدة ... ثم لا أحفل أنواع التلف
اكفه شاة منيع وحدها ... يوم لايصبح في البيت علف
أكفه ذات سعال شهلة ... متعت في شر عيش بالخرف
لم تزل أظلافها عافية ... لم يظلف أهلها منها ظلف
فترى في كل رجل ويد ... من بقايا هن فوق الارض خف
تنسف الارض اذا مرت به ... فلها اعصار ترب منتسف
ترهج الطرق على مجتازها ... بيد في المشي والخطو القطف
فاذا ما سعلت واحد وديت ... جاوب البعر عليها فخصف
لا ترى تيسا عليها مقدما ... رميت من كل تيس بالصلف
شوهة الخلقة ، ما أبصرها ... من جميع الناس الا وحلف
ما رأى شاة ولا يعلمها ... خلقت خلقتها فيما سلف
عجبا منها ومن تأليفها ... عجبا من خلقها كيف ائتلف
لو ينادون عليها عجبا ... كسبوا منها فلوسا ورغف

لقد اشتهرت شاة منيع هذه وشاع أمرها حتى صارت قصتها مثلا ٠

ويبدو أن محمد بن يسير كان ينحو نحوا جديدا في الشعر ـ كما قلنا ـ ويعنى بتجارب قلما حفل بها الشعراء الذين سبقوه ٠ فنجده عندما يحاول أن يستعير حمارا من جاره ليمضي عليه في حاجة له ، ويأبى عليه جاره فلا يعيره الحمار يقضي تلك الحاجة ماشيا ولكنه لا ينسى أن يشكو الى صديق لجاره بخبره كله بقصيدة رائعة ، وعندما يطلب من صديق اخر فراخا من الحمام الهداء فيعطيه فراخا غير منسوبة ويأخذ المنسوبة لنفسه ، يسجل هذا الحدث بقصيدة فريدة أيضا(٢٣) ٠

واذا كان المثل في الغنم (شاة منيع) وفي الكلاب (كلبة حومل) فان المثل في البغال (بغلة أبي دلامة) ٠

ونرى ـ قبل أن نذكر هذه البغلة ـ أن نشير الى أن كتاب (القول في البغال) عامة لابي عثمان الجاحظ يعتبر حلقة متممة لكتابه الشهير الحيوان ٠ وقد انفرد بطرائف وأخبار وأشعار عن البغال فتحت في الادب بابا فذا انفرد به (أبو عثمان) عبر العصور عندما جمع من الشعر الذي

عنى بالبغال ما لا نعرفه تهيأ لحيوان غيره خص بكتاب وحده ۰ وتعتبر قصيدة (أبي دلامة) في وصف بغلته ومطلعها :

أبعد الخيل أركبها ورادا   وشقرا في الرعيل الى القتال

من الشعر النادر ، فقد وصف هذه البغلة وأخلاقها وكيف تخلص منها ببيعها لرجل (خائب) (قديم في الخسارة والضلال) ۰ وتضمنت أبياتها التي بلغت (٥٦) طابعا هزليا فيه كثير من روح (أبي دلامة) وظرفه(٢٤) ۰

ومن طريف أخبار بشار بن برد ما رواه عنه (حسن بن السجاح) ۰ قال : جاءنا بشار يوما فقلت له : مالك مغتما ؟ فقال : مات حماري فرأيته في النوم فقلت له : لم مت ؟ ألم أكن أحسن اليك ؟ فقال :

سيدي خذ بي أتانا   عند باب الاصبهاني
تيمتني ببنان   وبدل قد شجاني
تيمتني يوم رحنا   بثناياها الحسان
وبغنج ودلال   سل جسمي وبراني
ولها خد أسيل   مثل خد الشيفران
فلذا مت ولو عشت   اذا طال هواني

فقلت له : ما الشيفران ؟ قال : ما يدريني !! هذا من غريب الحمار فاذا لقيته فأساله(٢٥) ۰

وبعد فان شعر الحيوان يحفل بكثير مما ينطوي على نحو جديد فيه اصالة وبراعة وان لم يتهيأ له أن ينهض ويطرد ليحتل مكانة بين الموضوعات المألوفة أو يغدو منوالا سائرا بين الشعراء ۰

---

(١) طبع في مدينة ليدن عام ١٩٢٨ ۰
(٢) طبع في مدينة ليدن عام ١٩٢٨ ۰
(٣) كتاب معاني الشعر : الاشنانداني ١٣٩ ۰
الاغاني : الاصفهاني ٢٩٤/١٦ طبعة دار الثقافة في بيروت عام ١٩٦١ ۰
ديوان المعاني : أبو هلال العسكري ١١٥/٢ « ومن المذكورين في صفة الفرس البحتري وهو أوصف المحدثين للخيل وأكثرهم اجادة في نعتها » ۰
(٤) كتاب القول في البغال : الجاحظ ٢٠ ۰
(٥) تاريخ اداب اللغة العربية : جرجي زيدان ١٧٥/١ ۰
(٦) الاغاني : ١٧٢/١٧ ـ ١٧٣ ۰
(٧) تاريخ اداب اللغة العربية ١٧٦/١ ۰
(٨) شعر الراعي النميري وأخباره (المقدمة) : تحقيق الكاتب ۰
العمدة : ابن رشيق ٢٩٦/٢ حول أشهر نعات الابل ۰
(٩) الاغاني ١٥٦/٩ أنشد الوليد بن عبد الملك شيئا من شعر الشماخ في صفة الحمير فقال : ما أوصفه لها اني لاحسب أن أحد أبويه كان حمارا ۰
(١٠) الحماسة : ابن الشجري ١٧١ ۰ زيدان ٩٤/١ ۰

(١١) الكامل : المبرد ٣٦٨/١ ٠

(١٢) روى (ابن الشجري) في حماسته ٢٠٦ ـ ٢٠٩ مختارا من الشـعر الذي عنى بالذئب للنجاشي الحارثي وحميد بن ثور والفرزدق وخصت الحيوانات بستة فصول في كتاب أبي هلال العسكري ديوان المعاني ١٠٦/٢ ٠ شاعرية الوليد بن عبيد : حمدي علي ٠ وقد عقد فصلا طريفا حقا قارن فيه بين قصائد البحتري والشريف الرضي وابن خفاجة في وصف الذئب كما تحدث عن الاسد ووصفه أيضا ٢١٥ـ٢٤٤ ٠

(١٣) لامية العرب : الشنفرى ٠ شرح وتحقيق الدكتور محمد بديع شريف ٤١ـ٤٤ ٠

(١٤) الاغاني : ٣١٥/٢٢ـ٣١٦ ٠

(١٥) الاغاني : ١٢٤/١٢ـ١٢٥ ٠

(١٦) ديوان البحتري ٠

(١٧) الاغاني : ٦٦/٢٣ ٠ روى أبو الفرج قصيدة أخرى لبكر بن خارجة مع قصة نظمها وتعليق الجاحظ عليها تعليقا يعتبر فريدا فيما نعرف من عادتهم في استحسان الشعر والاغراء به ٠ قال أبو الفرج : حدثني عمي عن الكراني قال :

حرم بعض الامراء بالكوفة بيع الخمر على خماري الحيرة ، وركب فكسر نبيذهم ، فجاء بكر بن خارجة ليشرب عندهم على عادته ، فرأى الخمر مصبوبة في الرحاب والطرق ، فبكى طويلا ثم أنشأ يقول :

يا لقومي لما جنى السـلطان ... لا يكونن لمـا أهان الهـوان

صبها في التراب من الكر ٠ ٠ ... م عقـارا كأنهـا الزعفـران

صبها في مكان سوء لقد صـاد ... ف سـعد السعود ذاك المـكان

من كميت يبدي المزاج لها لؤ ٠ ٠ ... لؤ نظم والمنفصـل منـه جمان

فاذا ما اصطبحتها صفرت في ال ٠ ٠ ... صدر عندي من أجلها الخيزران

كيف صبري عن بعض نفسي وهل يصـ ... ـبر عن بعض نفسه الانسـان

قال : فانشدتها الجاحظ فقال : ان من حق الفتوة أن أكتب هذه الابيات قائما ، وما أقدر على ذلك الا أن تعمدني ، وقد كان تقوس ، فعمدته ، فقام فكتبها قائما ٠

(١٨) الاغاني : ٣١٨/٢٠ ٠

(١٩) الاغاني : ١٩٥/١٤ـ١٩٩ ٠

(٢٠) الاغاني : ١٥٩/١٤ ٠ النقد الادبي وأثره في الشعر العباسي لكاتب المقال ١٣٤ ٠

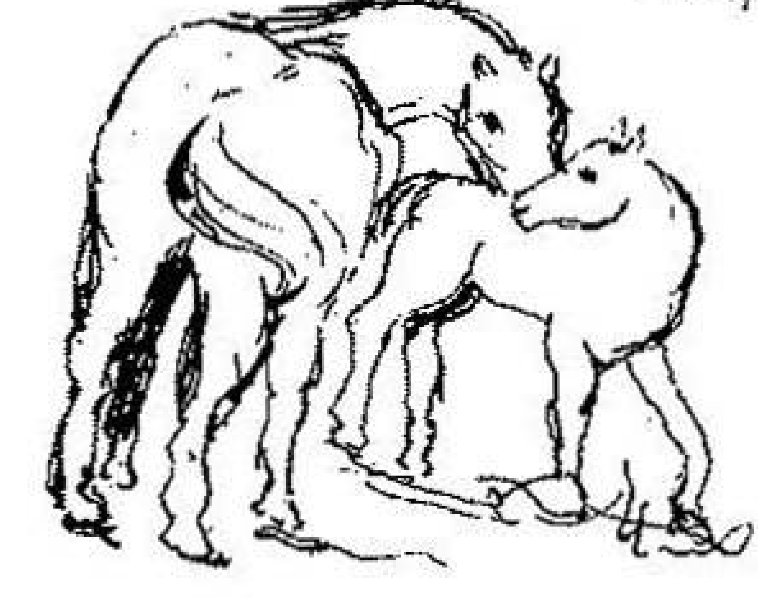
(٢١) البيان والتبيين ١٤٥/١ ٠

(٢٢) الاغاني ٢١/١٤ ٠

(٢٣) الاغاني ٣١/١٤ ٠

(٢٤) القول في البغال : الجاحظ صفحة ١٠٠ ٠

(٢٥) الاغاني ٢٣١/٣٠ ٠



اللهجات العربية لهجات العشائر

عباس العزاوي

اللهجات العربية(١) تشترك مع الفصحى في كثير من أحوالها اللفظية وأوضاعها في تشكيلاتها ، واتجاهاتها ، وغالب معانيها ومبانيها ، وهي في الاصل لغة واحدة ، وهذا ما يجعلنا نعتقد ان العرب أرباب لغـة واحـدة قديمة لا يدرك أولها ، وكلما زاد التباعد بين الناطقين بها تولدت فيهـا لهجات كثيرة ودخلتها ألفـاظ جديدة اكتسبتها من موطن استقرارها ، وفقدت بعض مزايا كانت متصفة بها كلهجة • الا اننا نرى في الوقت نفسه الاشتراك بين الالفاظ سائداً ولا نجد له تعليلا سوى هذا السبب ، وان كنا نرى الافتراق بينها كبيرا في كثير من الاحيان أو يشير الى بعد عظيم ، وتخالف كبير بين الالفاظ وتوغل في القدم والانعزال من أيام التنوخ وقبله ومن سيل العرم ومن سكنى العشائر العربية في مواطن متباعدة ولذا نشاهد (اللهجات العربية) كثيرة كافتراق عشائرها وتنوع نجار أهليها وتفرعات أنسابها ، وتعدد أهليها ، وكان توزعها يشير الى الفرقة القديمة بينها ، بل نرى التنافر مستمرا كلما استعصى توحيد الامة وجمع شملها تحت راية واحـدة •

ومن الصعب جدا توحيد هذه اللهجات في وقت اكتسبت استقرارا تاما ووضعا لا يتبدل •

ألف الاهلون واعتادوا حالتهم هذه بحيث صاروا يعدون المخالفة من أكبر المشاكل أو من أعظم المصاعب التي تعترض طريق الاصلاح •

ومن جهة أخرى نشاهد هذه اللهجات متقاربة مع العشائر المتقاربة في النجار ، والسكنى والمصالح الاجتماعية ، كما هو الشأن في العشائر العدنانية من جهة ، والقحطانية من جهة اخرى ، أو نجدها متباعدة بنسبة التباعد بين بعضها في الاغراض المذكورة • مثل التباعد بين العدنانية والقحطانية • ومن لاحظ أنساب العشائر والشعوب علم مقدار التفرع وما يتبعه من توسع اللهجات وتعددها •

رأى العرب ضرورة ماسة الى التفاهم أو الى النظر الى المصالح الادبية المشتركة والاغراض الدينية وكانت مكة المكرمة آنئذ كما جاء في القرآن الكريم « واذ جعلنا البيت مثابة للنـاس وأمنا »(٢) • وبأمل تحقيق هذه

الاغراض والمقاصد يحجون اليها وفيها تجتمع (أسواق العرب)[٣] ، ويذهبون للتجارة في رحلة الشتاء والصيف ، ويجتمعون في (أسواق الادب) للتمتع باللغة والشعر • وهذه تؤدي الى تهذيب « وتكامل » في اللغة حيث صارت الفصحى أصلا •

كما ان (البيت) ومناسكه موطن عبادة (حج) ، ومرجع حل الخصومات والمطالب الدينية الاخرى • حيث أصبحت مكة عاصمة العرب الدينية والمدنية •

كانوا بهذه الضرورة وتلك الحاجة يتفاهمون ب (لغة قريش) وهي لغة العرب العدنانية الفصحى بها تدون أشعارهم وتخلد أمثالهم وبها يتفاهمون تفاهما عاما ويتحاكمون في شؤونهم أمام (حكامهم) بل لايعرفون للتفاهم لغة سواها فيما بين العشائر والاقوام أو الشعوب العربية في مختلف الاصقاع حتى عمت العرب جمعاء ، وان لكل قبيلة لهجة خاصة بها •

استقرت على هذا قبل ظهور الاسلام ونبغ فيها شعراء أكابر • منهم أرباب المعلقات والاشعار والقصائد الاخرى وبعضهم جمعت لهم دواوين جعلوها مستودع الحكمة ومضرب الامثال وديوان العرب ومجموع الادب حتى شاع ذلك وتداولته العرب بالرغم مما لدى كل عشيرة من العشائر من لغة خاصة (لهجة) •

ولما ظهر الاسلام أقر هذه اللغة المنتقاة المختارة للعرب أعني (اللغة الفصحى) ونطق بها القرآن الكريم فقويت به ، ونالت مكانة أعظم فاتخذها العرب كافة لغتهم الدينية والرسمية كما كانت لغة تفاهم بين المسلمين ، وهكذا زاد نشاطها وتمكن أمرها بحيث عادت (لسان الامة) دون تفريق يتدارسها العرب وان كان لم يعارض العرب المسلمون لما عند كل عشيرة من لهجة خاصة وجاء في القرآن الكريم اقرار هذه لأهل اللهجات الخاصة صرح في آية (واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات)[٤] كما نطق الرسول (ص) بلغة قريش لانها أكمل اللهجات • ومجاراة لاهل اللهجات كلمهم أحيانا بلسانهم مثل قوله عليه السلام مخاطبا بعض الحميريين حينما سأله (أمن مبر مصيام في مسفر) أي أمن البر الصيام في السفر ؟ فأجابه (ليس من مبر مصيام في مسفر) أي ليس من البر الصيام في السفر • وأمثال هذا مما ورد في الاحاديث الشريفة ، وخاطب الرسول (ص) بعض الوفود مثل وفد نهد العشيرة المعروفة بلهجتهم الخاصة بحيث صعب فهم مفرداتها على بعض الصحابة الكرام[٥] •

داموا على هذا أيام الرسول (ص) فتقلصت اللهجات نوعا وانكمشت فلا ينطق بها في المهمات العامة ولا في المجالس والدواوين وانما حافظت على خصوصيتها بين أهليها • وكان هذا مشروعا بعيد المرمى أو المدى لتقليص اللغات الاخرى وكاد يذهب أهل الردة (حرب اليمامة) بالقرآن الكريم لما قتل من القراء[٦] وفي الحروب الاخرى للاقوام وحدوث النزاع على قراءة

الآيات رأوا الضرورة داعية أيام الخليفة عثمان رضى الله عنه الى جمعه وتدوينه في مصحف شريف ، فكان أكبر عمل ديني ولغوي وأمرهم أن يكتبوه بلغة قريش وهي اللغة الفصحى فجاء تثبيتا لها وكان ذلك نحو سنة ٢٩هـ • وارسلت مصاحف اخرى الى الاقطار سنة ٣٠هـ • وصارت أصل الثقافة •

ولما بث الاسلام تعاليمه بين العرب وأراد الخلفاء أن يقوموا بالدعوة الاسلامية ونشرها في الاقطار المجاورة تجمعوا على صعيد الفتح ونشر الاسلام وصاروا يدا واحدة فكان هذا داعية لجمع (القرآن الكريم) من جهة ومن الجهة الاخرى رأوا ان اختلاط لغاتهم وتغلب اللهجات الاخرى على الفصحى أثناء الفتح قد ولد بعض المشاكل • وهذا ما دعا الى أن يبذل المسلمون جهودا عظيمة في أمر تثبيت اللغة الفصحى ومراعاة وسائل اتقانها حذر أن ينتشر العرب في الاقطار وتتغلب أكثرية السكان عليهم في لهجتها فتندثر لغتهم بل نرى الميل الى تعلمها من غير العرب كان كبيرا أيضا فأبدوا تهالكا وسعيا حثيثا وراء معرفتها وتنظيم الاخذ بها • والفضل الكبير يرجع الى الخليفة عثمان رضى الله عنه في تكثير نسخ الكتاب الكريم وتمكين الخط العربي في الشكلين الكوفي والمعقلي ، وتدوين اللغة ، وضبط مفرداتها وقواعدها ، والميل الى تفسير القرآن الكريم الى آخر ما هنالك من استنباطات فقهية ، وعقائدية • وكان قبل ذلك قد أرسل عبدالله بن مسعود (رض) الى العراق لتعليم امور الدين وللنظر في المالية ، كما كان تدوين (الدواوين) و (فرض العطاء) • وكذا (وضع التاريخ الهجري) سنة ١٧هـ وكان ذلك أيام الخليفة عمر رضى الله عنه •

ان ضرورة نشر الاسلام والاتصال بالاقوام دعا أن يختلط العرب بهم ويتجمعوا لذلك من كل فج فتغلبت الكثرة في هذه اللهجات ويؤثر بعضها في بعض ومن أكبر المؤثرات ان العشائر العدنانية تجمعت وأثرت في الفصحى بلهجاتها الاخرى كما ان القحطانية وهي الاكثر عددا تغلبت على بقية اللهجات، وبالتعبير الاولى تغلبت القحطانية في كثرتها وتعدد لهجاتها على العدنانية ولكن أهلها تجمعوا في مواطن خاصة وكلها لا تخلو من تأثير بعضها في بعض •

يشاهد ذلك واضحا في (بناء الكوفة) وان القحطانية فيها غالبة • وهكذا تغلبت كل لهجة في محل كثرتها وتكاثرها ، فتعددت اللهجات بقدر التوزع وتنوعت خاصة في العراق فلا يقال (لهجة عراقية) وانما هناك لهجات ••• واللهجات لغات متعددة مستقلة عن الفصحى تماما كالقحطانية • أو لا علاقة لها الا في جهات الاشتراك في بعض الالفاظ والتعابير والصحيح أنها لا علاقة لها بالاعراب في أكثر الاحيان ، ولا في مدلول ألفاظ الفصحى • وربما كانت متضادة بل متباعدة عنها بقدر ما كان العرب متباعدين بعضهم عن بعض وهي ليست لهجات متولدة وانما هي لغات قديمة ترجع الى عهد

بعيد • يضاف الى ذلك أن أرباب الفصحى والناطقين بها قد انتشروا انتشارا هائلا في الاقطار فعادت لغة فردية • وبذلك أضاعوا لغتهم في اعرابها وان كانت العشائر العدنانية احتفظت بألفاظها دون اعرابها •

والاختلاط بالاعاجم لم يكن سببا لفقدان الاعراب بل كان سببا في فقدان اللهجة والتأثير متقابل من الطرفين • وان الباحثين لم يدركوا قيمة الكثرة وتأثيرها في شيوع لهجات عربية وتغلبها •

فالعرب يتكلمون بما شاع بينهم من اللهجات ويؤثرون بها أيضا في الاعاجم • وهذا الخطر ولد ضبط الفصحى في لغتها واعرابها وبلاغتها • ولم يلتفتوا الى اللهجات العربية الاخرى مما لا يمت الى الفصحى بصلة أو سبب •

وللبدو لهجات لا تخلو من تأثير في الارياف أو من تأثير متقابل والحالة مشهودة في بني لام ، وشمر طوقة ، وفي آخرين • فالعراق لهجاته واضحة بين الناصرية والبصرة والعمارة وبغداد والموصل وأنحاء كل منها ، بل نرى التفاوت يشمل بعض المحلات من البلد الواحد وكذا في الشام ومصر وغيرها •

اهمل العرب شأن اللغات أو اللهجات ولم يعنوا بضبطها وانما كانت عنايتهم الكبيرة بالفصحى دون غيرها • ولذا شوهد تأثير تلك اللهجات •

وهنا الحدود الفاصلة بين اللهجات والفصحى انعدام الاعراب في اللهجات وبقاؤه في الفصحى ثم تلاشى منها فصار صناعيا •

و (اللهجات العامية) أو بالتعبير الاولى اللهجات الشائعة تقابل الفصحى الا انها لم تكن لغات منشقة عليها أو مشتقة منها لتخرج عليها وانما كانت تمشي على اطراد ما كان لها مما اعتادته • واذا كان هذا الامر في الفصحى من المشاكل العظيمة فمن الضروري تسهيل القواعد وتأمين نشرها ، فقد بذل العرب ما في وسعهم لتمكين ذلك ولا زال باب الاصلاح مفتوحا على مصراعيه •

والمهم ان وجود لغة الكثرة أو لهجتها لا يمنع من التمسك بلغة القرآن الكريم ولكن الاهمال أدى الى تقهقرها وانحطاطها وصيرورتها صناعية تكتسب بالدرس • أما اللهجات فقد كانت موجودة مع وجود الفصحى ولا تزال الى يومنا هذا مستمرة في دوامها واستعمالها الا أن دراسة القرآن الكريم والادب العربي وقواعد اللغة قد قرب من الفصحى وأنسى العامية أو بقيت في كمون نوعا بين الناطقين بها في الحالة الاعتيادية ومقصورة عليهم فلما قل الاهتمام بالفصحى ظهرت اللهجات وتمكنت ولم تنقطع عن الاستعمال •

وتدعو الحاجة الى أمر جدير بالاهتمام أعني تدوين هذه اللهجات لمعرفة تاريخها بغية الاطلاع على تطورها ومعرفة مشاكلها وبينها بعض الالفاظ الفصيحة أو بعض الكلمات التي لا تعد غريبة في اللغة وهي مألوفة ومتداولة

فيها - ما يكون النطق بحروفها على خلاف المألوف · فاذا ازيلت العقبات أمكنت الاستفادة من هذه اللهجات للفصحى · ويحتاج ذلك الى تفصيل له محله في موطنه الخاص به ·

لم يؤثر الاعاجم في الفصحى أي تأثير وان لغاتهم المتصلة بنا أو المجاورة لنا محتاجة دوما الى (اللغة العربية) لتوسيع لغاتهم وآدابهم لتتكامل بالاقتباس منها والاستفادة من معينها · واذا دخلتنا ألفاظ أعجمية (معربة) زادت في حياة لغتنا وسدت حاجتها وصرنا نلتمس ما يقابلها ليحل محل الغريب ويزول أثر تلك (المعربات)[٧] ولم نر تأثيرا كبيرا في (اللغات الاجنبية) كالانكليزية مثلا فانها وان توغلت بسبب ما تحمل من وسائل حضارة ولكنها لم تؤثر في اللغة العربية لا في آدابها ، ولا في أساليبها · وربما كان التأثير في المفردات خاصة حيث طغت على غيرها ، وهذا لايختلف قلة أو كثرة في لغات كثيرة · وكان ذلك في لغات التخاطب وهي المسماة ب (اللهجات العامية) حيث نرى عشائر عربية كثيرة جاورت ايران أو داخلت الاكراد ، أو اختلطت بالاتراك ففقدت لغتها · وهذا بسبب درجة هذا الاختلاط وزيادته وفي حالة القلة تعلموا اللغة ، واحتفظوا بلغتهم ويحتاج ذلك الى زمن طويل يعينه ذلك الاختلاط في مجتمع غير عربي · وللتزاوج معه أثر كبير ، وكذلك حدوث أحوال طارئة كما وقع للشيبانيين أيام عضد الدولة البويهي وتنكيله بهم بحيث اختلطوا بالاكراد أكثر فلم يعودوا يعرفون في مجموعة كما كانوا قبل ذلك · وأوضح ابن الاثير في حوادث سنة ٣٦٩هـ ــ ٩٧٩م من كتابه الكامل هذا الرأي وحوادث مشهودة في التأثير في اللغة لا تنكر ·

وذلك كله نتيجة تماس واختلاط تامين ، ومن هؤلاء (الشهرزورية) ، وشاهدنا على هذا (عشيرة البيات)[٨] فان من كان منها مجاورا للعشائر والانحاء العربية فقد لغته التركية ، وأخذ يتكلم بالعربية ، والجاوانية من الاكراد أصل امرائها من العرب من عشائر بحيلة ففقدت لغتها · ولما صارت الى البلدان العربية دخلت لغتها في المجموع و (الكرد) في لواء الديوانية صاروا عربا وفقدوا لغتهم بحيث عادوا لا يعرفون غير اللغة العربية أو ذابوا في الكثرة العربية ولكنهم لا يزالون يحتفظون بأصلهم كما أوضحت ذلك في عشائر العراق[٩] · كما أن العرب الذين امتزجوا بالاكراد لم يبق عندهم غير الاحتفاظ بالنسب ، وتوضح ذلك بجلاء في الامثلة التاريخية العديدة · وهكذا العشائر التي سكنت ايران لا يزال بعضها محتفظا بنسبه مثل نخع وخزاعة وأسد ·

وعلم اللهجات لا يقصد به الطعن في الفصحى · وانما أمله أن يثبت أحوال كل لهجة وبيان طريق الاستفادة منها · وهذا هو الغاية المقصودة من البحث · ومن الهام ذلك لزوم معرفة العلاقة باللهجات وبالفصحى معا ، ولم يكن العمل شعوبيا في الكره للعرب · وتحويل اللغة الفصحى الى لهجات

أخرى ، ويضاف الى ذلك بيان أصل نشأتها بالنظر للفصحى وغيرها . وهكذا ضبط قواعدها . من صرف ونحو ولغة أو مفردات وتعابير ، وهذا يعين لنا لزوم تبسيط اللغة الفصحى وتقريب اللهجات منها .

ولم يكن الغرض اظهار الصعوبة في الفصحى ، وانها لا تصلح أن تكون لغة عامة لما داخلها من عرقلة في فهمها ، ومن كثرة في قواعدها أكثر من اللازم . كل هذا غير مقصود وخارج عن البحث في اللهجة المقصودة ، وصعوبة تعلم اللغة ، ولزوم تيسيرها وتسهيلها أمر خارج عن الموضوع . ومثله لزوم المحافظة على تراثنا اللغوي ، ووجوب العناية بتجديد لغتنا من كل طرق الاشتقاق والتعريب وما شابه ذلك فكل هذا خروج عن الصدد . ولا يمنع البحث فيه من علماء لهم اختصاصهم ، وعلمهم . فليس تجدد اللغة ونشاطها ما يمنع الاتصال باللهجات وتناول موضوعها ، والتوسع في بحوثها كاملة وتامة .

لهجات العشائر وتطورها

١ ــ لهجات العشائر

من المشاكل العويصة التي تجابه مدققي اللهجات العربية من غير الفصحى (لهجات العشائر) سواء في قطر عربي واحد ، أو في الاقطار العربية كافة . وما نشاهد بينها من الاتفاق من جهة والافتراق والاختلاف من جهة أخرى . فاذا كانت الفصحى لهجة كسائر اللهجات فان المشاركة ظاهرة بينهما . وان الافتراق الطويل تلاه اجتماع بين العرب مثل حادث (العشائر التنوخية) ، وحادث سيل العرم فقد أدى الى استعمال الالفاظ الكثيرة ، في الفصحى خاصة . كما حصل اختلاط كبير أثناء الفتوح الاسلامية . دعا الى عين ما جرى سابقا ، وحدثت مشاكل كثيرة في اللهجات سواء في اتفاقها في لهجاتها أو في افتراقها .

يوضح هذا ان بعض العشائر قد تدخل المدن وتسكن محلة من محلاتها فتحتفظ باللهجة الاصلية لتلك المحلة التي توطنتها مع بقاء أثر من لهجتها التي جاءت بها ، أو أن لهجتها تتغلب على لهجة المحلة ، أو تكون متأثرة في لهجة العشيرة التي سبقتها في السكنى وذلك تبعا لحالات وأوضاع اجتماعية خاصة تدعو الى تثبيت تلك ودوامها على ما هي عليه .

أولا ــ تهمنا وجهات الاتفاق بين الاقطار فاذا قلنا ان لهجة تونس تشبه اللهجة العراقية فهذا صحيح ، الا أن الآراء اضطربت في التعليل ، فمن قائل ان جيشا جهز من العراق فسكن فيها ، فأثر في لهجته عليها . وهذا غير صحيح . لان التأثير مهما كان قويا فانه وقتي وزائل اذ لا يعقل أن يجتاح الجيش لهجة تونس فيتغلب عليها أو يزيد على أهلها فيؤثر هذا التأثير الكبير بحيث تنسى لهجة تونس الاصلية .

ويعارض هذا بآراء أخرى فمثلا :

١- أهل سخا :

ان هؤلاء من طيء ومنهم الخزاعلة والعبيد في العراق(١٠) • ولا شك في أن هذا لا يخلو من مماثلة في اللهجة ان لم تتأثر بمؤثر آخر ، كما أنه دليل القربى بين هذه العشائر • فاذا نظرنا الى لهجة أهل سخا وعلمنا أنها موافقة للهجة الخزاعل في العراق قطعنا بالقربى واتفاق اللهجة معا • والا وجب أن نتحرى الباعث في تأثر لهجة أهل سخا في مؤثر آخر أدى الى اختلاف فيها عن لهجة الخزاعل في العراق أو أنه اذا فقد المؤثر علمنا أن لهجة الخزاعل في العراق متأثرة بمن جاورها أو اختلط بها من عشائر فالتدقيق يظهر الخلاف أو وجهات الاتفاق مع صحة القربى •

وكذلك العبيد فان بعضهم يرى أنهم من عبيد طيء في سخا وآخرون يستدلون بالمحفوظ على أنهم من عشائر زبيد • ويصح في هذه الحالة تدقيق الافخاذ وتدقيق النخوة ، والاسماء ومشابهتها ، أو عدم المشابهة ، وكذا تدقيق اللهجة سواءا للهجة سخا أو لهجة العبيد لنقطع في القربى وخلافها ، أو التأثر في اللهجات المجاورة •

٢ - الوجه القبلي من مصر :

هم أهل الصعيد وما جاوره نرى لهجتهم ولهجة العراق واحدة أو متقاربة جدا فكيف افترقوا وما الدافع لاتفاق اللهجة مع مخالفتها للقاهرة والاسكندرية ؟ وكذلك تدقق لهجتها مع لهجات العراق ليعرف أنها أقرب الى أية لهجة من لهجات عشائرها ، وحينئذ يحقق عن عشائر الجهتين ليعرف وجه الاشتراك أو عدمه • في الاولى يسهل التدقيق لموافقته في القربى • والا قطعنا في الموافقة في السكنى من حين الافتراق ، وانه لم يتبدل فنعين الحالة في السكنى والقربى أو في أحدها وهذه طريق التدقيق • فاذا شوهدت مخالفة كثيرة أو قليلة قطعنا بالتأثير أو التأثر قل أو كثر •

٣ - السودان في جنوب مصر :

لا يختلفون من حيث اللهجة عن عرب العراق وعرب الصعيد • قال لي بعض أفاضلهم من الاساتذة : أن عشيرتهم تدعي (العرائق) ولعلها من العراق فسميت بهذه التسمية ، فأجبته : أرى من الضروري أن نلتمس ذلك في العشائر لجنوب جزيرة العرب فلعل لها أصلا فيها لان الهجرة الى السودان ومصر انما تكون في الغالب من الجزيرة عن طريق باب المندب أو من البحر الاحمر • ولذا اتفقت في اللهجة سواء كانت متفقة بنسب أو متخالفة فالسكنى لها أثرها • وان أصل عشيرة (العرائق) من عشيرة العلائق • كما ان كتاب العشائر للمقريزي يتعرض لذكرها فعلمنا أن أصلها من عشائر جنوب الجزيرة مما لا يدع ريبا في القربى • ومن ثم الموافقة في اللهجة بينها وبين عشائر العراق التي تمت الى نجار قحطاني •

٤ ـ **بعض عشائر الشام :**

ان هذه أيضا تشبه عشائر العراق في اللهجة وتشترك معها في النسب أيضا مثل شمر وعنزة والعكيدات والبكارة (البقارة) وعشائر أخرى كثيرة موزعة بين العراق والشام تمت الى أصل واحد ولهجتها واحدة · أو كانت في الاصل متقاربة السكنى فتأثرت في لهجة واحدة ·

٥ ـ **عشائر نجد :**

ان الكثير من هذه العشائر يشارك عشائر العراق في الاصل واللهجة أو في اللهجة فقط مثل عشائر بني تميم والضفير وعنزة وشمر وبني خالد والعجمان ·

فاذا علمنا أن هذه العشائر سائرة على مجرى واحد في تنقلها لانستبعد هذه الموافقة في اللهجات بسبب الاختلاط في التنقل فان عشائر جزيرة العرب ابان (الفتح الاسلامي) توزعت الى أنحاء وأقطار مختلفة · فمنها من احتفظ بلهجته غير مزاحم سواء كان في العراق أم كان في الاقطـــار الاخرى ، ولا يشترط أن تكون متقاربة في السكنى متفقة في اللهجة ولذا تغلط أن نعدها من عشيرة واحدة الا ما تحقق بأدلة ·

فاذا كان هذا الاصل مرعيـــا من أول الفتح حتى هذه الايام قطعنا بصحته وعلمنا أن (المجرى التاريخي) واحد وبهذا نقطع بوحدة اللهجة باعتبار أن الاصل واحد أو متقارب في السكنى ·

ثانيا ــ ان التدقيقات تظهر لنا فروقا بين لهجات العشيرة الواحدة أو العشائر فاذا نظرنا الى لهجة شمر البدو رأينا أنها لا تضارع لهجة شمر طوقة المتفرعة منها فيجلب النظر هذا الاختلاف فيزيد في المشكلة صعوبة لنعلم كيف تبدلت لهجة (شمر طوقة) وكذلك لهجة (غزي) من بني لام ، ولهجة بني لام أنفسهم عن أصل بداوتهم اذ نسمع أنهم حينما كانوا بدوا لا يفترقون عن شمر الاصليين وهم من طيء مثلهم ونسمع شاعرهم يقول :

الزول زوله والحلايا حلاياه   والفعل ما هو فعل ضافي الخصائل

ومعنى هذا البيت ان سيدة من بني لام سئلت عن زوجها الاخير وكان أخا لزوجها السابق المتوفى قبلـــه ، فقالت : هو مشاكل له ، ومماثل لا يفترق عنه بوجه ، فحلاياه (أوصافه) تماثله سوى أنه لم يكن ضـــافي الخصائل مثله أي لزوجها السابق مستوعبا صفات الرجولة والشجاعة · وكذلك يقـال في لهجـــة السعيد والسواعد وآل حميد والازيرج وعشائر قحطانية كثيرة ساكنت العدنانية في المنتفق فتأثرت بلهجتها وأضاعت اللهجة القحطانية كلا أو بعضا ·

مع العلم بأن العدنانية قد اختلط بعضها ببعض واتصلوا اتصـــالا مكينا في السكنى ، والاختلاط والاشتراك في الحروب المتجددة بين حين وآخر

بحيث نسي كل منهم لهجته الاصلية الخاصة به تقريبا من أمثال كنسانة والمنتفق ، ولكنها لم تعدم كل ما لديها تماما الا أن التأثير في هذا الاختلاط ظاهر فيما بينهم فضلا عن العشائر القحطانية المختلطة بهم • فقد اكتسبت اللهجة منهم وضعا بحيث كادت تفقد لهجتها بحذافيرها نظرا لشدة الاختلاط وقوته في المجاورة •

أما كثرة العشائر القحطانية في شمال العراق فانها قد ذابت فيها عشائر عدنانية مثل تميم ، والحديدين ، وقيس فتأثروا في اللهجة القحطانية وهذا مشاهد لا ريب فيه • وان كانت لكل عشيرة من العدنانية والقحطانية خصوصيتها • بل أن تفرعات العشائر العدنانية قد أدت الى اكتسابها بعض الالفاظ والتلفظات من غيرها ولكن الفروق دقيقة جدا لا تظهر لكل أحد فالزبيدية مثلا يفترق بعض عشائرها عن بعض كما تخالف أحيانا لهجة طيء وسائر القحطانيين اللهجات العدنانية •

ومن جهة اخرى أن عشائر العراق عامة متأثرة بعضها في بعض والتأثر في الغالب للعشائر العدنانية ، أو للقحطانية في كثرة كل منها في مواطنها ، كما أن للارياف لهجات تأثرت فيها ممن ورد اليهم كلا أو بعضا في توالي القرون والاختلاط المستمر •

وهذا كله يعين المراحل التي جرت على عشائرنا من أول الاسلام الى أيامنا هذه • وفي خلال هذه الحقبة وردت عشائر من الجزيرة الى العراق وفيها شوهد التأثير والتأثر باديا للعيان ومن الممكن أن نلتفت الى عشائر الجزيرة في مختلف أنحائها وندون عن لهجات عشائرها ليظهر مقدار التحول والتبدل في الاطراف كالعراق وسوريا ومصر فيشاهد الاختلاف فيما بينها • وحينئذ يكون من السهل معرفة اتصال العشائر في القربى والنسب أو في المشاركة في السكنى قديما ، أو الاقتباس من أهل الموطن الذي حلته عشائر قبلهم فتأثروا فيها • فللعشائر المختلطة بالعدنانية أثر في الجزيرة لا يزال باقيا • فنعلم اللهجات التي أخذت منها الفصحى أو التي كانت بعيدة عنها وهذا يحتاج الى اتصـال وثيق بالعشائر العربيـة المنتشرة في الجزيرة بعيدها وقريبها •

ويهمنا كثيرا أن نقدم البحوث في عشائر الجزيرة ، ونثبت لهجاتهـا العدنانية والقحطانية ، ونقف على درجات الاختلاط الاصلية ، وما طرأ من جراء الاختلاط بقدر الامكان سواء كان ذلك من تدقيق أصول كل واحـدة منهما ، أو من ادراك الفروق الموجودة في الاثنين الى آخر ما هنالك • ومن ثم تسهل مقابلة عشائرنا بعشائر الجزيرة ، وما تولد في العراق أو في الشام أو مصر وغيرها من اختلاف أو مخالفـة ، فيعرف ما طرأ ، وما هو أصلي لم يتبدل •

هذا وتكرر التجارب ، وتمحص الاوضاع والحالات حتى ينكشف الامر بصورة لا تقبل الارتياب والتشكيك فينجلي المبهم • وتتوضح المعرفة ،

ويعرف أمر آخر جدير بالالتفات هو ما حدث أو يحدث في لهجاتنا في مختلف الازمان ، ونعلم وجوه الاستفادة من هذا التغير من وجوهه ٠

٢ ـ تطور اللهجات

دامت لغة العرب الفصحى أجيالا ، حتى اكتسبت انتظاما وعلا شأنها بين اللغات ، ووصلت الى درجة لا تجاريها لغـة ، خدمتهـا عقول نيرة وجبارة . فأبرزت ما فيها من دقائق بأكمل وجه وانتشرت الى خارج الجزيرة، وتمكنت في العراق والشام ، ومصر ، والمغرب الاقصى ، والاندلس ، وظهر أدبها في ايران ، وتركستان ، وفي الجمهورية التركية ، وفي الهند ، فأثرت في الاقوام الشرقية والاسلامية ، فليس بعد هذه المكانة ما يدعو لنبذها ، وابدالها بغيرها ؟ لا سيما وقد وسعت لسان العلم والادب والدين وجاءت معاجمها طافحة بثروة عظيمة ٠ والقرآن العظيم من أجل المراجع في لغتهـا ويحوي النصوص الاولى في عقائدها وفقهها ٠

وهذا أمر لا تزاحمه لهجة ، ولا يخشى أن تحل محلها ، ولكن دراسة هذه اللهجات قد تعد ذات مكانـة من ناحيـة الطرق الطبيعية في تكوين اللهجات ، ودواعي شيوعها ، وعلاقاتها بهذه اللغة وأدبها ، مما يخدم اللغة الفصحى ، أو يستحق النظر والالتفات من الوجوه الواجبة الأخذ في تسهيل الفصحى وتقريبها من لسان عوامنا لتكون قابلة للدخول في الادب القريب من العامية ، أو استفادة العوام واقتناصهم من طريق تمثيل أدبهم بلغـة مبسطة لا تختلف عن اللهجات كثيرا ٠

ان اللهجات العربية من أول الاسلام يصح بيانها في مجموعتين :

١ ـ اللهجات العدنانية :

كثرتها في الارياف الجنوبية من الجمهورية العراقيـة ٠ ولهجاتهـا مختلفة للتباعد بين عشائرها ، وذلك مثل لهجة تميم ، ولهجة المنتفق ٠

وضبط المقرئون ألفاظ القرآن الكريم ، وفيه لهجات العرب من عدنان، وتعـين في القراءات الامالة والروم والاشمام وما ماثل ذلـك من حركات الحروف ٠

٢ ـ اللهجات القحطانيـة :

كثرتها في الارياف الشمالية من الجمهورية العراقية ٠ تبـاعدت في مفرداتها وفي انعدام اعرابها ، وما كان مشتركا في لفظة قد يكون متضادا ٠ والتدوينات في الاضداد كثيرة ٠ ويضرب لذلك مثل : أن العشائر الزبيدية أثرت في بغداد كثيرا في وقت ما ، فوجهت لهجتها نحوها فكانت الغالبيـة لها ، ولكنها لا تتجرد من تأثير في اللهجات الاخرى أو التأثر بها كما أثرت

أكثر مما أثرت في لهجة الاهلين • وهكذا يقال في المنتفق وتغلب العدنانية فيهم عمت عندهم دون غيرها ، وان كان هؤلاء تأثروا بالسكان الاصليين ، وتأثر فيهم القحطانيون الذين ساكنوهم •

ومن ثم نرى اللهجات لم تكن نتيجة الاختــلاط بالاعاجم كما توهم البعض وهذا قديم ومعروف قبل الاسلام مثل عدي بن زيد العبادي(١١) والاعشى(١٢) وأقول : انهما أدخلا أساليب جديدة تؤدي الى نشاط وتجدد في اللغة وآدابها ، فاهمال شعرهما غير صواب ، ويوضح هذا :

ان المجتمع له لهجته التي هي نتيجة تحولات وتطورات اجتماعيــة بسبب تأثير الاختلاط ، وقد فطن العرب الى هذا التحول قديما ورأوا آثاره•

فهل بقي التحول القديم على حاله ؟ أو ان المجتمعات في اختلافهــا لا تزال مؤثرة ومتأثرة في حوادث هذا شأنها وكل ما عرض حادث اجتماعي جديد ولد عين النتائج أو ما هو من نوعها • واذا كنا تدون حوادث (التبدل) في مثل هذا ، فاننا نشاهدها واضحة في اللهجات الحاضرة كما نرى آثارها بادية للعيان •

والفصحى تطوراتها مشهودة • وقد أصبحت لغة قريش خاصة ثم اعتبرها العرب لغتهم في الشعر والادب فصارت لغة التخاطب بين العشائر المتقاربة والمتباعدة فنزل بها الكتاب الكريم فثبتها كما ثبتهــا الحديث الشريف والشعر القديم والأمثال ، فصارت عامة ، وجعل لها شمولا فعمت أكثر فأكثر ، وليس معنى هذا أنها حلت محل تلك اللهجات • وانما صارت لغة عامة للعرب ، ثم اختلطت قريش بالاقوام العربية فتغلب هؤلاء عليهــا بلهجاتهم وللكثرة أثرها فيهم فلم نجد من ينطق بالفصحى وانما صار النطق بها باعتبارها لغة عامة ، وفي الوقت نفسه لازالت اللهجات الاخرى تعتبر لغات أهليها الخاصة مؤثرة ومتأثرة ، ويخطىء من يظن التحول تشويهـا للفصحى • وانما الفصحى لغة عامة ، ومن ورائها لغات أو لهجات خاصــة كثيرة عاصرتها ، وعاشت على حالها • وهذه تغلبت على الفصحى أحيـانا كثيرة وبقيت الفصحى لغة المجتمع في تفاهمه وكل ما زادت الثقافة تقربنا الى الفصحى أكثر ، ولم ننس ما نتفاهم به من لهجاتنا الخاصة وهذه لم تدقق من الوجوه الاجتماعية الآتية :

١ ــ من جهة العلاقة وانها لسان المجتمع •
٢ ــ من ناحية الاستفادة منها للفصحى •
٣ ــ لم تعد مادة للمنظوم والمنثور من هذه اللهجات •
٤ ــ لم نلاحظ قواعد هذه اللهجات بالنظر للكثرة ولا ضبط الالفاظ بردها الى الفصحى •
٥ ــ لم نقدم معاجم اللغات أو اللهجات لاستفادة أهليها للفصحى ودرجة امكان الأخذ منها ، ولا جربنا المقابلة لنظر استعمالها وما يقابله من الفصحى • وقد قام أساتذة مصريون في تدوين ما عندهم •

٦ ـ لم ندرس علاقاتها باللغات الاسلامية ، ودخول المعربات فيها ، ودرجة الأخذ بها ، أو أن يحل ما يقابلها محلها ·

بقيت هذه النواحي مهملة جدا ، واننا لم نكلف أنفسنا عناء في تثبيت تطوراتها ، ومراعاة ما تجب مراعاته في الاصلاح ، والاهتمام بالصلات ، ودرجة التقارب فيما بينها ، أو مراعاة طريق التباعد وما يجب اصلاحه ·

والغربيون وجهوا لزوم البحث ، ولزوم التفاهم لأنفسهم وجعلوا القضية قضية لغة مجتمع · والا فلا نزال نرى لغات غربية (عامية) منطوقا بها عندهم ولم تستعمل في لغة الكتابة فلا ينكرون وجودها ، ولا ننكر نحن وجود ما عندنا · وعملنا أكبر من ناحية طريق الاستغلال والاستفادة من اللهجة وتسهيلها لخدمة الفصحى ، وانما غرضنا تصحيح للغلط أو المدخول، وأخذ بالصفوة من حادث اجتماعي ·

فاذا كنا لم ندقق الحادث الاجتماعي ، وهو اللغة ، فلا نلوم المدققين أو نستخف بأرائهم قبل أن تتكون لنا فكرة صحيحة · ونجد أن بعض اللغات البسيطة لا تختلف عاميتها عن فصحاها ويعوزها تبليغ الافكار بسبب ضيقها · وبعض المتحذلقين يتقصد المخالفة ، واستعمال الالفاظ الغريبة دون تورع في لزوم استعمال العامي الفصيح أي الموجود في الفصحى ولا تنكره · أو الموجود في اللهجة ولا تنكره الفصحى ·

والحاصل أن اللهجات يصعب تحديدها ، وهي كثيرة جدا سواء كانت في المحلة أو في القرية ، أو العشيرة ، أو العشائر ، ولكن الزمن قرب المسافات واشتركت العوائد ، واطردت اللهجات أو كادت تستبر مجموعات كبيرة بعد أن كانت منوعة ومتعددة · والآن يصح اجمالها في لهجات العاصمة وما والاها ، ولهجة الشمال ، ولهجة البدو ، ولهجات الارياف ، ويصح أن تقلص وأن يعاد النظر فيها فنقول : (لهجة البادية) و (لهجة الشمال) و (لهجة الجنوب) · وبغداد لا تخرج عن الاتصال بواحدة من هذه اللهجات · والعلاقة بها اجتماعية ·

---

(١) اللهجات يراد بها اللغات ولكن المصطلح في هذه الايام صار مقصورا على ما يقابل الفصحى من لغات عربية ·

(٢) سورة البقرة آية ١٢٥ ·

(٣) أسواق العرب في الجاهلية والاسلام تأليف الاستاذ سعيد الافغاني عميد كلية الآداب في الجامعة السورية بدمشق الطبعة الثانية سنة ١٣٧٩ هـ ـ ١٩٦٠ م في مطابع دار الفكر بدمشق · وبلوغ الارب في معرفة أحوال العرب تأليف المرحوم الاستاذ محمود شكري الالوسي الطبعة الثانية ١٣٤٢ هـ ـ ١٩٢٤ م ج ١ ص ٢١٤ ـ ٢٧٠ ·

(٤) سورة الروم آية ٢٢ ·

(٥) النهاية لابن الاثير ·

(٦) فضائل القرآن تأليف الحافظ اسماعيل بن كثير ، المطبوع في مطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٣٤٧ بتحقيق الاستاذ محمد رشيد رضا وفيه ان القتلى من القراء قريب من خمسمائة ص٢٥·

(٧) بحثت عن المعربات من التركية والفارسية في كتابي تاريخ الادب العربي في العراق ج ١ ص ١٠٦ – ١٣٠ و ج ٢ ص ٩٧ – ١٠٣ من مطبوعات المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٦٠ و ١٩٦٢ .

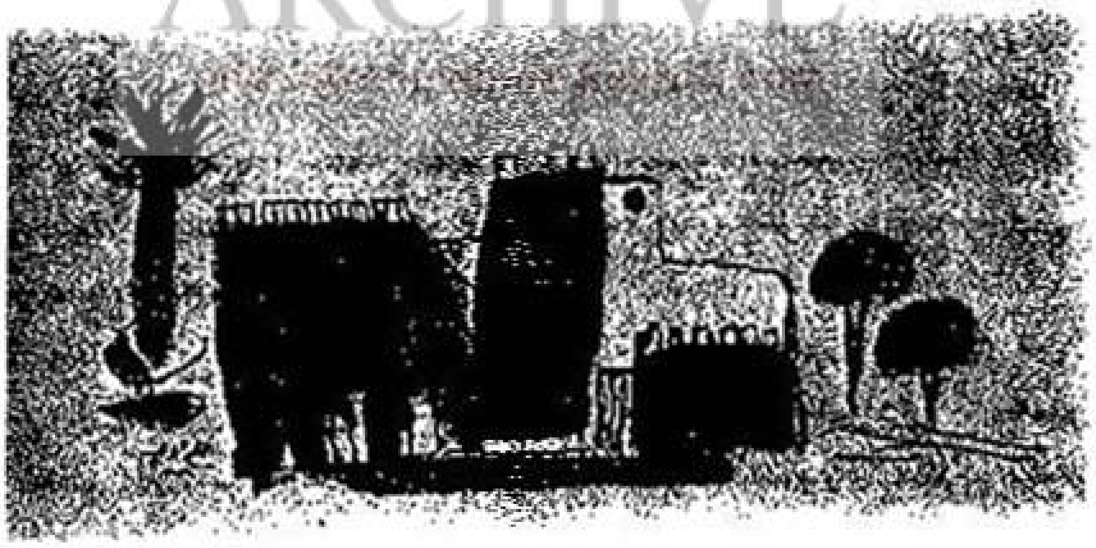
(٨) تاريخ العراق بين احتلالين ج ٣ ص ٣٦٧ – ٣٧١ وفيه تفصيل عن هذه العشيرة .

(٩) عشائر العراق ج ٣ .

(١٠) صبح الاعشى ج ١ ص ٣٢١ و ٣٢٢ وتاريخ العراق بين احتلالين ج ٥ ص ٢١ و ج ٦ ص ٢٤٤ وعشائر العراق ج ٣ ص ٢٤٥ .

(١١) من بني تميم كان يسكن الحيرة ويدخل الارياف فثقل لسانه واحتمل عنه شيء كثير جدا وعلماؤنا لا يرون شعره حجة « الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ٦٣ مطبعة المعاهد بالقاهرة سنة ١٩٣٢ » وكتاب « عدي بن زيد العبادي شخصيته وشعره » تأليف الاستاذ نذير العظمة ص ٩٩ وما بعدها وفيه تفصيل طبع ببيروت سنة ١٩٦٠ م .

(١٢) هوميمون بن قيس .. كان يفد على ملوك فارس ولذلك كثرت الفارسية في شعره « الشعر والشعراء ص ٧٩ » .



نظرية الشعر عند العقاد
نقداً وتطبيقاً

الدكتور عبد الحكيم بليع

في ذلك الافق العريض الممتد وراء التجربة الانسانية في اوسع آفاقها ومختلف أبعادها ، وفي هذا المركب الثقافي الخصب الزاخر بخير معطيات العقل البشري في أرقى ألوان المعرفة ، وفي تلك العبقرية الفذة التي أشرق وميضها على أرحب مجالات الثقافة الاصيلة ، وفي تلك النفس الحرة التي صارعت الزمن وغالبت الاحن وانتصرت على الحياة ، ثم في ذلك الروح الطامح الشامخ الذي حلق فوق القمم وتسامى عن الفضول والادعاء والتهافت ؛ في هذا كله ومن هذا كله تتألف الصورة الحقيقية لشخصية العقاد ، أو بالاحرى تتألف الصورة الحقيقية لشعره ؛ فشعره ليس الا صورة لحياته بكل ما اتسعت له هذه الحياة من ألوان المشاعر وضروب الاحاسيس ، وتلك هي النقطة الاساسية التي انبثقت منها وقامت عليها كل فلسفات العقاد ودراساته الطويلة في تحرير نظرية الشعر وفي تصحيح مصطلحه وتوضيح مفهومه منذ أوائل هذا القرن .

ان الشعر كما تصوره العقاد وكما صوره هو التعبير عن الحياة الانسانية من خلال الذات وبوحي من الاحساس الصادق ، هو امتزاج مستمر بين عالم النفس وعالم الحس ، هو الصورة التي تلتقى فيها حقيقة الانسان كانسان وحقيقته كشاعر ، هو القوة التي بوسعها أن تغير طبائع الاشياء وتنقل صور الكائنات المادية المحدودة الى عالم لا ينتهى من المعاني الخالدة ، هو الجوهر الذي تلتقى عليه مادة الكائنات وصورتها ؛ فمادتها مبثوثة في مشاهد الحياة ووقائعها ورسومها وأحداثها ؛ أما صورتها فكامنة في أعماق النفس سابحة في آفاق الشعور ، هو المجال الذي يلتقى فيه الفكر بالوجدان فلا يمكن أن يكتمل عمل شعري جيد دون أن تجتمع فيه عناصر الفكر وخلجات الاحاسيس ؛ ثم هو في آخر الامر أروع تفسير للحقيقة الانسانية في أعماقها البعيدة التي لا تعرف الحدود .

تلك هي نظرية الشعر عند العقاد ، وذلك هو مفهومه المحدد الذي

التزمه شاعرا وناقدا للشعر ، والذي قرره وأعلنه هو وصاحباه شكري والمازني منذ أكثر من نصف قرن ، وهذا هو ما يفسر لنا موقف العقاد من الشعراء الذين عدهم غير ملتزمين بدقائق هذا المفهوم وعاب عليهم أنهم يتناولون قضايا الحياة والانسان من خارج نفوسهم لا من داخلها ، كما يفسر لنا حفاوته البالغة بشاعر كابن الرومي الذي وضعه في مرتبة فريدة بين الشعراء العالميين ليقظة احساسه ونضج ملكته واكتمال الطبيعة الفنية عنده . يقول العقاد فيما قاله عن ابن الرومي : « لست أعرف فيمن قرأت لهم من مشارقة ومغاربة ، أو يونان أقدمين أو أوربيين محدثين ، شاعرا واحدا له الملكة المطبوعة في التصوير مثل ما كان لابن الرومي في كل شعر قاله مشبها أو حاكيا على قصد منه أو على غير قصد ؛ لأنه مصور بالفطرة المهيأة لهذه الصناعة ، فلا ينتظر ولا يلتفت الا تنبهت فيه الملكة الحاضرة أبدا » .

ثم يلتفت العقاد بقوة واعجاب الى موقف ابن الرومي من الطبيعة ، وكيف أنه كان يمتزج بها امتزاجا مطلقا على نحو ما كان يفعل الرومانسيون الاوربيون . فيقول :ـ « فليست الطبيعة في نظر ابن الرومي صورة ولا حلية ، وليست هي مروحة للهواء ولا مجلسا للمنادمة ، ولكنها قلب نابض في كل جزء من أجزائه ، وحياة شاملة في كل معرض من معارضها ، وهي نفس تخف اليها وتأنس بها ، وهي ذات تساجلها العطف وتجاذبها المودة » .

والعقاد كان يؤمن بأن الفكر والفلسفة دعامتان أساسيتان لكل ابداع فني ناجح ؛ فالشعر الذي لا يقوم على شيء من الفكر شعر باطل لا يمكن أن يترك أي أثر في السلوك الاجتماعي ، أو ينتقل بفحواه الى محيط الآفاق الانسانية ، فالشعر ــ كما قال ــ قيمة انسانية وليس قيمة لسانية ، فاذا جادت القصيدة من الشعر فهي جيدة في كل لغة ، واذا ترجمت القصيدة الجيدة لم تفقد مزية من مزاياها الشعرية الا على فرض واحد وهو أن المترجم لا يساوى الناظم في نفسه وموسيقاه ، ويبرز العقاد هذه الفكرة في قوله : « والحقيقة التي ينبغي أن نحضرها في أخلادنا هي أن الأدب الرفيع لم يخل قط من عنصر التفكير ، وأن الشاهد على ذلك أدب الفحول بين شعراء الأمم العالميين ومنهم أمثال شكسبير وجيتي والخيام وأبو الطيب ؛ فأغاني شكسبير مثلا سلسلة من الأفكار التي يمتزج فيها الفهم بالشعور ، وقصة فاوست الكبرى وهي أعظم أعمال جيتي هي فلسفة الحياة والبقاء ، وفلسفة الخير والشر ، وفلسفة المعرفة والضمير ، ورباعيات الخيام يصح أن تسمى فكر الخيام ، ولا يمنعها الشعور أن تكون شعور انسان من المفكرين ، وليس بين قصائد أبي الطيب قصيدة واحدة يقول القائل انه أهمل الفكر فيها وأنها وجدان بغير تفكير » .

والشاعر الذي يؤمن به العقاد هو الشاعر الذي يتخذ حياته موضوعا

لشعره ، بحيث يعبر عن ذاته وخصائص شخصيته تعبيرا يميزه ويصفه ويدل على حقيقته ؛ فالشاعر الذي لا يعبر عن نفسه صانع وليس بذي سليقة انسانية ؛ فاذا قرأت ديوان شاعر ولم تعرفه منه ، ولم تتمثل لك شخصية صادقة لصاحبه ؛ فهو الى التحبير أقرب منه الى التعبير ، ومن هنا فان للعقاد موقفا واضحا من الالتزام بموضوعات شعرية محددة ، لأن الشعر ما دام تعبيرا عن الذات من حيث صلتها بموضوعات الحياة ومعانيها ، فكل شيء في هذه الحياة يصلح أن يكون موضوعا للشعر مهما كان معروفا أو منكورا ، فالحياة كلها موضوع للشعر ، والشعر هو الذي يضفي عليها معانيها الحقيقية فلولاه لما تنفس فيها وجه من وجوه الجمال ، ولما أشرقت عليها صورة من صور الحسن ولظلت على جمالها وفتنتها خرساء جامدة • يقول العقاد :

والشعر ألسنة تفضي الحياة بها	الى الحيـاة بمـا يطويه كتمـان
لولا القريض لـكانت وهي فاتنـة	خرسـاء ليس لها بالقول تبيـان
ما دام في الـكون ركن للحياة يرى	ففي صـحائفه للشـعر ديوان

ويقول العقاد في هذا المعنى نفسه : « ان احساسنا بشيء من الأشياء هو الذي يخلق فيه اللذة ، ويبث فيه الروح ، ويجعله معنى شعريا تهتز له النفس ، أو معنى زريا تصدف عنه الأنظار وتعرض عنه الأسماع ، وكل شيء فيه شعر اذا كانت فينا حياة أو كان فينا نحوه شعور •• انني أطلب من الشعر أن يكون عنوانا للنفس الصحيحة ثم لا يعنيك بعدها موضوعه ولا منفعته ، ولا تتهمه بالتهاون اذا لم يحدثك عن الاجتماعيات والحماسيات والحوادث التي تلهج بها الألسنة والصيحات التي تهتف بها الجماهير » •

والقصيدة عند العقاد كل موحد مترابط الأجزاء متلاحم العناصر تتسلسل فيه الفكرة ويطرد الموضوع ويتآزر البناء ؛ فالقصيدة بنية حية وليست قطعا متناثرة يجمعها اطار واحد ؛ فليس من الشعر الرفيع شعر تغير أوضاع البيت فيه ثم لا تحس تغييرا في قصد الشاعر ومعناه •

أما بالنسبة لقوافي الشعر فقد كان للعقاد فيها موقفان متعارضان تماما ، أما أحدهما فقد دعا اليه في بداية حياته الأدبية ، ولقى اذ ذاك من الاستنكار والمقاومة ما لقي ، ويتلخص هذا الرأي في الدعوة الى ترك القوافي أو التخفف منها لأنها قيد ثقيل يحد من الحرية والانطلاق ، ويحول دون تناول ألوان معينة من الشعر كالشعر القصصي والتمثيلي • ولعل هـذا الرأي يعتمـد ــ آنذاك ــ على نوع من التأثر بالنماذج العليـا في الأدب الاوربي ، فالعقـاد قد رأى أن روائع شـكسبير المسرحية كعطيل ومكبث وهاملت وتاجر البندقية والملك لير وغيرها لم تستطع أن تتخذ صبغة عالمية وانسانية ، وأن تنال هذا القدر الهائل من الذيوع والشهرة الا لأن شكسبير قد أطلق شعره من أغلال القافية • ولـكن العقاد لم يتشبث كثيرا بهـذا

الرأي ، وما لبث أن رجع عنه بقوة الى الرأي المقابل الذي أعلنه وتبناه ودافع في سبيله بكل ما اوتي من قوة ، وهو ان الشعر العربي ينبغي أن يظل شعرا عربيا في كل تقاليده الموسيقية من وزن كامل وقافية مطردة • والعقاد فيما بين ايمانه بفكرة ثم رجوعه عنها يمر بمرحلة دقيقة من الدرس والمراجعة والتمحيص والتثبت ؛ فهو لم يعلن رأيه الأول الا عن ايمان ، ولم يرجع عنه كذلك الا عن ايمان ، فالعقاد بوصفه ظاهرة عقلية كان لابد أن يخضع لحتمية التطور الذي يستند في كل مرحلة من مراحله الى أساس قوي من خلاصة تجاربها العلمية والثقافية بوجه عام ؛ ولقد دافع العقاد عن موقفه الأخير من قوافي الشعر وكيف أنها ضرورة فنية لا غنى عنها في مجموعة ضخمة من الأبحاث التي نشرت في مختلف الصحف والمجلات الأدبية • بعد هذا كله بقي أن نسأل سؤالا • هل كان العقاد شاعرا بهذا المفهوم الذي صوره ؟؟ هل التزم في شعره دقائق هذا المنهج الذي وضعه وبين حدوده ؟؟؟

اننا نجد الجواب واضحا في كل ديوان من تلك الدواوين الضخمة التي نظمها العقاد والتي ما زالت غريبة على كثير من الناس في أسمائها ومضموناتها لأنها تجربة فنية وثقافية من طراز خاص تحتاج في فهمها وتذوقها الى كثير من المراس والفهم والتأمل ؛ فهي ليست من قبيل ذلك الشعر الذي تأخذه بحلاوة موسيقاه ، وتطرب فقط لما فيه من زينة التنسيق وجمال الصنعة ، ولكنها شعر يستغرق معه كل طاقات الفهم والتصور والشعور •

لقد نظم العقاد مجموعة ضخمة من الدواوين هي على ترتيب نظمها كما يلي : ديوان العقاد • يقظة الصباح • وهج الظهيرة • أشباح الأصيل • أشجان الليل • وحي الأربعين • هدية الكروان • عابر سبيل • أعاصير مغرب • بعد الاعاصير • ما بعد البعد • وله ديوان يقتبس من كل هذه الدواوين نشره بعنوان : ديوان من دواوين •

ومعظم شعر العقاد في معظم هذه الدواوين يجري على نمط واحد من حيث النسق الفني المحدد بذلك المفهوم الذي شرحناه منذ قليل ، وان كان ديوانه وحي الأربعين يمثل مرحلة جديدة في تجربته النفسية ، فهو قد نظم هذا الديوان حينما أتم الاربعين من عمره ويتناول فيه قضية الحياة تناولا يوحي بنوع الخبرة التي قدمتها له الحياة بعد أن اجتاز هذه المرحلة من العمر ، وبعد أن تمرس بألوان مختلفة من الخير والشر ، وبعد أن اكتملت لديه تجربة الاتصال بنماذج الأدب الأوربي الذي يمكن اطلاق القول بأن العقاد قدتأثر به تأثرا محسوسا ولاسيما عندالشعراء الرومانسيين الذي قد سجل العقاد نفسه تأثره بهم واعجابه الشديد بادبهم من أمثال : وليم وردزورث وبيرون وشيلي وهازلت وتوماس هاردى وغيرهم • ومن الملاحظ أن هؤلاء الشعراء الرومانسيين انما يتضح تأثيرهم في شعر العقاد

في دواوينه التي صدرت بعد وحي الأربعين ، ولنأخذ على سبيل المثال ديوانه أعاصير مغرب فهو صورة حية لتلك النزعة الرومانسية الحزينة الى جانب أنه صورة حية أيضا لمدى انفعال العقاد وتعاطفه وجدانيا مع الشيخ توماس هاردي كما كان يسميه ، فهو يقول في مقدمة هذا الديوان : « ــ أعاصير مغرب اسم صالح لجملة الشعر الذي احتواه هذا الديوان بأعاصيره ، ومنه ما يشبه الاعاصير التي هزت كيان الشيخ هاردي فتمنى من أجلها ذبولا في القلب كذبول اهابه » ·

لقد كان العقاد يرى صورة حياته في حياة توماس هاردي ؛ لذلك فقد كان يحبه ويؤثره ويرجع اليه رجوع الصديق · وحينما أخرج ديوانه أعاصير مغرب هذا لم يجد ما يقدمه به خيرا من أبيات لتوماس هاردي يقول فيها :

« أنظر الى المرآة فأرى هذه البشرة الذابلة تنقبض ؛ فأتوجه الى الله مبتهلا اليه ·· أسألك يا رب : ألا جعلت لي قلبا يذبل مثل هذا الذبول ؟؟ انني اذن لأحس برد القلوب من حولي فلا ألم ولا أحزن ؛ واني اذن لأظل في ارتقاب راحتي السرمدية بجأش ساكن وسمت وقور ؛ غير أن الزمن الذي يأبى لي الا الأسى : فقد شاء أن يختلس فلا يختلس كل شيء ؛ ويترك فلا يترك كل شيء ؛ ولا يزال يرجف هذه البنية الهزيلة في مسائها بأقوى ما في الظهيرة من خلجة واضطراب » ·

ولم يجد العقاد بدا كذلك في مقدمة الديوان نفسه من أن يتمثل بأبيات من شعر بيرون تجسد صورة الحزن والأسى في نفسه من خلال احساسه بالطبيعة فيقول :

« ان أيامي المكتوبة على الورقة الذاوية ·· ان زهرات الحب وثماره ذهبت الى غير رجعة ·· انما السوس والديدان وحسرة الأسى هي لي ·· لي وحدها تحيا » ·

ولفرط تعلق العقاد بالشعر الرومانسي نراه يترجم كثيرا من هذا الشعر لبوب وبيرون وتوماس هاردى ووليام كوبر ولامرتين وبيرنز وغيرهم ، وكانت مترجماته عن هؤلاء وعن غيرهم أقرب ما تكون الى صورة نفسه وجوهر احساسه ؛ فهو يترجم « القدر » عن بوب الشاعر الانجليزي وله مقطوعة بهذا العنوان ، ويترجم « الوردة » عن وليام كوبر وله مقطوعات في الورد والزهر والفل والنرجس ، ويترجم « الوداع » عن بيرنز وله مقطوعة بل مقطوعات في الوداع ·

نعود بعد هذا فنقرر أننا لو تمرسنا بشعر العقاد تمرسا دقيقا لوجدناه يطبق في دقة منهجه في تصور الفن الشعري من حيث انه تعبير عن الذات ، ومن حيث انه تفسير للحقيقة الانسانية في مختلف مشاعرها وشتى حالاتها ، ومن حيث تطبيق نظرية الحلول التي دعا اليها الشعراء الرومانسيون والتي تعني الامتزاج الذي يتم بين عالم النفس وعالم الحس

عن طريق الرؤيا الشعرية في لحظة الابداع ، ومن حيث انه لقاء مطرد بين الفلسفة والجمال وبين الفكر والشعور ·

والحق أن شعر العقاد كان تعبيرا عن ذاته وتفسيرا لحقيقته وجوهره الانساني ؛ فالذين يتمرسون بحياة العقاد الشخصية ، ويلمسون عن قرب أخلاقه ومثله وطبيعة تكوينه النفسي يستطيعون ادراك هذه الحقيقة بوضوح ؛ فالعقاد أبي عصامي جريء في الحق يحب الناس ولكنه لا يتملقهم كلهم عنده يستوون من ملائكة وجان ما دام قد أمن شرهم وأغنى يده عن خيرهم ، وهذا الخلق يتضح لنا من قوله :

أنا لم أيأس من الخير ولا ... أحسب الشر على الناس لزاما
أنا أغنيت يدي عن خيرهم ... وأمنت الشر من حيث ترامى
فليكن من شاء منهم ملكا ... أو يكن جنا على الكيد أقاما
كلهم بعد سواء عند من ... لا يدين الناس شرا وانتقاما

والعقاد كان كريما على نفسه ويحب أن يكون كريما على الناس ، لذلك فهو لا يرضى الهوان ولا يستسيغ الذل ولا ينافق في الحق رضى الناس أم كرهوا أقبلوا أم أدبروا ، وتراه يصور هذا الخلق في قوله :

لا أبالي اليوم أن أغضبتكم ... في سبيل الحق فارضوا وانقموا
أكرم الناس فلا أكتمهم ... أنتم أهون من أن تكرموا
ما على دنياكمو أن تغفلوا ... أبد الدهر ·· وألا تفهموا

والعقاد في شعره فيلسوف يتناول أدق القضايا الذهنية والفلسفية ، ولكنه يعرضها في اطار فني جميل ، وهو بهذا يطبق مفهومه للشعر من حيث ضرورة تضمنه لعناصر الفكر وقضايا الفلسفة ، وهذه ظاهرة نجدها واضحة في معظم شعر العقاد ان لم يكن في شعره كله ·· يقول في احدى مقطوعاته مفلسفا أمر الحياة والخلود :

ولدت وأحببت الحياة ولم أكن ... معلم نفس حبها واتقاءها
حييت وأحببت الخلود ولم أكن ... معلم نفس خلدها وبقاءها
وجدت بأمر غير أمري وهكذا ... سأوجد ان غاليت يوما فناءها
مآبك في الأقدار طرا الى الذي ... قضاها وأجرى في الوجود قضاءها
وان ضلت الأقدار يوما كما ادعوا ... فأهون بنفسي أن تضل رجاءها

ويقول في نفس هذا المعنى :

فيم عشنا وغاية العيش موت ... فيم متنا وغاية الموت بقيا
أعجب الحالتين عندي حي ... سوف يفنى لا ميت سوف يحيا

والعقاد مؤمن في أعماقه كل الايمان ، مؤمن بالموت وما بعد الموت من حياة باقية خالدة لا يشوبها فناء ؛ انه يؤمن بأن الشيء لا يمكن أن

يستحيل الى لا شيء ، وأن الحياة لا يمكن أن تنتهي الى فناء مطلق وعدم سرمدي ولذلك يقول :

أنا شيء فكيف أصبح لا شيء — اذا تم للحياة مداها
أغلب الظن أنني سوف أرقى — غاية بعدها تفوق ذراها

والحياة في تصور العقاد ليست الا أضحوكة كبيرة ؛ انها تخدع الانسان عن نفسه وتغريه دائما بالمنى والآمال ؛ فاذا هو جد في طلبها وحصلها أفقدته لذة الاحساس بها والانتصار على صعوباتها يقول :

حياتك ما زالت تناديك أنها — تسومك جهدا عابثا وكيادا
تجاهد في أمر اذا ما بلغته — تبينته لا يستحق جهادا
وتضنى عليه لهفة قبل دركه — فان تستفده لم تجده أفادا
أتلك معاريج ارتقاء ورفعة — لعمر النهى أم لعبة تتمادى

والى جانب هذه التجارب المختلفة ، وهذا الاتساع الرحب في آفاق الضمير الانساني نجد عند العقاد تجربة شعرية أخرى تتمثل في ديوانه عابر سبيل الذي نشره عام ١٩٣٦ وهو يطبق في هذه التجربة نظريته التي ألمحنا اليها في بداية هذا الحديث من حيث ان الشعر تعبير جميل مطلق عن كل معاني الحياة وصورها وأحداثها ؛ فهو لا يتخصص في مضمون بعينه ، ولا يصح ارغامه على الارتباط بقضايا خاصة لان الفن شخصية حرة لا ترضى بجبرية القوانين مهما كانت ؛ فكل ما في الحياة يصلح أن يكون موضوعا للشعر بحيث يمكن أن يثير فينا نحوه شعور ؛ فشعورنا بشيء ما هو الذي يخلق فيه متعة العقل ولذة الاحساس ؛ وينقله من الاطار المادي المحدد الى مجال فسيح من المعاني والصور والدلالات الانسانية ، لذلك فهو يجعل مضمون ديوانه عابر سبيل لقطات من الحياة اليومية وصورا من مظاهرها العابرة التي قد لا تلفت النظر ولا تثير التأمل ولا تحرك نحوها أي انفعال بالنسبة للانسان العادي ، ولكن العقاد يعكس أضواء عقله ونفسه على تلك الأشياء العابرة ، ويتخذ من صورها الحسية مجموعة من المعاني النفسية والدلالات الانسانية الكبيرة ، فهو يتحدث في هذا الديوان عن الطريق والبيت وكواء الثياب والمصرف والقطار والفنادق وشرطي المرور وما الى ذلك من تلك الموضوعات التي قد تبدو بطبيعتها بعيدة عن المجال الشعري،ولكن العقاد يجذبها الى هذا المجال ويتناولها تناولا فلسفيا وانسانيا فيجد فيها المنطلق الى الآفاق النفسية الرحيبة بكل ما تزخر به من معاني الحياة الخالدة • يقول في الفنادق :

حب الفنادق أن تذكرنا — مر الفناء بكل من يحيا
تبدو الوجوه لعين عابرها — وتغيب عنه كأنها رؤيا
في كل توديع وتفرقة — شيء من التوديع للدنيا

فهو يرصد في هذا المظهر الحسي العابر صورة من صور الحياة ومعنى من معانيها ؛ انه الفناء والتحول وعدم الاستقرار في مظهر أو صورة ، كل شيء الى تغير ، هو الوجوه العابرة التي تغدو وتروح ثم تختفي الى الأبد تحكي للانسان صورة من صور الفناء وموقفا من مواقف التوديع للحياة ؛ فالمظهر الحسي عند العقاد يحمل دائما دلالته النفسية والانسانية ، وهذا مثال من أمثلة التطبيق العملي لمفهوم الشعر من حيث انه امتزاج بين عالم النفس وعالم الحس ، ونقل الكائنات المحدودة الى عالم لا ينتهي من المعاني الخالدة .. ان العقاد يدخل ذات مرة الى الميناء ويلاحظ السفينة وهي تلفظ أفواجا من البشر تبتلع أفواجا آخرين ، فيستغرق مع هذا المظهر الحسي في آفاق عالمه الداخلي وتتكون لديه الرؤيا الشعرية العميقة التي تنسج خيوطها صور ذلك الموقف الخارجي ، ثم يفلسف من خلال هذه الرؤيا معاني الحياة التي تتعارض وتتناقض ولكنها في آخر الأمر الصورة الحتمية للحياة في اطرادها عبر الزمن وخلال الآماد . يقول عن السفينة :

فيها التقى بر وبحر واستوى	شرق وغرب ليس يستويان
بسطت ذراعيها تودع راحلا	عنها وتحفل بالنزيل الداني
زمر توافت للفراق فقاصد	وطنا ومغترب عن الأوطان
متجاوري الأجساد مفترقي الهوى	متباييني اللهجات والألوان
فانظر الى تلك الوجوه فانها	شتى ديار جمعت بمكان

فليس المظهر الخارجي المادي للسفينة هو الذي قد عنى العقاد ولكنه يستوحيها جملة من المعاني والافكار يبسطها خلال هذه الأبيات ، ولعل هذا يذكرنا بما قاله عن مفهوم الشعر من أنه الجوهر الذي تلتقي عليه مادة الكائنات وصورتها ؛ فمادتها مبثوثة في مشاهد الحياة وأحداثها ووقائعها ، أما صورها فكامنة في أعماق النفس سابحة في آفاق الشعور .

والموازين ـ كما يبدو من وظيفتها ـ أداة لاقامة العدالة وتحقيق الانصاف ، ولكن العقاد يتناولها من زاوية أخرى يعكس خلالها صورة من صور احساسه بالحياة فيرى الموازين أداة من أدوات الظلم ؛ لأنها تسوى في منطقها بين الماس والحجر ؛ لذلك فهو يريد اذا ما الظلم حاق به يوما ألا ينتصف له انتصاف الموازين التي لا تفرق بين الحر والدون ، ولكنه يريد انتصاف الضمير والوعي الذي بوسعه أن يفرق بين جواهر الكائنات يقول :

انا نريد اذا ما الظلم حاق بنا	عدل الأناسي لا عدل الموازين
عدل الموازين ظلم حين تنصبها	على المساواة بين الحر والدون
ما فرقت كفة الميزان أو عدلت	بين الحلي وأحجار الطواحين

وللعقاد احساس بالحياة عميق لا تنتهي أبعاده ، انه يحسها مع كل

شيء ويحياها مع كل شيء ، يحياها مع أنق الصبح وعتمة الليل ، مع نعيم الوصال وعذاب الهجران ، مع صداح الكروان ونعيق البوم ، مع أفاويق السعادة وعذابات الشقاء ، مع اللذة والألم والرضا والسخط والغنى والفقر ، ولذلك فانك لا تكاد تفتقد صورة من صور الحياة أو معنى من معانيها الا وجدت ذلك في شعره مصورا في أبعد أبعاده ؟ انه مثلا يتحدث عن الجمال ، ولكن الجمال في عينه ليس صورة باردة هامدة ! بل هو حياة تنبض ولسان يتكلم ، انه روح يبعث الحياة في الجسد الموات ،

يقول في مقطوعة له بعنوان لسان الجمال :

يا من الى البعد يدعوني ويهجرني ... أسكت لسانا الى لقياك يدعوني
أسكت لسان جمال فيك أسمعه ... في كل يوم بأن ألقاك يغريني
أبالجمال تناديني وتجذبني ... وبالمقال تجافيني ... ونعصيني
هيهات نسيت بسال عنك ما نطقت ... فيك المحاسن فانظر كيف تسليني
أعصيك أعصيك لا آلوك معصية ... ولست أعصى جمالا فيك يحييني

وكما أحس العقاد الحياة أحس الموت : بل ان احساسه بالموت ليس الا صورة من صور احساسه بالحياة ، ان الموت في وجدان العقاد ليس عدما ولا فناء ولكنه ميلاد جديد ، وامتداد أوسع وأعمق لمعنى الحياة .. يقول في فلسفته لمعنى الموت :

اذا شيعوني يوم تقضى منيتي ... وقالوا أراح الله ذاك المعذبا
فلا تحملوني صامتين الى الثرى ... فاني أخاف اللحد أن يتهيبا
وغنوا فان الموت كأس شهية ... فلا تحزنوا فيه الوليد المغيبا
ولا تذكروني بالبكاء .. وانما ... أعيدوا على سمعي القصيد فأطربا

ثم يمضي العقاد من حياة الى حياة ، ويلتقي بعد خمسة وسبعين عاما بميلاده الجديد .. بالموت .. وتحمله الى الملأ الأعلى أجنحة من نور غامر ، وتنداح في أعماقنا رنات من الحزن والأسى ، وتشرق في وجداننا الصورة الرائعة لذلك العملاق الذي عاش في حماية من ارادته الحرة ونفسه الصلبة وعزمه الحديد .. لقد مات العقاد ولكنه ترك للدنيا الحروف الضخمة لمعناه الكبير .. لكأني بالعقاد لم يكن يعنى الا نفسه حينما قال :ـ

أين يفنى الفاني أيذهب من ... خلف نطاق الوجود ما ثم خلف
هو معنى اذا تبدل حرف ... منه أداه بعد ذلك حرف

*

اقبال.. الشاعر الفيلسوف الخالد

حميد مجيد هدو

شاعران خالدان التمع نجمهما ، وذاع صيتهما وطبقت شهرتهما الآفاق ، وانطلق اسمهما مدوياً في سماء شبه القارة الهندية وتعدى ذلك الى آفاق أبعد لا تحد فقد علت شهرتهما وتحدث الناس بهما وبأفكارهما السامية واشعارهما الانسانية الخالدة التي ألهبت الحماس في نفوس أبناء الهند وتغنت بها البشرية في كل مكان واججت فيهم روح الوطنية والتحرر والاستقلال ، وغرست روح المحبة والاخاء في نفوسهم . وهذان الشاعران العظيمان هما محمد اقبال شاعر الاسلام وفيلسوف الباكستان الخالد ، ورابندرانات طاغور شاعر الهند ورسول المحبة والصداقة والسلام .

ومقالنا هذا يقتصر على اقبال بمناسبة حلول الذكرى السابعة والعشرين لوفاته رحمه الله .

يعتبر شاعر الاسلام الدكتور محمد اقبال أحد اولئك المفكرين الشرقيين القلائل ممن خدموا الاسلام وجاهدوا من أجل أهدافه النبيلة وغاياته السامية وضحوا في سبيل أبنائه أعز ما يملكون ومن هنا فلا غرابة اذا ما اقترن اسمه بأسماء مصلحين شرقيين عاصروه أو عاشوا قبله أمثال جمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، وعبدالرحمن الكواكبي حتى عده بعض مؤرخي الادب انه رابع أربعة ممن ذكرناهم لانه مثل نفس الدور الاصلاحي الذي مثله على مسرح الحياة اولئك الرجال الذين احتلوا مركز القيادة من أجل التحرر الفكري والسياسي لشعوبهم المستضعفة وتخليصهم من براثن الظلم والاستعباد الذي كان جاثماً على صدور المسلمين في تلك الفترة من تاريخ حياتهم العصيبة ــ وأعني بها مفتتح القرن العشرين ــ(١) .

لم يلتزم الشاعر الفيلسوف اقبال جانباً معيناً أو محدوداً من جوانب الحياة المختلفة بل نحا مناحي عدة في الحياة وخاض غمارها من شعر الى سياسة الى اقتصاد الى فلسفة وتصوف شأنه في ذلك شأن الفلاسفة والمفكرين الذين عرفتهم الانسانية عبر تاريخها الطويل ، وخلدهم التاريخ

---

(١) رواد الوعي الانساني ــ للدكتور عثمان امين .

وذكرهم بما يستحقونه من اسمى آيات التجلة والاعظام ، وسطر آثارهم العظيمة وافكارهم السامية في صفحاته الاولى الناصعة .

كافح شاعرنا كفاحاً مريراً وناضل نضالا مشرفاً من أجل استقلال بلده وتحرره من ربقة الطغاة وجور الاستعمار الذي جر على البلد الويلات وأذاق أهلها الهوان والعذاب فاشترك اقبال في قيادة امته وشعبه الى ما تصبو اليه في الحياة الحرة الكريمة موقداً في نفوسهم روح الثورة والتمرد على القيم الاستعمارية والقوانين اللا انسانية الدخيلة ويتجلى لنا ذلك بوضوح من خلال قصائده الوطنية والقومية التي تعتبر بحق انشودة الحرية لكل شعب مظلوم . وكذلك الخطب الحماسية التي كان يلقيها في المناسبات المختلفة كمؤتمرات حزب الرابطة الاسلامية الذي عمل فيه عضواً وقائداً وموجهاً وفي المحافل الدولية خارج وطنه . أو في مقالاته السياسية والقومية والدينية التي كان ينشرها على واجهات الصحف والمجلات والتي اعتبرت مدرسة سياسية عقائدية للشعب الهندي وللمثقفين الثوريين في كل مكان .

ابتعد اقبال بشعره عن الخيال الكاذب ، والتصوير الواهي فلا غرو اذا ما جاء شعره صورة صادقة ومرآة عاكسة لكثير من حقائق الحياة سالكاً بذلك المسلك الواقعي المعبر عن عواطف مشبوبة وشعور نبيل وحرارة زاخرة باللهب حتى انه اعتبر بحق اللسان الصادق المعبر عن آلام شعبه وامته وآمالهم في الحياة الحرة السعيدة . ومن هنا جاء ايمان الشاعر الخالد بالالتزام في الشعر والادب وحمل حملة شعواء على اولئك الادباء الذين لا يؤمنون بفكرة الالتزام هذه الفكرة الانسانية التي يلزم على كل مفكر وشاعر ان يضعها نصب عينيه وان لا يحيد عنها قيد أنملة خاصة في ظروف مثل ظروفنا التي تحمل الاديب مسؤولية كبيرة لانه الموجه الروحي للشعب ولان الاديب له القدرة على الاتصال بنفوس الجماهير الشعبية واقدر من أي مسؤول آخر على تحريك مشاعر الناس وهو يحس بمقدار خدمته واحساسه بالمسؤولية أمام المواطنين .

وقد حذر اقبال اولئك الادباء ممن كفروا بفكرة الادب الهادف وآمنوا بفكرة الفن للفن مدعين ان الالتزام هرطقة فكرية وضباب ميتافيزيقي وخيال مريض وسلاح بورجوازي ضد الحقيقة البروليتارية ودعوة فجة نحو النشاط العقلي والتفتح الفكري . وهذه الدعوة اليوم نسمعها من بعض الادباء في البلدان الشيوعية ومن سار في ركبها .

نعم ان الاستعمار في كل عصر ومصر يسخر مثل هؤلاء الدعاة للحد من نشاط المفكرين والادباء الاحرار الذين لا ينفكون عن محاربته وضرب مصالحه وآماله في البلاد .

وبلاد الهند ابتليت بمثل اولئك العملاء، كما ابتلى الشعب العربي ببعض شعرائه وكتابه ممن وضعوا امكانياتهم وطاقاتهم تحت تصرف الاستعمار بشتى صوره وأشكاله فبدلا من ان يسخروا أقلامهم وأفكارهم لخدمة أمتهم

وقوميتهم راحوا يطبلون ويزمرون لاجنبي كافر طامع في سبيل مصالحهم الدنيئة ضاربين كل القيم والاعتبارات عرض الحائط .

استمد اقبال خطوطه الفلسفية الرئيسية من الاسلام ، وبنى نظرياته وتأملاته الصوفية على أساس الاسلام لانه آمن به كنظام الهي جامع شامل لكل متطلبات الحياة وحاجاتها الضرورية لهذا لم يكن يعرف أي معنى للاقليمية أو العنصرية الضيقة بل توسع في تفكيره الى رحاب الانسانية البعيد تمشياً مع المنطلق الاسلامي الذي آمن به من البداية وعمل من أجله .

كما اهتم اقبال الى جانب الاسلام بدراسة الفلسفات الغربية الحديثة والفلسفات الهندية القديمة والفارسية والاغريقية وناقش آراء افلاطون في قضايا الوجود كما تعرض لفلاسفة الغرب المحدثين ونظر الى آرائهم وناقشها كما تتبع التيارات الغربية المعاصرة ودرسها دراسة باحث مدقق حتى شعر بالتقدم الذي حصل في مضمار المفاهيم الفلسفية على ما كانت عليه في عصورها الاولى في تفسيرها للكون والانسان والفكر .

هكذا كان اقبال في مسعاه الاسلامي النبيل من أجل بناء اسس المجتمع الاسلامي الحديث على دعائم الشريعة المحمدية المستضيئة بالفكر المعاصر آخذين من حضارة الغرب وفلسفته ما يتناسب وحاجتنا وما لا يتنافى مع معتقداتنا وتفكيرنا وتراثنا ومقوماتنا . ويتجلى لنا ذلك الشعور في نشيده الاسلامي الخالد الذي انشدته صناجته والذي أصبح انشودة يتغنى بها كل مسلم فيقول :

الصين لنا والعرب لنا والهند لنا والكل لنا
أضحى الاسلام لنا دينا وجميع الكون لنا وطنا
توحيد الله لنا نور أعددنا الروح له سكنا
الكون يزول ولا تمحى في الدهر صحائف سؤددنا
يا ظل حدائق أندلس أنسيت مغاني عشرتنا
يا دجلة هل سجلت على شطيك مآثر عزتنا
أمواجك تروي للدنيا وتعيد جواهر سيرتنا
ومحمد كان امير الركب يقود الفوز لنصرتنا
دوت انشودة (اقبال) جرساً يحدو فيه الزمنا
ليعيد قوافلنا الاولى في المجد ويبعث امتنا(٢)

وهكذا كان اقبال الشاعر المسلم المتجدد والاب الروحي لشعب مسلم غيور عزيز علينا وحق لنا ان نخلد هذا العبقري الذي يفتخر به جميع ابناء العروبة والاسلام .

---

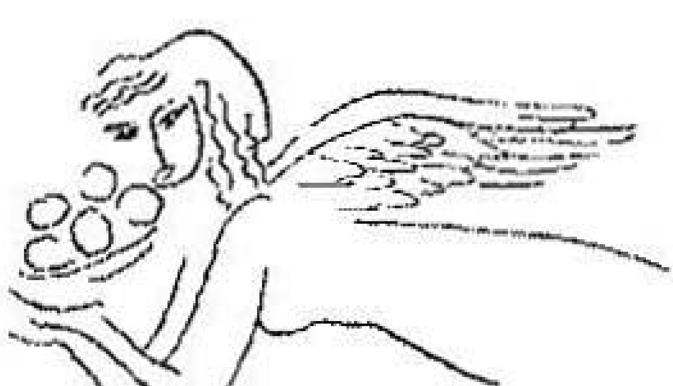
(٢) اقبال الشاعر والفيلسوف والانسان صفحة ٦٧ لكاتب المقال .

قلب الشاعر

محمد جميل شلش

سابح في دم الشفق   مسه الليل فاحترق
زاده ثغر نجمة   وجناحاه من قلق
كلما مال كوكب   أسرج البدر وانطلق
يزرع النجم في المدى   في دم الليل ، في الشفق
ألاغاني اذا شدا   فوق ثغر الدجى ألق
والأماني على المدى   كوكب يشرب الأرق
ما أحيلاه مبدعاً   رائعاً ... كلما نطق
ما أحيلاه شادياً   قلبه في الهوى مزق
شيعوا أمس نعشه   فوق كفين من ورق
حين سموه خالقاً   وهو يفني بما خلق

هائم يذرع الدنا   سابح يمقت الغسق
جنَّح الشوق واعتلى   يحرق الليل .. فاحترق



نظرية ابن خلدون في المجتمع

سفيتلانا باتسييفا

كانت نظرية ابن خلدون الاجتماعية التاريخية الماثلة في مقدمته المعروفة مدار بحث ورد طيلة قرن ونصف ولا تزال حتى الوقت الحاضر موضوع نقاش • ولكن كل ما كتب عنها ، وهو ليس بالقليل ، لم يوضح لاحد سر توصل ابن خلدون الى أفكاره متأثرا بظروف حياته الخاصة وصلته بعصره والظروف الاقتصادية والاجتماعية المحيطة به وما هي الا وليدة تفاعل كل هذه الظروف في نفسه وفكره •

خصص ابن خلدون عمله لدراسة وبحث قوانين الحياة الاجتماعية وسمي بحثه علما جديدا لانه يدرس التاريخ من الداخل مبينا أن للتاريخ جانبا داخليا وآخر خارجيا وان تحليل وتعمق أسرار اتجاه التاريخ وحوادثه هو الجانب الداخلي للتاريخ وهو علمه الجديد وان معرفة الحوادث التاريخية وتتبع التطورات الفعلية لها هو الجانب الخارجي • وان موضوع هذا العلم الجديد — التاريخ الداخلي — هو العمران أي حياة الناس الاجتماعية •

في عداد القوى المثبتة لحتمية اتحاد الناس في مجتمع تابع لابن خلدون كلمة ارسطو : الانسان اجتماعي (مدني) بطبيعته غير أنه في تفسيرها نفى بقوة ما ذهب اليه قدامى علماء السياسة والاجتماع ومن جاء بعدهم في العصور الوسطى •

اذا كان الانسان يولد اجتماعيا — كما يقول ارسطو — فان ذلك ليس لطبيعة روحانية ونفسية ولا لغرض السعادة واللذة بسبب حاجاته الطبيعية الى القوت والمعاش ثم أن الانسان انما يستطيع كسب المعاش بالعمل لا معدى له أن يبذل ويستخدم قواه واستعداداته الخاصة في ذلك العمل كما دلل ابن خلدون • والاعمال التعاونية تتمثل في توزيع العمل بين الناس• وهذا ينبع من حاجات الناس الى تنوع آلات العمل ووسائله وأساليبه اذن فطبيعة المجتمع هي العمل المشترك لاعضائه لتأمين وسائل الحياة على أساس توزيع العمل بين الناس • واتحاد الناس في مجتمع يولد أسسا جديدة أساسها ضرورة الادارة والتوجيه (الحكم) ويتطلب المجتمع من قيادته المنظمة أن تسيطر على تضارب المصالح الشخصية وتحد من اندفاعات أعضاء

المجتمع في سبيل غاياتهم الفردية وتنظيم ادارة المجتمع تظهر السلطة (الحكم) ٠

يرى ابن خلدون ان الحكم (السلطة) ظاهرة طبيعية في المجتمع وان وصف ابن خلدون شروط وعوامل حياة المجتمع أعطى للعوامل الجغرافية دورها في التأثير ولكن ليس صحيحا أنه قدم هذا العامل على جميع العوامل الاخرى وأعلاه في التأثير عليها كما ذهب البعض بل أنه نسب المؤثرات الاجتماعية الى عواملها الطبيعية والنفسية وغيرها وبين أن الحالات القصوى للظروف الجغرافية قد يكون لها تأثير أبرز في حياة المجتمعات أما الظروف المعتدلة فتلعب دورا أقل من ذلك بكثير ولا تعرقل تطور المجتمع وفق قوانينه الداخلية وظروفه الاخرى ولا تتدخل مباشرة في فرض طابعها الخاص على حياة الناس ٠ اذن فقد جعل ابن خلدون العوامل الجغرافية المؤثرة في حياة المجتمع احدى تلك العوامل المهمة لا أكثر من ذلك ٠ العلم كما يرى ابن خلدون يجب أن يقتصر على بحث القوانين الطبيعية الداخلية في المجتمع البشري نفسه ٠

تجمع الناس في المدن وتوزيع العمل هو السبيل الفعال للتطور الاجتماعي وهو وحده الذي يتيح انتاج المنتجات الاضافية وهي أهم الشروط للتقدم ٠

« فأهل مدينة أو مصر اذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضروراتهم وحاجاتهم اكتفي فيها بالاقل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف في حالات الترف وعوائده وما يحتاج اليه غيرهم من أهل الامصار ويستجلبونه منهم بأعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظاً من الغنى » ٠

وهذا نفسه يصدق ويصح على البلدان والمستوى العالي للحياة الاجتماعية وكثرة السكان وتجمع العمال في المدن يتيح انتاج مقادير كبيرة من المنتجات الاضافية التي ترفع مستوى التمدن الحضاري وتوزيع العمل يعني تبادل الاعمال بين الافراد في المجتمع ٠ وابن خلدون في مجتمعه البسيط الذي عاش فيه لاحظ هذا التبادل في صورة تقايض (تبادل) في البضائع وأساس هذا التبادل هو التساوي في قيم هذه البضائع ٠ ومنذ عصور سحيقة حاول الانسان أن يدرك سر التساوي في قيم البضائع المتبادلة وخطا أبعد من غيره في هذا ارسطوطاليس مدللا على أن قيمة البضاعة هي في مجال وامكان استخدامها وأن التبادل ليس الاستخدام الطبيعي لها ولكنه لم يدرك أن أساس قيمة البضائع هو العمل البشري ٠ ولم يكن بالامكان في عصره أن يدرك مثل هذه الفكرة وابن خلدون الذي عاش في ظروف تاريخية اخرى استطاع أن يدرك دور العمل كمنشىء للقيمة ٠ « فاعلم أن ما يفيده الانسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه قيمة عمله وهو القصد بالقنية اذ ليس هناك الا العمل وليس بمقصود بنفسه للقنية ٠

وهذا عند ابن خلدون الطبيعة الاقتصادية في مجتمع عصره • والشرط الاساسي لوجود المجتمع يقوم على انتاج البضائع من قبل كثرة من صغار المنتجين هو ملكية هؤلاء المنتجين الفردية لادوات الانتاج والبضائع • ورأى ابن خلدون أن معني وجود السلطة الاجتماعية وكل تصرفاتها تهدف الى حماية الملكية الفردية ولكل طور اجتماعي تنظيمه السياسي الخاص به وفي المجتمعات البدوية البدائية يكون أساس التنظيم السياسي (العصبية) اي صلات الرحم (القربى) بين أفراد هذه المجتمعات • وتتركز في أيدي رؤساء هذه المجتمعات سلطة يحددها الاتباع لهؤلاء الرؤساء والتنظيم الحياتي في المجتمعات الحضارية يظهر في شكل دولة يرأسها ملك أو حاكم يتمتع بسلطة غير محدودة أساسها (القهر) وهذه السلطة في الاصل متأتية من العصبية لان أوائل مؤسسي الدول يتولون السلطة معتمدين على القوة الحربيـة لقبائلهم • وفي المجتمع الحضاري سرعان ما تفقد العصبية أهميتها في تنظيم المجتمع ويستبدل الملوك أتبـاعهم بجنود أجانب ووفق عوامل داخليـة اجتماعية كل دولة تزول بالانحلال وتستبدل باخرى ولكن هذا التـداول لا يعني التطور التاريخي ، والتكرار عنده يعني التقدم دائما •

وقد رد ابن خلدون العوامل الحقيقية المؤثرة في المجتمع الى الشؤون الاقتصادية ، كسب المعاش ، « اعلم أن اختلاف الاجيال في أحوالهم انما هو اختلاف نحلتهم من المعاش فان اجتماعهم انما هو التعاون على تحصيله » • واختلاف الحياة الاجتماعية ناشىء عن الاختلاف في نوع العمل الاقتصادي (كسب المعاش) وقد قسمها الى الحياة البدوية والحياة الحضرية •

فالافراد في الحياة البدوية سواء أكانوا زراعا أو رعاة أو غير ذلك لم يحرصوا على أكثر من تأمين ضرورات الحياة اللازمة لهم في معاشهم دون أن يحاولوا الحصول على أكثر من هذه الضرورات • أما في الحياة الحضرية فعلى العكس ، فالافراد الذين مارسوا التجـارة أو الصناعة أو الاعمال الاخرى لا بفضل تنوع العمل وتجمع العمال في المدن سعوا لا الى تأمين الضرورات فقط بل الى توفير الكماليات ليعيشوا في ترف •

هذان النوعان يتصلان في الاصل • فقد بين ابن خلدون هذا الترابط التاريخي بينهما وقد نظر الى الحياة البدوية والحضرية كطور أسفل وأعلى في تطور المجتمع • الطور الاسفل (البداوة) وهو طور الانتاج البسيط جدا والمستوى الواطىء للحياة • والطور الاعلى (الحضارة) وهو طور تنوع الانتاج والمستوى العالي للحياة • والانتقال من الاوطأ الى الاعلى هو نتيجة تجمع المجموعات الكبيرة من العمال في مكان واحد وانتقال أهل البدو الى المدن وتحويل أشكال الانتاج الاقتصادي الى اسلوب توزيع وتعقيد العمل • وهذان الدوران يظهران فقط شكلا وسياسيا لتداول الدول • أما المجتمعات فتتقدم وتتطور ، وسياسة الدولة ودورها في الحياة الاجتماعية تتحدد بنوع العلاقات بين الدولة والمجتمع ، الدولة هي الصورة التي يجب أن تطـابق

المحتويات المادية أي السلطة يجب أن تساير مستوى تطور الحياة الاجتماعية. وان هدف الدولة هو تزويد الناس بالشروط الجيدة لتطور الحياة الاجتماعية وقبل كل شيء توفير الشروط للانتاج وتبادل المنتجات ، وفي هذا رأى ابن خلدون أساس سياسة الدولة وكل تقصير في هذا الاتجاه يضر بالمجتمع . « اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها لما يرونه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك » .

ووفق هذه النظرية وضع المتطلبات التالية لسياسة الدولة :

١ ـ حماية الفرد والملكية الفردية .
٢ ـ تخفيف الضرائب .
٣ ـ الغاء احتكار الدولة للانتاج والتجارة واعطاء الحرية الكاملة للانتاج والتجارة .
٤ ـ العمل على عدم تجاوز الملكية الارضية الاقطاعية الحد الذي يعطي مالكيها سلطة سياسية كبيرة .
٥ ـ الغاء الرق .
٦ ـ اتباع السياسة السلمية والتزام علاقات حسن الجوار مع الدول المجاورة .

هذه اسس نظرية ابن خلدون الاجتماعية ، لقد سبق عصره واهتدى بعبقريته الى اسس المجتمع ومتطلباته التي تتلخص في الآراء التالية :

١ ـ العمل الانتاجي كأساس لحياة المجتمع ومتطلباته التي تتلخص في الافكار التالية .
٢ ـ العمل كمؤسس للقيمة .
٣ ـ انتاج البضائع الاضافية كأساس لتقدم المجتمع .

ولكنه لم يستطع التوصل الى ادراك القوة الايجابية الفعالة التي تسير تطوير المجتمع في ظروف عصره التاريخية .

وهو ينطلق من مبدأ صحيح قولا أن أساس تجمع الناس في مجتمع هو لسد حاجة ضرورية لهم هي اكتساب المعاش .

وانهم يفعلون ذلك رغبة في توفير الحاجات الكمالية بعد تأمين الضرورات التي لا بد منها لتطوير مجتمعهم وتنفيذ رغباتهم في الحياة الافضل والاترف (ولكنه لا يتابع تحليله حتى التوصل الى ادراك القوة الايجابية الدافعة لهذا التطور ويعد الدافع للتطور هو الرغبة في الحياة الافضل والاترف .

وفي نفس الوقت ان الانسان في المجتمع البدائي حيث لا تتوفر حتى الضرورات الحياتية لا يطمح الى كمالياتها . بل أن توفيره لتلك الضرورات

يشجعه على الانطلاق الى تلك الكماليات وتحسين ظروف الحياة وهكذا وقع في حلقة مفرغة لم يستطع الخروج منها ٠

ولقد كانت نظرية ابن خلدون حصيلة التجارب العلمية العظيمة خلال العصور للفلسفة الاسلامية والتاريخ والفقه وابن خلدون يبدو خير ممثل للمدرسة الفلسفية العلمية (الاندلسية ـ المغربية) وخير خلف لابن رشد فقد رفع مستوى الفكر الفلسفي الى درجة أعلى وله الفضل الاكبر في الفلسفة والتاريخ الاسلاميين اذ وضع أسس الفلسفة التقدمية في عصره لدراسة الحياة الاجتماعية للجنس البشري وفي نفس الوقت تدل (المقدمة) على التجارب الفنية لمؤلفها في السياسة النظرية والعلمية والمعنى التقدمي لنظرية ابن خلدون وانسانية منهاجه السياسي تعطي أهمية خاصة للاجابة عن السؤال عن مركزه الطبقي الاجتماعي في المجتمع المغربي وهذا لا يمكن فعله دون تحليل تاريخ المغرب في القرن الرابع عشر ٠

أهم مظهر للحياة السياسية في تاريخ المغرب للقرن الرابع عشر كان سرعة تطور المدن الساحلية ٠ في هذه المدن نما بسرعة انتاج المنسوجات والصناعات المعدنيــة والجلدية والزيتية والخزفية ٠٠٠ الخ ٠ وقائمة الصادرات تدل بقلتها على أن معظم هذه البضائع والمنتجات قد استوعبتها السوق المحلية الافريقية ونمو الصناعات في المدن يعتبر مظهرا من مظاهر العلاقات التبادلية في المغرب ٠ ونمو حجم التجارة بينهما ، السبب الاهم للتطور السريع في الاقتصاد المغربي وقد كان لارتفاع المستوى الاقتصادي في أقطار البحر المتوسط في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، الذي أتاح مجالا واسعا لامكانية تصريف المنتجات الزراعية والحيوانية ، وللوضع الاقتصـــادي الرأسمالي الذي نشأ في القرن الرابع عشر في بعض المراكز التجارية الصناعية في ايطاليا ، أثر في الحياة الاجتماعية ليس في ايطـــاليا فحسب ، وانما في بقية أقطار البحر المتوسط ٠ وقد توسعت التجارة البحرية للمدن الايطالية الساحلية في القرن الرابع عشر توسعا بالغا بالنسبة للقرن السابق ومع المدن الايطالية احتلت موانيء البحر المتوســـط كالاسكندرية والقسطنطينية ومدن جنوب فرنسا مركزا مهماً في هذه العلاقات التجارية وتعاونت على تكوين سوق واسعة كان لها أثر كبير في ارتفاع انتاج أرباب الحرف (المعامل) واستتبع تأسيس (معامل) رأسمالية أولية في ايطاليا حيث يمكن تسمية هذه السوق ســوقا عالميــة مهدت لولادة العلاقات الرأسمالية المبكرة ٠

وقد احتلت أقطار المغرب وخاصة افريقيا أي تونس بمدنها الساحلية ومرافئها موضعا مهماً في هذه السوق وعمليات التجارة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر تحولت في أواخر القرن الثالث عشر الى تجارة منظمة على أساس اتفاقيات طويلة الامد مع جميع مراكز التجارة الكبرى في ايطـــاليا

وجنوب فرنسا • وتطور هذه التجارة الاوربية البربرية غير اسلوب الحياة في المغرب •

وهذا يرتبط بتأسيس معامل رأسمالية أولية في انتاج المنسوجات الصوفية في ايطاليا وخصوصا في فلورنسا في القرن الرابع عشر • فقد بلغ انتاج المنسوجات الصوفية في فلورنسا مستوى لم يصل اليه من قبل وفاق انتاجها المراكز الصناعية الاخرى لانتاج المنسوجات الصوفية بعشرين أو ثلاثين ضعفاً • ونشأت في ايطاليا حاجة كبيرة الى المواد الخام • واصواف الاغنام الايطالية رديئة النوع وغير مناسبة للمنسوجات مما استلزم استيراد هذه المواد الاولية ، وكانت الاصواف على رأس قائمة المستوردات للمدن الايطالية • وكانت المصادر الرئيسية لاستيراد الاصواف الى ايطاليا : انكلترا وتونس ، حيث كان يستورد من تونس أفضل أنواع الصوف •

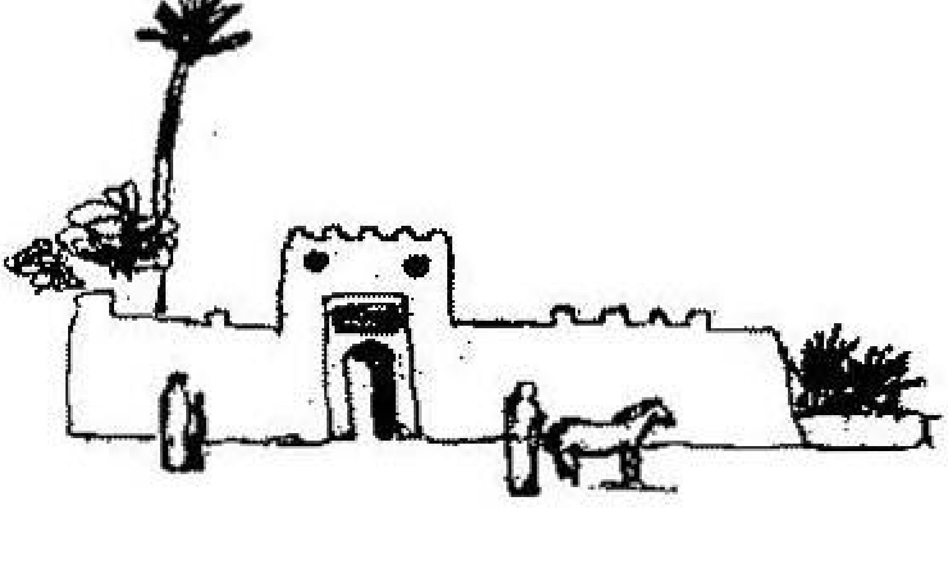
وكان الصوف من أهم صادرات المغرب ، ولكنه لم يكن الوحيد فقد كان يصدر معه زيت الزيتون الافريقي الذي كان يصدر ليس فقط الى اوربا بل الى مصر والجزيرة العربية وايطاليا وفرنسا ، وتصدير القطن والكتان والحديد والسكر والشمع من الصادرات المهمة الى البندقية ، وقد عادت عليهم هذه التجارة الواسعة عبر البحر بارباح وفيرة • وفي الوقت الذي كان المغرب فيه مورداً مهماً للمنتوجات الزراعية والحيوانية لاوربا كان مجالا لتصريف كثير من البضائع الاوربية كذلك ، فمثلا أستوردت تونس من الاقمشة والمواد المعدنية والاسلحة او الكماليات والمواد الخام لصناعاتها كالحديد والنحاس والقصدير والاخشاب والاصباغ وكذلك الحبوب في بعض السنوات • وفي القرن الرابع عشر احتلت المغرب مركزاً مهماً في التجارة عبر المحيط وتوزيع العمل بين الاقطار •

في هذا الوقت طرأت في تونس تغييرات خطيرة في حالة المجموعات الاجتماعية وقبل كل شيء في حالات الفئات المختلفة في الطبقة الحاكمة الاسر (العوائل) • والدور الاول في هذه الطبقة الحاكمة في تونس اشغلته العوائل الارستقراطية المتحررة من أصول « الموحدين » الذين كانوا يضمون قبائل كبيرة محاربة ، وهذه العوائل الارستقراطية تابعت سيطرتها على الحكم حتى ايام الحفصيين (١٢٢٨-١٥٧٤) الذين انحدروا انفسهم من هذه الاسر • وفي نفس الوقت من القرن الثالث عشر بدأ مظهر آخر من مظاهر السلطة والحكم للساكنين في المدن الذين اشغلوا مختلف الوظائف الادارية والعسكرية وكان هؤلاء في بداية امدهم لايملكون التاثير الواسع على القبائل ولا يمتلكون أقطاعيات كبيرة جداً ولذلك مارسوا بالدرجة الاولى الاعمال التجارية الواسعة عبر البحر وصارت حالتهم الاقتصادية تتحسن شيئاً فشيئاً وخصوصا تجار الاصواف ، وكلما توسع نفوذ تونس في التجارة الافريقية عبر البحر توثق ارتباط هؤلاء الحكام بالتجار والصناعيين وهكذا أحكم هؤلاء سيطرتهم على المدن •

وقد لعب هؤلاء الاندلسيون دوراً واضحاً ، وهم بقايا سكان الاندلس الذين قدموا الى المغرب بعد سيطرة المسيحيين وقد احتفظوا بما اكتسبوه في الاندلس من التمدن والحضارة والثقافة وحافظوا على أفضليتهم بين بقية المغاربة ، وبفضل ذلك احتلوا المراكز الرئيسية في المراكز التجارية والصناعية وساعدوا على تقدم المجتمع المغربي في مختلف الجوانب الحضارية كالادب والعلم . وابن خلدون نفسه انحدر من هؤلاء الاندلسيين المتحضرين .

والارستقراطية الاندلسية لم تكن مرتبطة مع القبائل ولم تملك الاقطاعيات الواسعة وقد بنوا رفاههم على خدمة الدولة وأرباحهم من التجارة وبهذا قد ساهموا في أحكام سلطان الدولة لاهمية تأثير ذلك على التجارة نفسها وقاوموا سلطة شيوخ القبائل الذين كانوا يمزقون وحدة الاقطار المغربية بتجزيئها الى أقاليم لا تساعد على احكام الروابط التجارية كما في دولة مركزية . وكون الاندلسيون ارستقراطية جديدة وأزاحوا الارستقراطية القبلية . وقد ملأ الصراع بين هؤلاء الاندلسيين وشيوخ الموحدين على الاستئثار بالحكم تاريخ تونس في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، وقد ارتفع الدور السياسي لمدن تونس والمغرب في هذا الصراع وتعاظمت سلطة المجالس البلدية التي أدارها الاندلسيون ، وهذه الارستقراطية الجديدة ظهرت في المجتمع المغربي للقرن الرابع عشر كجماعة أكثر تقدماً وحيوية من سائر جماعات الطبقة الحاكمة ، وكان الهدف الاول لهذه الارستقراطية الجديدة هو التوصل الى سياسة اقتصادية وأدارية تساعد في توسع التجارة الى أقصى حد . وهذا الهدف تجلى واضحاً في منهاج وشروط ابن خلدون الذي كان خير ممثل لاهداف هذه الارستقراطية الجديدة بل بدا كمطالب بتحسين حالة سكان المدن عموماً وجاء على العموم بأفكار انسانية تقدمية عامة ، وهكذا وجدنا في نظرية ابن خلدون تعابير أكثر تقدمية وسبقاً لعصره وافكاراً أوسع تولدت نتيجة التطور الاجتماعي النشيط والصراع الحاد بين القوى التقدمية والرجعية في بلده .

لنينغراد



قصـــة

الحُلم

بقلم
لارسكين كالدويل

ترجمة
عبدالله نيازي

منذ أربع أو خمس سنوات كان صاحبي « هاري » قد اخبرني عن حلم يراوده في فترات متفاوتة ، ولكني لم أأبه له كثيراً ٠٠ ذلك لأن لكل انسان تقريباً احلامه الخاصة ، منها المفرحة البهيجة ومنها الكئيبة المحزنة ٠٠ اما ان يتحول الحلم الى مصدر ايذاء وتعذيب فهذا ما لم اكن اصدقه ابدا ٠٠ أجل ، قد تبقى حوادث الحلم الذي أراه في مخيلتي يوما أو يومين ، أما فيما بعد فأنني أنسى ما قد رأيته ولا اتذكر منه شيئاً ، ولكن « هاري » يزعم انه يرى حلماً واحداً يتكرر في كل شهر بصورة منتظمة ٠٠ الحادثة واحدة لاتتغير في كل مرة ، وكذلك الوقت والمكان ٠٠ شخصان لايتبدل فيهما أي شيء ، حتى ولا ملابسهما منذ ان بدأ يرى الحلم ٠٠ أحد هذين الشخصين « هاري » نفسه ٠٠ اما الآخر فكانت فتاة يانعة ٠٠

ولقد قصد « هاري » في الشتاء طبيباً نفسانياً كان يقوم ويعالج عملية قضايا الشباب العقلية واضطراباتهم النفسية ، وكان يعتقد انه اذا كان يشكو من شيء فأن بامكان هذا الطبيب أن يساعده ٠٠ وكيفما كان فقد ذهب اليه ، ولكنه لم يعاود زيارته له ٠٠ لقد أوضح « هاري » له انه يرى حلماً واحداً يتكرر في كل شهر ، ولكن الطبيب النفساني ابى أن يصدق ذلك وقال أن هذا أمر لايمكن حدوثه ، وأكد ايضاً ان من الغباوة ان يعتقد انسان في أشياء لا يمكن أن تقع او تحدث ٠٠ وطلب الى هاري ان ينسى كل ذلك ٠٠

من المحتمل أن تكون أقوال الطبيب تلك هي الطريقة التي وجدها ناجعة في معالجة « هاري » ولكن أثرها عليه لم يكن موفقاً ، فقد أكد ، بعد اجتماعه الاول به ، انه فقد ثقته به كطبيب نفساني ، وانه سوف لايعاود زيارته مرة اخرى ٠ وقد كانت حجته في عدم مقدرة الرجل على مساعدته ، هو انه تكلم عن استحالة تكرر الحلم الذي يراه النائم أكثر من مرة في حين ان الحلم الذي كان يراه « هاري » يتكرر بصورة منتظمة ويعود ليتتابع في كل شهر تقريباً ٠٠

كان شهر حزيران على وشك الانتهاء حين رأيت « هاري » لاول مرة في ذلك الصيف ، وتصادف انه كان قد رأى الحلم حديثاً في ذلك الشهر ، فاخبرني بكل ما يتعلق به ٠٠ كان الحلم نفسه الذي قصه علي في العام الماضي ٠٠

كنا بالقرب من حمامنا الشمسي ، وكان « هاري » يضع طلاء اخضر جديداً على زورقه ، وكنت جالساً بالقرب من شجرة حين راح « هاري » يعيد على مسامعي الحلم الذي كان قد رآه ٠٠ وكلما كان يقترب من المواقف الدقيقة في الحلم كلما أخذت فرشاة الطلاء تتحرك أسرع فاسرع ، وحين بلغ الخاتمة كانت الفرشاة تتحرك بسرعة فائقة حتى انه لم يستطع ان يحتفظ بالدهان عليها ليستمر في طلاء الشراع ٠٠ فقال وعيناه تومضان ، ويداه ترتجفان بانفعال :

— أرجو ان تكمل انت ما تبقى منه ، وكيفما كان ، فانه لم يبق غير شيء يسير ٠٠

تناولت الفرشاة منه ، وما كدت امد يدي الى اناء الدهان حتى وجدت ان « هاري » كان قد اختفى في الغابة خلف الحمام الشمسي ، ولم أره ثانية خلال ذلك اليوم ٠٠

ولقد شعرت ان حالة « هاري » تقلقني أكثر مما مضى منذ أن رأى الحلم لاول مرة ٠ وكان يلوح لي انه يجب ان يحدث شيء يساعده او ربما يعالجه تماماً ، فلم أكن اريد ان أصدق ، كيفما كان ، للحظة ، انه قد يصبح مجنوناً ٠٠ ولم يكن « هاري » بالمعتوه ٠٠ فقد كان هادئاً طبيعياً لم يظهر عليه أي اختلال طيلة صحبتي الطويلة له ٠٠ وكنا معاً ننظر الى الحلم كما ننظر الى شيء موقت قد يزول في أية لحظة ٠٠

لقد مضى على تعارفنا عشر سنوات ، وكنا في كل صيف نذهب الى « مين » للاصطياف مع عائلتينا ونبقى هناك الفصل كله ٠ وكانت مخيماتنا تقوم على ساحل شاطىء واحد ، لذا كنا نلتقي كل يوم تقريباً ، فنذهب الى الصيد معاً ٠ او الى السباحة مرتين أو ثلاث مرات في اليوم ٠٠ في حين كنا نذهب الى الرقص مرة واحدة في الاسبوع ٠٠ اما اغلب الوقت فكنا نقضيه في تبادل الاحاديث المختلفة ونحن نقطع المسافة من الشاطىء الى القرية مشيا على الاقدام ، واذا جرنا الحديث الى الحلم فكان « هاري » يؤكد انه شيء غير حقيقي ، ولكنه يستدرك قائلا ان ما يغيظه هو تكرر وقوع الحلم على ذلك النحو المستمر ٠ اما الحلم نفسه فقد كان يقول عنه انه جد بهيج ٠٠

لقد كانت قوة الحلم تعادل قوة حوادثه ٠٠ لم يحدث اي شيء حقيقي له وجود محسوس كما كان يقول « هاري » نفسه ٠ فما كان يراه لم يزد على مجرد احساس فقط ، ولكن قوة الحلم ، التي كانت تصير من حوادثه اشياء حقيقية لها وجود حي ، هي التي تقلق « هاري » وتعذبه ٠٠ لقد حدثني

« هاري » عن الحلم مرات عديدة حتى بت اعتقد انني اعرف تماماً حقيقة احساسه ٠

كان يرى نفسه ٠ في كل مرة ، يسير وحيداً على امتداد الشـــارع خلال الغابة ٠ في الشمال الشرقي من « مين » ٠٠ وكان القمر منيراً ، الا ان بعض قطع الغيوم الرقيقة الداكنة كانت تحجب ضوءه بعض الشيء فتجعل الطريق والغابة غارقين بنور معتم هو أشبه بنور ناعم يتسلل من مظلة مصباح ٠٠ وبعد ان يقطع ما يقارب الميل ونصف الميل من الطريق يصل الى جسر ينتصب فوق نهر٠٠ كان جسرا خشبياً عرضه حوالي اربعة أقدام ونصف القدم ٠٠ وما كان « هاري » يسمع أي صوت او يرى أي كائن حي الى ان يبلغ الجسر ، ولكنه في اللحظة التي يضع فيها قدمه على الجسر يسمع صوتاً رقيقاً ينادي اسمه ٠٠ وما ان يرفع رأسه ليبحث عن مصدر الصوت ، حتى يرى امامه ، وفي وسط الطريق المملوء بالحصى ، فتاة يانعة في الثامنة عشر من عمرها ٠٠

كانت تقف باتجاهه وهي تسبح في ذلك النور المعتم الذي كـــان يتسلل من القمر المتدثر بالغيوم الرقيقة ٠٠ فيقف عند الجسر مسمراً انظاره فيها ثم يقول بصوت أقرب الى الهمس :

ــ ماذا تبغين ؟ ٠٠

فتجيبه :

ــ انا هنا بانتظار هاري ٠٠

« يقول هاري انه توسل اليها كثيراً ان تذكر له أسمها ومكان سكناها ولكنها لم تكن تجيب على اسئلة مثل هذه »

ويقول لها :

ــ انا هاري ٠٠

ــ اذن فانا عائدة من حيث أتيت ٠٠

ــ دعيني اذهب معـك ٠٠ انني انـــا هاري ٠٠ واذا كنت حقـــاً تنتظرينني ، فاني على أستعداد لان اذهب معك ٠٠

ــ كلا ٠٠ كلا ٠٠ يجب ان اعود بمفردي ٠٠

ويقول « هاري » انه كان يركض وراءها ويحاول جهده ان يلحق بها ولكن دون جدوى ٠٠ فقد كانت نفس المسافة تبقى بينهما لا تتغير مهما حاول ان يركض باقصى سرعته ٠٠ وبعد ان يقطعا ثلاثة أميال يستيقظ « هاري » فجأة من سباته ويصحو على فراغ يمتد الى مالانهاية ، فيقفز من على فراشه ، ثم يحاول ان يعود الى أحضان النوم عله يمسك بتلابيب الحلم أو يواصل رؤياه ، غير انه كان يفشل تماماً ويظل في صحو شديد حتى يكون الصباح ٠٠ فكان يرتدي ملابسه ويذهب ليدور حول المخيم حتى تأذن الشمس بالشروق ، ذلك لانه ما كان يتمكن من النوم بعد ان يرى

الحلم ، بالرغم من انه لايستيقظ عادة قبل الساعة الثامنة او التاسعة صباحاً ٠

ورأيت « هاري » ثانية في اليوم التالي ولكننا لم نتطرق الى حلمه ، وظللنا هكذا طوال شهر تقريباً ٠ وفي صباح أحد ايام تموز اخبرني ان الحلم قد عاوده ثانية ٠٠ كان نفس الحلم الذي يتكرر وقوعه ٠٠

ثم حدثني عن شيء آخر ، لم يقفني عليه الا حديثاً ٠٠ فهو منذ ان كان في المخيم في ذلك الصيف بدأ الحلم يراوده في حالة الصحو ٠٠ « حلم اليقظة » كما كان يسميه ٠٠ لم يكن الحلم يأتيه في فترات منتظمة كما يحدث في الليل ، ولكنه ، مع ذلك ، كان نفس الحلم ، فلقد رأى اثناء ما كان يسوق سيارته في طريق عودته من المدينة الى القرية ، وكان في حالة صحو شديد يغني او يرسل صفيراً راقصاً من بين شفتيه ، رأى وعلى حين غرة ، الفتاة نفسها تنتصب امامه في وسط الطريق ، وما كاد يقترب منها حتى استدارت وراحت تركض امامه في الجهة التي يقصدها ٠٠ لم يستطع « هاري » ان يلحق بها ابداً بالرغم من انه كان يقود السيارة بسرعة كبيرة تتجاوز الثمانين ميلا في الساعة ٠٠ ثم فجأة تختفي عن الرؤيا بعد ثلاثة أميال من المكان الذي شاهدها فيه لاول مرة ٠٠ وكثيراً ما كان يوقف سيارته ويخرج يعدو في الغابة على غير هدى وهو يناديها ٠٠

لقد كان يعلم ان ما يفعله امر لا يخلو من غباوة ، ولكنه قال ان شدة تأثيرها عليه هي التي كانت تضطره الى الذهاب خلفها وقال ايضاً « انني سأجن اذا انا لم اوقف زيارتها لي ٠٠ ان الامر الوحيد الذي يستطيع ان يساعدني الان هو أما ان تمسك او توجد في مكان ما ٠٠ لقد ذهبت الفرصة التي كنت أستطيع ان انساها فيها ، وحتى اذا توقف الحلم فجأة ولم يعد يتكرر ثانية فانني ما عدت قادراً على التخلي عنها ٠٠ والامل الوحيد الذي بامكانه ان يبعد عني الجنون ويجعلني أحيا حياة طبيعية هو ان امتلكها ٠٠ ان تكون لي ٠٠ لقد قال الطبيب حين ذهبت اليه انه ليس هناك ما يجعلك قلقاً ، واشعر انني الآن قد اجتزت تلك المرحلة ، فلم اعد اقلق ابداً ، ذلك لانني بت على يقين تام من انني سأحصل عليها ٠٠ والا فاحسبني سأجن في السنة القادمة اذا انا لم احصل عليها ٠٠ ان الوقت ما زال متسعاً امامي لكي أنقذ نفسي ٠٠ لقد كنت طيلة الشتاء الماضي وكذلك الربيع أرتبط بمواعيد مع عدد من الشبان والفتيات ، وتذهب الى الرقص وانا في حالة طبيعية تامة ٠٠ ولكن اذا حدث وتغير الحلم هذا او توقف فمعنى ذلك انني سأتحطم ٠٠ »

فقلت له مازحاً وانا أحاول ان اصرفه عن التفكير في الحلم على ذلك النحو الجدي :

ـ من المحتمل ان ترى في أحدى المرات فتاة تشبهها وتتخذها فتاة لحبك المثالي ٠٠ ينبغي ان تبحث عن واحدة مهما كان الامر ٠٠

ولكنه لم يكن يريد ان يتخذ من الحلم مادة للهزل او الضحك ، فقد كان ينظر اليه دائماً نظرة جدية صرفة كاي شيء مرعب . وقال :

ـ ليست هناك فتاة تشبهها ، ولا يمكن ان تكون .. كلا .. ان اي فتاة اخرى لايمكن ان يكون لها صوت كصوتها .. ان نبرات صوتها واضحة تامة ولها نفس المعنى العميق الذي للموسيقى ..

فقلت :

ـ ان الامر لا يختلف ، فلو كنت مكانك لحاولت ان اعثر على شبيهتها حال ذهابي الى المرقص .. ان في ذلك راحة تامة لك .. وقد ينتهي الامر كله .. بل ربما لا يعود الحلم مرة اخرى ..

وابتعد « هاري » عني دون ان يجيبني بحرف وقسمات وجهه تشير الى يقينه من انني لا استطيع ان افهمه ابداً ..

وفي نهاية تموز تقريباً ، وبعد أيام قلائل من معاودة الحلم لـ «هاري» ذهبت اليه صباح أحد الايام في مخيمهم ، ورأيته جالساً بهدوء وصمت على كرسي مريح تحت اشجار الصنوبر .. وما كاد يراني حتى قفز راكضاً نحوي وقال بانفعال بالغ ويداه ترتجفان أكثر مما ارتجفتا حين كان يطلي الزورق بالدهان :

ـ لقد عاودني الحلم مرة ثانية في الليلة الماضية .. انه نفس الحلم تماماً لم ينخرم منه شيء ..

فقلت :

ـ انه خبر جد رديء .. واحسب انه لم يبق الا ان تجرب كل الاطباء الموجودين في المدينة حتى تشفى تماماً ، ومن المؤكد انك قد تجد في مكان ما احداً يستطيع مساعدتك ..

ـ كلا .. لقد فات الاوان ، فانا لا اريد ان ينقطع الحلم الان ، بل العكس ، فانا احرص على أن يستمر بصورة منتظمة .. ذلك لانه سيستحيل الى حقيقة واقعة .. وانني سأذهب للبحث عن الفتاة تلك .. ففي الليلة الماضية ، وأنا تحت وطأة ذلك الحلم ، رأيت لوحة معلقة على شجرة بجانب الجسر .. كانت اللوحة جديدة طليت حديثاً بالدهان .. وفيها سهم كبير يشبه الاسهم الموجودة في لوحات الاتجاه ، وفوق السهم هذه الحروف .. « البحيرة المفقودة .. عشرون ميلا .. »

ـ واي شيء يعني ذلك ؟ ..

ـ ذلك يعني انني ساجد الفتاة في البحيرة المفقودة طبعاً ، حيث تعيش ..

فقلت وانا غير مصدق ما اذا كان « هاري » قد بدأ يهزل في الاخير من الحلم ذاك ام انه حقيقة كان يعتقد جدياً ما يقول :

ـ ولكن ، كيف علمت انها تعيش هناك ؟ ..

ـ لان اللوحة تشير الى ان الجسر يبعد عن البحيرة بعشرين ميلا في

حين أن البحيرة المفقودة تبعد عن مدينة « رينجلي » بعشرين ميلا ٠٠ اليس كذلك ؟ ٠٠ حسناً ، ان ذلك يعني ان الجسر يقع بالقرب من « رينجلي » ايضاً ٠٠ انني سأذهب هناك وابدأ البحث عنها ٠٠ اجل ، قد لا اجدها في اليوم الاول ، ولكني — على كل حال ، ساجدها قبل ان اعود ٠٠ انها تعيش في مخيم في مكان ما من البحيرة ٠٠ انا اعلم ذلك ، ومتأكد من انني لسمت على خطأ ٠٠

لم أكن استطيع ان افهم كيف يمكنني ان اعتقد ان تلك الفتاة تعيش هناك حقاً ، او على الاقل واحدة تشبهها تماماً ليصدق انها هي بعينها ٠٠ فقلت :

— من المحتمل ان يكون هناك أكثر من بحيرة واحدة تحمل هـذا الاسم ، وقد تكون بحيرتك التي تبحث عنها في الجانب الآخر من القارة ٠٠ ولكنه تجاهلني تماماً وقال :

— « انني غير متأكد تماماً اين يكون الجسر ، ولكن ذلك ليس بالامر المهم ، فانا استطيع ان ابدأ رحلتي من « رينجلي » او من اي مكان آخر يؤدي الى البحيرة ٠٠ انك تستطيع ان ترى كيف يمكن ان يكون الامر ٠٠ اليس كذلك ؟ ٠٠ الشيء المهم هو ان أصل البحيرة ، وحينذاك ، اي بعد ان أصل اليها ، اطوف بالمخيمات واحداً واحداً وأسأل عن الفتاة ٠٠ وقد تستغرق رحلتي هذه أسبوعاً حتى أصل البحيرة لوعورة الطريق على طول الشاطيء ، ولكني سوف لا أدهش ابداً اذا انا وجدتها في أول مخيم اقف عنده ٠٠ »

وبالرغم مني كنت مضطرباً ومنفعلا تماماً كـ « هاري » نفسه ، فان طريقة توضيحه للوحة التي وجدها على الشجرة ، وطريقة ترجمته للحلم ، جعلتاني أصدق تماماً ان هناك فتاة تعيش حقاً ، وان كنت أشعر ، في الوقت ذاته ، ان احساسي الداخلي يؤكد لي استحالة وقوع مثل هذا الامر على ذلك النحو ٠ ومهما يكن ، فقد وددت ان أذهب معه لا لشيء ، الا لاجل المغامرة فقط ٠٠ وسألته :

— متى تبدأ رحلتك يا « هاري » ؟ ٠٠ فأنا اريد ان اذهب معك ٠٠

— في الصباح الباكر ٠٠٠ ولكنني آسف ، فانـــا لا استطيع ان استصحبك معي ، فانت تعلم جيداً انني ما ان أجدها حتى اعقد عليهـــا وأتزوجها ٠٠ وهذا ما ظللت انتظره طوال هذه السنوات السبع ٠٠

— يالله ٠٠ أرجو الاتعني بقولك هذا انك تعتقد حقاً بانك ستجـد فتاة تشبه الفتاة التي تجيئك في الحلم ومن ثم تظن انها هي نفسها ؟!

وهنا اخرج « هاري » من جيبه خاتمين وضعهما في راحة يده ليريهما لي ٠٠ كان احد الخاتمين من الالماز الخالص ، اما الآخر فخاتم زواج ، وقـــال :

— لقد حضرت هذين الخاتمين منذ أكثر من سنتين ، ولم يدر بخلدي

ابدأ انني سأريهما لك ··· ذلك لأني أعلم تماما انك ستهزأ بي ·· اما وقد وجدتها فلم تعد هناك أهمية لذلك ··

ـ ولكنك لم تجدها بعد ·· « هاري » فربما لا تكون ، بعد كل احتمال ، عند البحيرة المفقودة ··

لم يقل « هاري » اي شيء لبضع دقائق ·· كان ينظر الي كما لو انه كان يعجب كيف يمكن لانسان ان يشك في فتاة كالتي يراها في الحلم ، لا تعيش في تلك اللحظة ·· وقال اخيراً :

ـ اذا كنت لا تصدق ما قلته لك ، فلماذا لا تراهنني من انني سوف لا اجدها ؟! ··

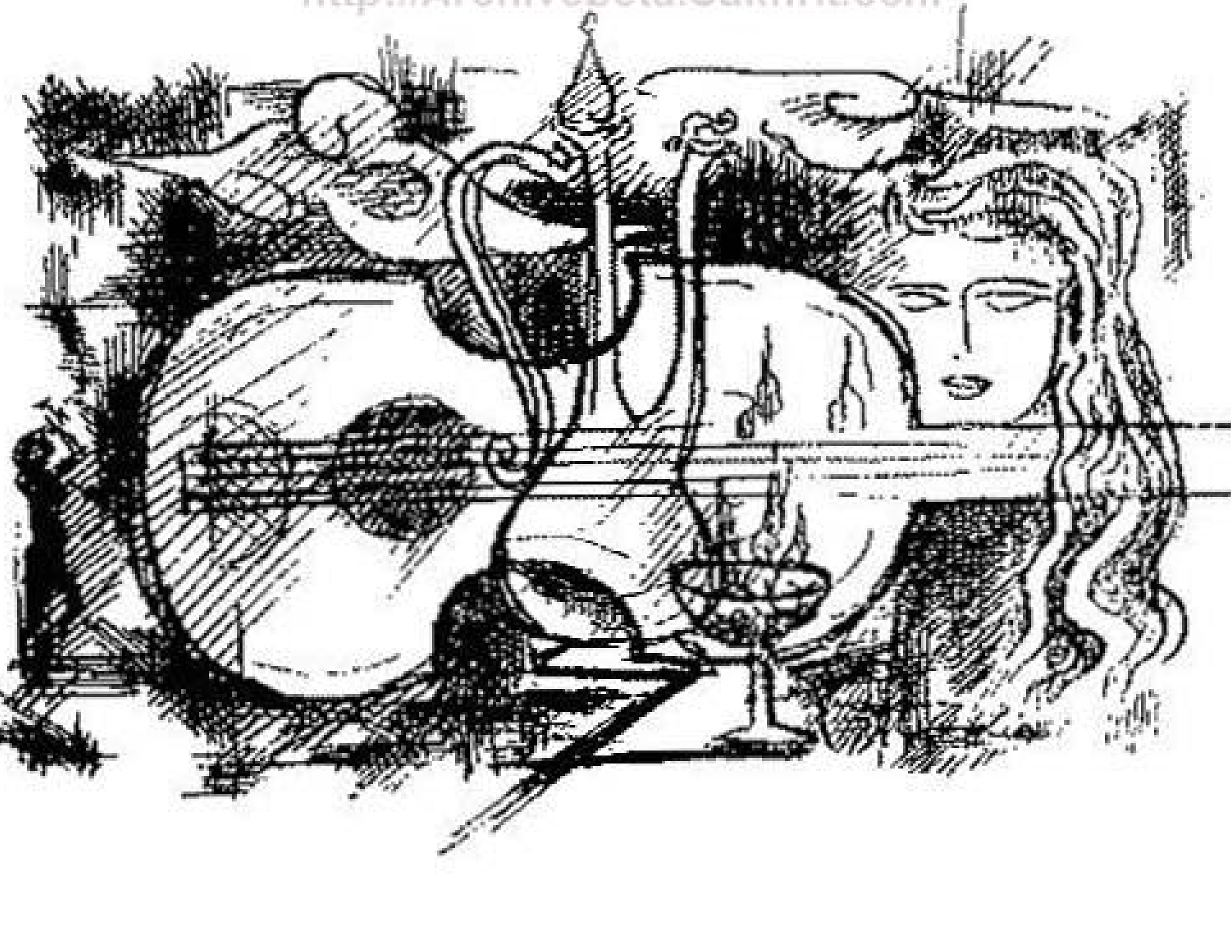
كل ما كان يملأ رأسي من شك بدأ ينسل ببطء ، بل وخيل الي ، في تلك اللحظة ، انني لمحت الفتاة تقف بعيدا عن الغابة بالقرب من مخيم في البحيرة بانتظار قدوم « هاري » ··

وقال يستحثني :

ـ الا تريد ان تراهنني ؟! ··

فقلت :

ـ كلا ·· افضل الا أفعل ذلك ··



المخطط العام لسورة البقرة وآل عمران

الشيخ جلال الحنفي

١ ـ البقرة ...

سورة البقرة احدى كبريات السور القرآنية الكريمة ، وقد كانت أولى سورة نزلت في المدينة بعد هجرة الرسول اليها ..

تتضمن هذه السورة ـ التي يبلغ عدد آيها ستاً وثمانين ومئتي آية ـ الجزء المهم من أحكام الدين ، كما أنها تصور سيرة الاسلام في المدينة تصويراً دقيقاً وتلقي ضوءاً باهراً على الظرف العقائدي الذي كان يتشبع به جو المدينة يوم بدأ يضمخه الاسلام بعبير دعوته النازحة اليه ..

ونحن نلاحظ ان الرسول الأعظم أطرى سورة البقرة غير مرة وأولاها من التكريم والحفاوة ما هي أهل له .. ففي بعض مراجع الحديث النبوي ان الرسول بعث بعثاً فاستقرأهم فقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن ـ أي ما يحفظه من آياته ـ ثم أتى على رجل من أحدثهم سناً فقال له ما معك انت يافلان ؟ فقال معي كذا وكذا من السور وسورة البقرة ، قال أمعك سورة البقرة ؟ قال نعم ، قال اذهب فأنت اميرهم فانها ان كادت لتستحصي الدين كله ..

وفي حديث آخر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اقرأوا البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة » كما روي من قول الرسول انه قال « ان الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة » ..

فما جاء في الحديث من ان اخذها بركة وتركها حسرة ، فلما فيها من مختلف الأحكام التي تتعلق بالعبادات والمعاملات ومعرفة أصول الدين ، فالأخذ بالسورة من هذا الوجه فوز للآخذ وتركها خسران له لأنه جهل بتركها أهم معاني الدين وأضاع باهمالها كثيراً من أركان الشريعة وتعاليمها ..

وكذلك الحديث الذي يشير الى أن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة ، فان البيت الذي تقرأ فيه هذه السورة لابد ان

يكون اهله قد وقفوا من أمر دينهم على الجوانب المستقرة ، فكأنهم طردوا بما استقر في نفوسهم من معاني الدين فتنة الشيطان ووسوسته ..

وهذه النعوت التي نعتت بها سورة البقرة تومىء الى ضخامة المطالب التي تناولتها السورة وحفلت بها ، وسنتناول مخطط هذه السورة فندل على ابرز مواقعها وتحركاتها ، ونشير الى أحكامها وتعاليمها ..

ان سورة البقرة تنشطر من حيث موضوعاتها الى شطرين اثنين ، يستوعب الشطر الأول منهما قصة الصراع الضخم الذي حملت عبئه عقيدة الاسلام ، وهي عقيدة بدأت تسيطر على المدينة التي لم يكن فيها فراغ لعقيدة جديدة يومذاك .. فلقد كانت تعلو في المدينة راية اليهود والى جانبها راية الوثنية ، ومن وراء هاتين الرايتين ظهرت راية الانتهازيين الذين مردوا على النفاق ..

والشطر الثاني من السورة يبحث في مجموعة من أحكـــام الدين وتعاليمه التي هي ركائز الاسلام وملاك أمره ..

فيكون صدر السورة بمثابة توطئة موفقـة هيء بها المجال لعرض التعاليم الدينية عرضاً هادئاً ليناً ..

ففي الجانب الأول من سورة البقرة نجد الآيات الكريمة تلقي على أهل الكتاب من يهود المدينة الأضواء الكاشفة لاحباط جميع مساعيهم التي كانوا يبذلونها من اجل التخلص من النحلة الجديدة التي يرونها قد فاجأتهـــم بقرآنها الخطير ..

وهكذا نرى عشرات الآيات قد تتابع نزولها لتعريف العرب عـــلى سلوك القوم فيما خلا من دهاريرهم ، وكيف كانوا يعاملون أنبياءهم بجفوة وعناد ومكابرة ، وكيف أنكروا نعم الله عليهم وانقلبوا الى عبادة الاوثان ..

ولم يزل كهنة اليهود يلقون في روع المسلمين الشكوك والشبهات ، والقرآن ينزل ليضع كل شيء في نصابه ..

وكان المنافقون أشد خصوم الاسلام أذى له ، والمنافقون هم قـــوم أعلنوا الاسلام وكانوا يحضرون الصلوات ويؤدونها ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك على مستبطن من الكفر والضلال ، وقد لعب هؤلاء دوراً عجيباً في ايذاء رسول الله وخذلان المؤمنين ..

غير أن نصوص القرآن النازلة فيهم كانت ترعبهم ، فيكادون يحسبون أنهم قد كشفوا للانظار كما تكشف السوءات المفضوحة ..

وكان للقبائل العربية في المدينة وأقطارها محالفات موسعة مع القبائل اليهودية المسلحة ، التي كانت فوق ذلك تصنع السلاح وتبيعه ، وتمتلك المال وترابي فيه ، وكان لها شعراؤها وكهنتها ومقاتلتها الأشداء .. ولم يكن من الهين على دين جديد أن يأرز الى هذه الارض ليضع أحكامه وشعائره بصمت وحرية دون أن يلاقي ما يلاقي من فتنة خصومه المتحالفين عليه وثنيين وكتابيين ..

غير أننا اذا قرأنا نحواً من مئة وخمسين آية هي محتويات الجانب الاول من سورة البقرة أدركنا بوضوح ما أدته هذه الآيات من مهام جليلة في سبيل دحر القوى الكافرة وشق صفوفها واسكات صوتها البغيض ٠٠ ثم اذا تابعنا تلاوة الجانب الثاني من السورة وجدنا الأحكام تتنزل بيسر وسكينة ، فلقد صمتت الأصوات الناهقة ، وشلت الايدي المتحرشة ، وأدركت اليهودية انها ستشقى في دار الاسلام بعد يومها ذاك لانفضاح خططها وانكشاف مؤامراتها ٠٠

فلقد أوضحت السورة ان اولئك القوم لم يكونوا امناء على دين موسى رسول الله الذي كان فضله عليهم عظيما جليلا ٠٠

وقد كان من أبرز النقاط التي ذعر لها اليهود قضية تحويل القبلة ، وكان ذلك أول نصر عقائدي تحقق للاسلام في مهجره الجديد ٠٠

ومن آيات الأحكام النازلة آيات الصيام التي استوعبت خمس آيات طوال ، وآيات القتال التي جاء فيها « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين » ٠٠ ومنها آيات الحج التي نظمت شؤونه وطورته خير تطوير وقد جاء في ذلك قوله تعالى « الحج اشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله وتزودوا فان خير الزاد التقوى واتقوني يا اولي الألباب » ٠٠ ومنها آيات في الحض على الانفاق في سبيل الله وفي وجوه الخير ، ومنها آيات نصت على الطرائق السليمة في الانتفاع بالأموال وتحريم الرشاوي ، وقد جاء فيها قوله تعالى « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون » ٠٠ وكان من هذه الأحكام أيضاً أحكام القصاص وفي لبتها النص الكريم « ولكم في القصاص حياة يا اولي الألباب » ٠٠

وفي هذه السورة نزل النص بتحريم الخمر والميسر ، ونزلت كذلك مجموعة من التعاليم ذات العلاقة باليتامى لما في رعاية أمرهم من صلة ببناء المجتمع « ويسألونك عن اليتامى قل اصلاح لهم خير وان تخالطوهم فاخوانكم في الدين ، والله يعلم المفسد من المصلح » ٠٠

٠٠ ونزل من الأحكام في هذه السورة أيضاً . تحريم نكاح المشركات حتى يؤمن « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم ٠ اولئك يدعون الى النار والله يدعو الى الجنة ٠٠ »

وقد استوعب هذا الجانب من السورة آيات تبلغ العشرين في حقوق المرأة وواجباتها ٠٠

واستوعب كذلك مجموعة من آيات الوعظ والتهذيب من مثل قوله تعالى « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » ٠٠

ومن الأحكام تحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما يتعلق بذلك من

الاضطرار ، ومنها كذلك تحريم الربا « يمحق الله الربا ويربي الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم » ..

وكان من الأحكام ما يتعلق بأمر الديون « يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب ان يكتب كما علمه الله ... »

وأما تسمية السورة بسورة البقرة ، فان للبقرة قصة وردت في السورة غير أنها لم تكن قصة بقرة في الواقع ، بل كانت قصة شرك وتوحيد فان اليهود بعد خروجهم من مصر بقيادة موسى عليه السلام شاءوا أن يقلدوا المصريين في عبادة العجل وأراد الله ان يجتث اعراق هذه الضلالة من نفوسهم فأمرهم بذبح البقرة فلبثوا يماطلون في ذلك بالنفس الطويل حتى حملوا على ذبحها حملا ..

وكان في ذلك نصر للتوحيد ، بل كان في ذلك نصر للعقل البشري الذي ينبغي ان يسمو سمواً عظيماً في منحاه الاعتقادي ، فكان ذبح البقرة في القصة المقصوصة اشعاراً لانتصار التوحيد على الوثنية ، فسميت السورة بذلك تسمية توقيفية ..

ومن أبرز ما ورد في سورة البقرة قصة آدم عليه السلام وما كان قد علمه الله من الاسماء التي جهلتها الملائكة ، فقد جاء النص بذلك « وعلم آدم الأسماء كلها » فانه تعالى لما خلق آدم ألهمه وسائل الادراك كلها وهي وسائل تتميز بها صفات الأشياء ومعالمها ، وكان الله قد سأل الملائكة عن هذه الأمور فجهلوها وكان في ذلك دلالة على صلاح آدم وذريته لسلطان الأرض ..

قال الصدر الشيرازي ان المراد من تعليم الأسماء ليس مجرد تعليم الالفاظ الموضوعة بحسب دلالتها على المعاني كما في التعريفات اللفظية بل افادة العلم بحقائق الأشياء ومهيآتها ، فالمعنى انه تعالى خلق آدم مستعداً لادراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والتخيلات .. وألهمه معرفة ذوات الاشياء وحقائقها الكلية والجزئية وخواصها وأسمائها حتى صار في نفسه عالماً منفرداً منفصلا عن العوالم كلها .. »

ومما تناولته السورة الكريمة من الموضوعات الرئيسية ما يتعلق بالسحر ودعاته ، وكانت نظرة القرآن الى ذلك نظرة حكيمة دقيقة ، فمما جاء في وصف القوم قوله تعالى « ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله في الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » ..

ان سورة البقرة تحتوي على مجموعة مهمة من القواعد العامة التي ترتكز عليها المعتقدات الدينية والنظم الخلقية في الاسلام من نحو قوله تعالى « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله » . وقوله تعالى « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم » وقوله تعالى « ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وانتم تعلمون » وقوله تعالى

« وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله » وقوله تعالى « ومن أظلم ممن منع مساجد الله ان يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها » وقوله تعالى « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله اموات بل احياء ولكن لاتشعرون » وقوله تعالى « ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين ، انما يأمركم بالسوء والفحشاء وان تقولوا على الله ما لا تعلمون » ومنها قوله تعالى « ليس البر ان تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا واولئك هم المتقون » وقوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان » وقوله تعالى « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » ..

فهذه ضروب من التعاليم الداعية الى الفضيلة وتهذيب النفس واقتراف الحسنة ومعرفة الله حق المعرفة .. كما أننا نجد في السورة أهم الأسس التي قامت عليها عقيدة القرآن وان مثل هذه النصوص في موردها الواضح الناصع ليست مما يحتاج الى طول شرح وطول تفسير ..

ومن القواعد الاعتقادية الكريمة التي جاءت في السورة النص الذي يحدد شكل الايمان في الاسلام وهو قوله تعالى « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين احد منهم ونحن له مسلمون » .

وفي هذه السورة نوقشت احدى كبريات العاهات المتأصلة في نفوس الناس ، وهي عاهة التقليد الأعمى لكل ما درج عليه الآباء والاجداد من تقاليد لاسند لها من العقل والحكمة .. فقد جاء على ذلك النص الكريم « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه أباءنا أولو كان آباؤهم لايعقلون شيئاً ولا يهتدون » .

ومما شاع شيوع الامثال والحكم من آيات السورة قوله تعالى في المنافقين « اذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم » وقوله تعالى « وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم » وقوله تعالى « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » ومنها قوله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله » وقوله تعالى « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » ..

وفي هذه السورة نرى أطول آية قرآنية هي آية الدين التي نصت على جماع الاحكام الخاصة بالمداينات ، وكانت هذه الآية من أبرز مظاهر الحضارة الحقوقية التي رسمتها الشريعة الاسلامية لأتباعها فحمت بها الحقوق من

الضياع وسدت على فريق من الناس سبيل المطل والتعسف وأكل اموال الناس بالباطل ٠

واختتمت السورة بدعاء رائع جميل بما فيه من الضراعة والانابة الى الله حيث نقرأ فيه « ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا » ٠٠

٢ ـ آل عمران ٠٠٠

وهذه من كبريات السور القرآنية التي نزلت بالمدينة وعدد آياتها مئتا آية وهي تلي سورة البقرة في ترتيب المصحف ٠

ان المنحى الجدلي يعتبر قوام هذه السورة ، وسنرى ذلك جلياً في كل مرحلة من مراحلها ، وفي كل فصل من فصولها ، وكذلك نرى السمت اللاهوتي بيناً في منازل شتى من هذه السورة فلقد بدئت بالنص الكريم ٠

(الله لا اله الا هو الحي القيوم) ونقرأ بعد ذلك قوله تعالى (ان الله لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء ، هو الذي يصوركم في الارحام كيف يشاء لا اله الا هو العزيز الحكيم) وكذلك قوله تعالى (شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة واولو العلم قائماً بالقسط لا اله الا هو العزيز الحكيم) ٠٠

٠ ثم نقرأ قوله تعالى (قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء ، وتعز من تشاء وتذل من تشاء ، بيدك الخير انك على كل شيء قدير ٠٠ تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ، وترزق من تشاء بغير حساب) ٠٠

وتقرأ كذلك (قل ان تخفوا ما في صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ، ويعلم ما في السماوات وما في الارض والله على كل شيء قدير) ٠٠

وتتناثر في السورة أنماط من الدعاء الفخم الرائع الجميل ٠٠ ومن بعض ذلك (ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب) ومنها (ربنا اننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا ، وقنا عذاب النار) ومنها (ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الابرار) ومنها (ربنا اغفر لنا ذنوبنا واسرافنا في أمرنا ، وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) ٠٠

ولقد كان من مهمات ما استعرضته هذه السورة موضوع غزوة بدر الكبرى وكانت هذه الغزوة مفتاح الانتصارات الاسلامية في المراحل التي تلتها ٠٠ ولو خذل المسلمون آنذاك لانكمش الاسلام على نفسه كل الانكماش ٠٠

وفي خلال الحديث عن قصة بدر نجد النقاش الرصين للاحتجاجات الاستفزازية التي كان المنافقون ويهود المدينة يثيرون عجاجتها فيتأثر بها بعض ضعفاء القوم ٠٠

في هذا النقاش نستبين روح الجدل في القرآن لنرى أنه جدل لا تتطاول اليه ضروب الجدل المعروفة في التاريخ ، فهو جدل يحتكم الى الواقع المشهود ويعتمد على الأقيسة الملموسة ، وبالرغم من تحرج الظروف فاننا نرى المنحى الجدلي في هذه السورة منحى هادئاً ليناً رائعا أخاذاً ظاهر الرصانة والسداد ٠٠ كما نراه يغلب عليه روح التهكم بالمتبالدين من الخصوم ٠٠ ومما جاء في هذا قوله تعالى (يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا ، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم) ٠٠ ومن ذلك ايضاً قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لاتكونوا كالذين كفروا وقالوا لاخوانهم اذا ضربوا في الارض أو كانوا غزى : لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ٠٠٠) وقوله تعالى (الذين قالوا لاخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرأوا عن أنفسكم الموت ان كنتم صادقين) ٠٠

ونجد في هذه السورة ان عدة آيات نزلت للحد من نشاط الجهات المعادية للدعوة الاسلامية ، ولكنا نجد أسلوب العرض فيها يختلف عن الاسلوب الذى مررنا به في سورة البقرة ٠

ان سورة آل عمران قد تناولت موضوعهم بخطابات خاصة ذات نمط جدل دقيق ٠٠ ومن بعض ذلك قوله تعالى « قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ، ٠ قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا وأنتم شهداء ، وما الله بغافل عما تعملون » وكذلك نقرأ قوله تعالى « يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وانتم تعلمون » ٠٠

ان الخطابات الموجهة الى يهود المدينة فيما مررنا به من آيات سورة البقرة كانت خطابات قائمة على التعريض وكانت تنصب دائما على من سلف من بني اسرائيل ، ولكنها في آل عمران وردت مورد التصريح ، فهي هنا تخاطب القوم بأعيانهم ٠٠

وتنصرف آيات السورة احيانا الى المؤمنين وهي تحمل اليهم كل التحذير من ان يفتتنوا بدعايات القوم ، ومن هذا الضرب قوله تعالى (يا ايها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد ايمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي الى صراط مستقيم) ٠٠

وتشد الايات الكريمة من قوى الجماعة المسلمة شدا محكما ، بما تلقيه عليهم من كريم النصح ورشيد الموعظة فنقرأ قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وانتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) ٠٠

وهكذا يتكرر في النص الكريم ، التحذير من الخلاف والتفرقة

والنكول عن الايمان بعد وضوح بيناته والتماع آياته ·· ومن ذلك أيضاً قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين) ··

ان النمط الجدلي يكاد يكون مسيطرا على جزء كبير من سورة آل عمران واننا حين نقرأ هذه السورة نعجب لصمود الاسلام أمام القوى التى ناوأته أشد مناوأة وهو لم يكد يستقر في مهجره بعد ··

ان الاسلام في هذا الدور كان يقوم بأكثر من مهمة واحدة ، وكانت كل مهمة من مهامه تلك اكثر ثقلا من الاخرى ، فبينما هو موغل في سبيل دعوة الناس الى اعتناق عقيدته اذا به يتلبث قليلا ليحمى أتباعه الجدد من أن تزل بهم قدم بعد ثبوتها، وهو في كلتا الحالتين صامد كل الصمود أمام خصومه الذين كان كفاحهم للاسلام يشتد كلما أورق له عود وومض له شعاع ··

وفي الآيات التالية ايضاح للجو السياسى الذى كان يسود المدينة ، بحيث نستطيع ان نفهم منه بعض صور الصراع الخطير بين الاسلام وخصومه الالداء ذوي الخطط الماكرة اللئيمة ·· قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ، قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون· ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله ، واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم ، ان الله عليم بذات الصدور · ان تمسسكم حسنة تسؤهم وان تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وان تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط) ··

ومما نستطيع أن نفهمه من هذه السورة فيما يتصل بيهود المدينة أن فريقا من عقلائهم انصرف الى خاصة نفسه بما لمس من ثقل الاسلام في ميزان الخير والحكمة والفضيلة ، وبما رأى من دقة أحكامه وسداد وجهته ··وكان بعض هؤلاء قد أعلن اسلامه ·

ولا جرم أن الامم والشعوب على اختلاف دياناتها وتباين أهوائها لاتخلو من ذوى التعقل والاستبصار ، وفي هذا يقول الله تعالى مما نقرأه في سورة آل عمران : (من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) ··

وللقرآن الكريم في أحكامه على خصومه ضرب من أرقى ضروب العدل والانصاف لايمكن أن يرى له مثيل فيما قرأت الناس من كتب الاديان ·· وها نحن أولاء نقرأ في ذات السورة قوله تعالى مثلا على هذه الخصيصة التي تشير اليها (ومن أهل الكتاب من ان تأمنه بقنطار يؤده اليك ، ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك ، الا مادمت عليه قائما) ··

ومما كشفته آيات السورة من أسرار الصراع العقائدي بين القوم وبين الدين الحنيف ما نقرأه من قوله تعالى (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار ، واكفروا آخره) ..

وتناولت سورة آل عمران غير قليل من المبادىء الاخلاقية الرشيدة التي تناثرت في تضاعيف السورة ، وقد يكون ذلك من خصائص القرآن المجيد الثابتة له ، فهو يعرض للتوجيهات الخلقية حيث يشاء وحيث يريد .. ومن بعض ذلك ماجاء عن طريق رسم صورة واضحة للتقوى فقد جاء النص في وصف المؤمنين المتقين بالآية الكريمة (الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس) .

ومن روائع هذه التوصيات الخلقية النبيلة ما نقرأه في مخاطبة الله رسوله الكريم (فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الامر ..)

ومما نطلع به على المناحي الجدلية في سورة آل عمران وما يتبع ذلك من ضروب الأقيسة البارعة ، ما نقرأه في قوله تعالى (الذين قالوا ان الله عهد الينا أن لا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار ، قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم ان كنتم صادقين) ؟

ومن روائع هذه الاقيسة الجدلية قوله تعالى في الرد على أهل الكتاب فيما نسبوه من التأليه الى بعض أنبيائهم (ماكان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله ..)

ومن ذلك قوله تعالى في مخاطبة القوم تنديدا بالمنحى الذي نحوه في الجدل والمحاجة : (ها انتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم) ؟

ومن استعراض هذه الآيات في السورة نستطيع أن ندرك كيف كان جو المدينة يومذاك مشبعا بعجاج الجدل الذي كان يمهر به جماعة الكتابيين فكانت آيات القرآن تنزل لتدحض المزاعم وترد الامور الى أنصبتها وتقر في صدور المؤمنين ما أصابت من ايمان ..

والحجاج القرآني غير موقوف دائما على الكتابيين فقد ينال المسلمين أيضا ، حين يقتضى الأمر أن تعالج بعض مشاكلهم وأزماتهم النفسية والفكرية ومن النماذج على ذلك — مما نقرأه في سورة آل عمران — قوله تعالى في مخاطبة المؤمنين « أو لما اصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم » ومن ذلك أيضا « ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر انهم لن يضروا الله شيئا يريد الله أن لايجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم » ..

وجاءت الآيات في سورة آل عمران على وقعة « أحد » بشيء من التفصيل ، وكانت وقعة أحد قد وقعت في خواتيم أيام السنة الثالثة الهجرية وهي وقعة تعرض فيها الرسول الاعظم الى أذى كبير ، وكذلك

قتل فيها جمهرة من رجالات الاسلام ٠٠ وكان ذلك بسبب التراخي في تنفيذ أوامر الرسول التي أصدرها الى النبالة الموكول اليهم أمر حماية مؤخرة الجيش الاسلامي فأدى هذا التراخي والخلاف عن أمر رسول الله الى نكسة مروعة بعد أن كان النصر معقودا على لواء فئة المسلمين ٠٠

وقد جاء في هذا قوله تعالى « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم بأذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم في الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ٠٠ ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ٠٠ اذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فاثابكم غما بغم ، لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون » ٠٠

والبحث في بدر وأحد في هذه السورة يجمعهما جامع ملحوظ فقد كانتا حادثتين من أخطر الحوادث في تاريخ الدعوة الاسلامية من حيث ماأحرزته الاولى من نصر وما تركته الاخرى من أثر في نفوس المسلمين الذين اتخذوا منها درسا وعبرة ، فلم يمل أحد منهم فيما بعد الى مخالفة رسول الله في أمر يأمر به ، ولا خرج عن نطاق ايعاز الرسول وارشاده وتوجيهه في مواطن الحرب خاصة ٠٠

ومما نقرأه في سورة آل عمران من المبادىء الدينية الآية التي أعلنت انه لا سيادة لكافر على مسلم فقد جاء بذلك النص الكريم « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء الا أن تتقوا منهم تقاة ٠٠ »

وفي هذه السورة أعلنت قيمومية الاسلام وهيمنته على غيره من الديانات والنحل كافة ، وذلك معنى قوله تعالى « ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » على أن الشريعة أقرت أصحاب الديانات على دياناتهم وأعارت شعائرهم كل الاحترام والتكريم ، ولكنها أوضحت أن ذلك هو حالهم في الحياة الدنيا ، أما الذين لايفيئون الى الاسلام فان مسألتهم ستبحث بين يدي الله يوم القيامة ٠٠

ومن الموضوعات التي أشير اليها في سورة آل عمران ـ اشارة خفيفة ـ موضوع الحج حيث جاء فيه « ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا » وكذلك جاء ذلك التوبة ما يقبل منها وما لايقبل ٠٠ وكان موضوع الآجال والاعمار مما عرضت له بعض آيات السورة بأشارة خاطفة ومن ذلك قوله تعالى « كل نفس ذائقة الموت ، وانما توفون اجوركم يوم القيامة » ٠٠ ومن ذلك أيضا « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله »٠

ومما استعرض في سورة آل عمران من الاحكام والمسائل استعراضا خاطفا قضية الربا حيث قالت الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا لاتأكلوا الربا أضعافا مضاعفة ، واتقوا الله لعلكم تفلحون واتقوا النار التى أعدت للكافرين » ٠٠

ومسالة الربا كانت من أخطر المشاكل التي شكا منها الناس كثيرا ، وعلى الاخص الفئات الفقيرة المملقة ، ولكن السور القرآنية وفي طليعتهاسورة البقرة قد تعرضت لموضوع الربا بتفصيل وحرص عظيم ‥ ذلك لان الربا عملية تتجمع فيها أسوأ الخصال المناهضة للمروءة والتعاون الاجتماعي ·

واما تسمية السورة بسورة آل عمران فانما كان ذلك لسورود ذات الاسم في بعض مطاوي السورة ‥

كما أن مجموعة كبيرة من الآيات تحدثت عن مريم ابنة عمران وعن عيسى بن مريم بكثير من التجلة والاطراء ، ومن ذلك قوله تعالى « اذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » ولفظة الكلمة المطلقة على المسيح مما شاع استعماله في لغة العرب على عهد الجاهلية بما يعني الشخصية الحكيمة المتالهة وقد أطلقت يومذاك على بعض المتحنفين العرب ‥

ومن جميل أدب القرآن في خطاباته الموجهة الى الكتابيين ما نقرأه في النص التالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لانعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ‥

ومما تركز البحث حوله في هذه السورة موضوع ابراهيم عليه السلام وكونه السنخ الذى نبت عليه غرس الاسلام ، فقد جاء في هذا قوله تعالى « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا » وكنا قد قرأنا شيئا عن ابراهيم في سورة البقرة وما كان من أمر بنائه الكعبة‥ وفي آل عمران نقرأ وصف الكعبة بأنها مقام ابراهيم ‥

وموضوع ابراهيم وما وصف به الاسلام من كونه ملة ابراهيم ،وما وصف به ابراهيم ـ هو أيضا ـ من كونه حنيفاً مسلماً ، كل أولئك كان مما تنزل به القرآن في سوره المكية ، ولم يكن الحديث عن ذلك في السور المدنية جديد الطروق في أسماع الناس ، وانما تأخذ كل سورة من الموضوع جزءه الذى تقتضيه أسباب النزول وظروف الوقت وطبيعة الاحوال ‥

ومن كريم التوصيات في هذه السورة ما نقرأه من قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته أخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ‥ ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ‥ »

الصراع النفسي وكيف نعالجه

عبد الرضا اللامي

في العصر الذي نحياه صراع فكري محتدم ، وقد تحول هذا الصراع ، اذا ما قيس بالنسبة للافراد ، الى صراع نفسي مرهق نتيجة لضحالة الثقافة وقلة الألمام . وكثيراً ما يؤدي هذا الصراع بالجماعات المتصارعة الى التخبط ، فترشق الواحدة منها الاخرى مدفوعة بالانفعالات النفسية .. اثر شعورها بنقصها الثقافي في المجالات الجدلية .

وذلك بالنسبة لحياة الافراد في اطار المجتمع ، وهناك صراع نفسي يعانيه المربي ، ورب العائلة ، والتلميذ ، سواء في بوتقة العائلة أو مجتمع المدرسة ، واذا أردنا أن نوجه اي فرد توجيهاً نفسياً ، فلابد من أن نقف على أسباب تلك الظواهر النفسية التي يتميز بها سلوك الفرد ، سواء كان ذلك السلوك طبيعياً أم مكتسباً ، حيث أن كل سلوك يصدر عنا لا يصدر اعتباطاً ، بل أنه نتيجة عملية نفسية ، أو فكرة معينة تقوم في النفس ، وهي بمثابة الدافع أو المحرك لهذا السلوك ، ولابد من أن نقف على ماضي الفرد وحاضره ، لنعرف مسببات الحادثات التي مرت به وعقدت نفسيته ، وكل تلك المشاكل نتجت عن تفاعل الفرد مع بيئته ، وهي مرتبطة بعدة عوامل منها :

تكوين الفرد الفسيولوجي وحالته الصحية .. فنلاحظ ان صاحب الشكل غير المقبول والمصاب باحدى العاهات الجسمية يعاني قلقاً نفسياً ، فتراه اما منطوياً على نفسه منعزلا عن الآخرين ، واما تراه يسلك سلوكاً عدوانياً كونه يعاني شعوراً بالنقص ، لهذا فهو يحاول ان يتلافى هذا النقص بتخبط أهوج لعدم ادراكه السبل التي من شأنها أن تقوم نفسه وتصلحها لتعمل من أجل الخير « أنظر لوحات أحذر النشالين » .

ومن تلك العوامل أيضاً ، ميزة الفرد وسلوكه واتجاهه الشخصي .. فالاتجاه الذي يسير فيه ، والسلوك الذي يسلكه ، والميزة التي يمتاز بها عن غيره ، جاءت نتيجة لتفاعله مع البيئة ، وتأثيرها به عند تقيده بمتطلباتها .

وبنظرة تحليلية الى أول ادراك الفرد ، ايام كان يتلقى الاوامر

وينفذها ، تراه ـ متأثراً بسلوك المستهام بهم ، ومنهم والديه أو مدرسيه ، سائراً في نهجهم حتى أنه ليتكلف متصنعا مشية والده ، أو مقلداً لهجبة معلمه وحركاته ، ويبقى هكذا فحتى اذا ما داهمه الشطر الآخر من حياته وهو طور « المراهقة » بما في هذا الطور من سدور في الرأي وثورة على العرف ، وحيرة مقلقة ، بفعل الشجاعة الوقتية التي تنتابه في اثر نشوة من صنع جنون المراهقة ، وتأثير الكتب التجارية التي لا ترحم والمجلات الخليعة الماجنة ، والافلام التي تصرخ بالميوعة واثارة الشهوات ، ان في ذلك دافعاً لتطور عادات جديدة ، فيبدأ بالتبرم والانشقاق على عاداته الاولى فيسن له قواعد جديدة كنتيجة للثقافة التي حصل عليها في هذا الطور من عمره ٠

أن هذا التحول المفاجيء في حياة الفرد يضحي كالعصف ، يعصف به حتى تراه كما ترى طفلا يعمل على تعذيب نفسه من أجل ان يمرح وهو يحطم قنينة من زجاج ٠٠ وتراه حينا آخر كسولا منطويا على نفسه وكأنه شيخ هرم ٠

فهذا الصراع النفسي وهو أخطر مرحلة من مراحل الصراع التي تنتاب الفرد ، لابد من أن نقف على علاته لنستلهم من مغاليق الوجود الانساني التي فتقتها اللانسانية أفكار الخير والسعادة ، العلاج المريح ، ونضفي على هذا الطور برداً من الطمأنينة والرضا ٠ والعامل الثالث : ما ينتقيه الفرد من مثل عليا وقيم أخلاقية ٠٠ فكما أسلفنا عن كيفية اكتساب الفرد السلوك والميزة والاتجاه ، نقول في المثل والقيم ، فالأب تراه عندما ينصح طفله يرسم له صورة حية للمجتمع الفاضل ، ويشجعه على أن يكون هو الانسان المتفوق الذي سيحظى بالعيش بين أحضانه ، وينصح هذا الطفل أيضا معلمه ومن هم أكبر منه سنا ويعاقبونه ان اشتط على ارشادهم ويؤنبونه ان حاول ذلك ، لان في ذلك حسبما يصورونه له (الخطيئة) التي لا تغتفر ، فيمتثل الطفل الى كل تلك المقاييس ٠

ولكن هذا (البريء) نراه يصطدم حتى يكاد ان يتحطم وهو يرى (والده) الذي نهاه عن الخمر (سكير عربيد) و (أمه) التي نهته عن السب والشتم (ثرثارة في الكلام وكالعقرب المسمومة ان كانت في هدنة مع الغيبة والنميمة) و (معلمه) الذي درسه الاخلاق (زير نساء) ولهذا جاءت ، بل وخصت الحيرة المراهق ، فيتعثر في سلوكه وهو يرى ان الذي يلقنه المثل والقيم يهين ويسحق تلك المثل والقيم ولكنه له لمحاسب قاس ٠ اذن فنحن لسنا بحاجة الى النصح والارشاد والموعظة ، بقدر حاجتنا الى التطبيق العملي (أي القدوة) من جانب المربين والمعلمين ، نحن بحاجة الى أناس يفهمون معنى الخير والشر فيتنحون عن الاخير ويلتزمون الفضيلة ٠٠٠ فنجد السير خلفهم ، فما الكذب والغش والاعمال الرجيمة الاخرى الا نتيجة لصراع الكبت المنزلي أو المدرسي وحرية الشارع ٠

كيف لا يصبح هذا الفرد عرضة للصراع النفسي وهو يرى البناء يهدم الصرح الذي شيدته تانك اليدان بمعول الهدم .

ومن العوامل مالا حصر لها في هذا المجال ، أفلا ترى في تفكك روابط الاسرة خطرا يهدد في نفس الفرد ، فهذه الحياة التي تعقدت وعقدت معها سبل العيش ، وتلك الميول الفردية التي تنشأ عنها بين أفراد الاسرة الواحدة ، وكل منهم يرغب بأن يكون هو الدفة وهو الشراع فيضحى وكأنه وأسرته سفينة تكافح من أجل القضاء على زوبعة .

وترى رب العائلة وهو في عقليته التقليدية التي لا تقبل مبدأ التطور ، يصر على التمسك بماضي عهده ، متمثلا بسلطة (القوة) ... كيف لا يتصارعون وأنفسهم ، وسنة التطور الاجتماعي هي الاخرى تفرض نفسها عليهم شاؤا أم أبوا ، فيلزم الاب أبنه بالسير وفق نظم هو يشرعها له متجاهلا (ان الزمن لأبنه وليس له) اذن نتيجة تصادم قوانين المنزل الجامدة والحرية المنطلقة خارج نطاق المنزل ، هي ارباك حياة الفرد واساس مشكلاته .

واذا تطلعنا نحو النشاط المدرسي أو المهني ، فنرى ان مسؤلية المدرسة ليست قائمة على اساس تلقين الطلاب نأتج العمليات الاربع او معنى تشكيلة راقصة من الحروف فحسب ان مسؤليتها أخطر وأبعد من ذلك ، اذ على عاتق المعلم نمو الطالب الاخلاقي وتطوره الفكري ... وهذا يتطلب تعاونا وثيقا بين المدرسة والمنزل ، وما خطوة (مجالس الآباء والمعلمين)الا وثبة نحو النجاح ، فعلى اعصاب هذه المجالس ان تكون متوترة دائما لتتعرف كل يوم (انشودة اسعاد الطالب) .

ثم ان المناهج المدرسية يجب ان تعد أعداداً تربوياً لتتمشي وقدرة الطالب الاستيعابية ، ومن يظن بأن كثرة الواجبات التي يثقل بها الطالب وسيلة لردعه عن الشارع ، فهذا رأي ، على ما أظن بعيد عن الواقع ، حيث ان الطالب اليوم يفتقر الى مساعدة من جانب المعلم ، وهناك ظروف الطالب المنزلية وعدم ملائمتها للدرس والاستذكار والرهبة والخوف اللذين يتسلطان على نفسه خشية الرسوب في الامتحانات .

اما من الناحية المهنية فكثير منا من لم يكن له ميل خاص بالمهنة التي يمتهنها ، أو انه يراها دون طموحه واهدافه في الحياة ، وكثير منا من كانت تلك المهنة بغير رغبته حيث فرضت عليه من أهله اشباعا لغرورهم ولكنها تحطيم له .

وهناك شيء خطير هو الاخر نراه يهدد حياة الفرد ، ان لم يحسن الاختيار ، أو تعلم طريقة صالحة في التوغل بين الصفوف ألا وهي (التكيف الاجتماعي) :

فان ربط أواصر صداقة صادقة ، أو الاشتراك في نشاط ما من النشاطات الاجتماعية ، أو القيام بأي عمل لا ينجز الا ب (التعاون) يحتاج

الى حسن تدبير وذكاء ، اذ لابد للفرد ان يقتحم ويصطدم ، ويكبو وينهض ، ويغامر ويخاطر وهو وسط مجتمعه المتصارع من أجل الخير ، والشر ، اذ ليس كل أبناء أي مجتمع كان يسعون الى الخير وحده أو الشر وحده ، ومن جراء هذه السفرة (السعيدة) من يوم الميلاد ٠٠ حتى آخر احساس بالوجود ، رغم وعورة الطريق لابد للفرد من أن تثار له مشاكل ، ولما كان هدفنا تعيير وتشخيص الذين يتعرضون (للصراع النفسي) لابد لنا من التنويه أولا عن اسباب ذلك (الصراع) وسلوك الفرد ٠

فأما الاسباب فواضحة ، وهي ضحالة في المعرفة والادراك ، وقلة في التجربة والخبرات ، وزبدتها (الشعور بالنقص) ٠٠ والتخوف من الايغال في أي نشاط اجتماعي ، والحياء المفرط سواء مع أبناء جنسه أو الجنس الاخر ، والاختيار غير الطيب لقضاء أوقات الفراغ ، والسلوك العدواني ، وان شئت أن تتأكد من هذه الحقيقة فاسبر أغوار أقرب الناس اليك والا فأمامك نماذج بشرية لا تفيد ولا تستفيد ، بل أن ضررها لاخطر من خطر أي مكروب آخر ، (وليس علينا ردم هذا المستنقع حسب ما تقره الفلسفة النيتشية ، بل علينا ان ننقله من مقالعه وصبه في فرن صراعنا فتموت مكروبات الشر وتحيا وتتفتح براعم الخير فيه ، اذ ليس هو الجاني على نفسه) ٠

والآن وقد وقفنا على اسباب انهيار الفرد اجتماعيا ، لابد من أن نبحث له عن علاج ٠

لما كان هدفنا هو التوجيه النفسي علينا أن نعرف هذا التوجيه : فهو الارشاد النفسي كمساعدة الفرد على تفهم حقيقة نفسه ، وذلك بايجاد الطرق التي يسلكها لاثبات قدراته العملية والنظرية ، وتعليمه كيفية استغلال مواهبه التي تعود عليه ومجتمعه بالخير والفائدة ، اذ عندما يذيب المرء مصلحته مع مصالح الجمهور سينتفع منه الغير كما هو ينتفع ، وبهذا سنزرع في أعماقه (نكران الذات) ٠

والتوجيه النفسي الصحيح يجعل الفرد قادرا على الوصول الى قرارات حاسمة لحل مشكلاته وذلك عندما يصبح معتمدا على نفسه ، ويجعله قادرا على أن يتكيف مع الوسط الذي يعيش فيه ، أكان وسطا اجتماعيا أم صناعياً أم تربوياً ٠٠ الخ ٠

ولكننا نقر بأن الافراد يختلفون في أمزجتهم وقبولهم لأي أنواع المساعدة ، فمنهم من يقنع بالتوجيه الصحيح البسيط ، ويعتمد على نفسه في تمشية أموره الاخرى ، وتزويده بالمعلومات التي تسنده في حل مشكلاته ، بينما نرى نوعاً آخر لا يملك تلك الثقة في نفسه فيكون زمام أموره بيد شخص آخر ، هروباً من عبء نتائج المشاكل التي يتخبط بها ٠

وفي كلتا الحالتين كثير ما يعزى مرجع هذا الاتجاه الى تربية الفرد الاولى منذ طفولته (ولا تأخذ ايها القارىء بنظرية فرويد كلياً كمقياس

لهذه الحالات كونها متطرفة) والكيفية التي وجه بها الأب أبنه ، فهل تركه يعتمد على نفسه أم يعتمد عليه في مواجهة الامور وتحمل المسؤليات ٠

ولنكن على علم بأن التوجيه النفسي ليس معناه التسلط على أفكار الفرد وفرض ارادتنا عليه ، والتفكير نيابة عنه ، أو حمل التبعات بدلا عنه ، بل هو الارشاد والمساعدة شريطة ان يصل هو نفسه الى قرارات ، عند ذلك يتمكن من تكوين وجهة نظر حول موضوع ما ، وبهذا سيتدبر أمره ويتحمل تبعة أعماله ويحل مشكلاته ٠

والتوجيه يرغمنا على اتاحة الفرصة ، والمكان ، لكل فرد في المجتمع ، سواء في الميدان التربوي أو المهني أو الاجتماعي ، لنتمكن من كشف مواهب الفرد ومقدرته ومقارنتها بفرص الحياة المكفولة له ٠

وعلينا مساعدة الفرد بالبحث معه عن المكان اللائق به في المجتمع ليحيا حياة متزنة ويصبح قادراً هو الآخر على اسعاد ابناء مجتمعه ويعمل لاجلهم ٠

والتوجيه يكون من عدة جوانب فالحياة هذه الرحبة المجالات تتفتق فيها آفاق جديدة مع كل فجر جديد ، ولكن هناك ما هو كالاساس ، ومن تلك الاسس التوجيه التربوي والمهني والشخصي (أي الاجتماعي) ٠

فان تطرقنا من الناحية التربوية فوجب علينا أن نجعل الفرد قادرا على خوض الحياة في بيئته والتطور معها والانسجام فيها ، وبهذا سنستنعش فيه دوافع السعادة ٠

والفرد الذي نرغب بأن نضعه بالموضع اللائق في المجتمع ، ويلوحه التقدم الاجتماعي والاقتصادي ، لابد أن نربيه تربية صحيحة ونتيح له ان يعبيء عقله من الثقافة الفكرية المنطلقة ، وبهذا التوجيه يكون قد نشأ نشأة صحيحة وأخذت تتفتح في نفسه براعم الحب والخير والعدل ، وسار بنهج (الانسان المتفوق) وهو (التعاون دائما) ٠

ويرمي التوجيه التربوي الى أهداف ، يرصدها أولا للفرد ومن ثم يعمل على تحقيقها بالعمل الدائب والتطبيق العلمي ، فبالنسبة للطالب ٠٠ نجعله مؤهلا لان يتكيف مع البيئة المدرسية وذلك بأن نطلعه على أنظمة المدرسة ومناهجها ، والغريب حقا ان الطالب اليوم يدخل المدرسة ويعود يدرس فيها ، وهو لم يعلم عن نظم المدرسة الشيء الواقي ، حيث يطبق عليها المدراء ستاراً يرهب الطالب ٠

فعلينا اذن كمربين أن نشرح نظام المدرسة للطالب ليكون على بينة من الامر ، وعلينا ان نجعل الطالب يدرك قيمة استمراره في المدرسة لنكفل استمراره فيها ، وبهذا نكون قد جعلناه يعي ما يدرس فيشتهيه أكثر من أن يمقته ، ويتطلبه بنفسه اكثر مما ينفر منه بفعل فرض المادة الدراسية ، ونتيجة لكل ما تقدم يكون قد سلح نفسه لخوض المعركة العملية في المستقبل ٠

وعلينا ان نشجع خطوة (مجالس الآباء والمعلمين) اذ لابد من ابداع خطة منسقة مدروسة من أجل التعاون بين المنزل والمدرسة لصالح الطالب .

واما التوجيه المهني .. فيهدف أيضاً الى مساعدة الفرد في الكيفية التي ينسجم بها والبيئة المهنية التي يزاول عمله فيها ، وبهذا التوجيه نتمكن من تيسير عملية الاقتصاد الاجتماعي عن طريق الاستخدام الصحيح للقوى البشرية ، اذ كما قلنا سابقا بأن لكل فرد ميوله وقابلياته ، فاذا ما أدرك كنه ذاته أدرك كيف يستغل تلك المقدرات والقابليات ، واصبح قادرا على الانسجام في بيئته المهنية وذلك برضائه عن انتاجه ، عند هذا يشعر بأنه كفوء ويقدر نفسه تقديراً حسناً ، وسيستمر بلا كلل يعمل كمواطن صالح لأجل مجتمعه .

وبالتوجيه المهني نكون قادرين على معرفة الصفات والخواص الجسمية والعقلية التي يتميز بها الفرد والتي تضمن نجاحه في حياته العملية .

وبالتوجيه نستطيع أن نحدد للفرد الاهداف التي يرمي اليها بدلا من ان يكون متخبطا أهوج وبهذا نكون قد ربيناه فيه حب التدريب للعمل الصحيح ، ولأجل أن ينجح بمسعاه نراه يعمل على أن يتكيف مع الجماعة .

وأخيراً نستطيع بهذا التوجيه من تنظيم فراغ الفرد ونشعره بأن العمل الذي يزاوله في فراغه من تثقيف وأظهار للمواهب ما هو الا تكملة لعمله المهني .

وأخيرا التوجيه الشخصي (الاجتماعي) : وأغلب ما يكون هذا التوجيه توجيها نظرياً اكثر مما هو عملي .

ان أحوال الفرد الشخصية لها اكبر الأثر في حياته التربوية أو المهنية ، لذا فان التوجيه هذا ضروري له لضمان نجاحه في حياته العملية ، ويهدف هذا التوجيه الى تعريف الفرد بمسؤلياته الاجتماعية والوطنية ثم وضع قاعدة له يسير بموجبها ليتمكن من تحديد تلك المسؤليات .

ثم لابد من ايجاد اسس وطرق لحل المشكلات التي تلاقي الفرد وتلافي هفواته مع من يعيش معهم وبهذا التوجيه نتمكن من وضع هذه الطرق كذلك نتمكن من مساعدته على اكتشاف مقدرته الاجتماعية وميوله .

وختام القول يجب على المربين أن يتصفوا بالمرونة ليتمكنوا من ادراك غاياتهم وأن يسمحوا لانفسهم بالتفكير بالتخلي عن ابناء المجتمع لأن المربي والموجه هما اللذان سيسألان عن جهل المجتمع وكثرة الجرائم وتفشي الرذيلة ، فليس الافراد العاديون وان كانوا هم مقترفيها بالمسؤلين امام العدل الانساني ، فالمسؤل هو المثقف الذي يحجب الحقيقة عن أبناء مجتمعه .

« ونحن لا نريد الاخلاق حكماً ونصائح تجري على السنة الشعراء والحكماء ، أو آراء منشورة ، بل نريدها تطبيقا وعملا وقدوة » .

« الانساني هو من يخلــق شيئــاً جديــداً طيبــاً تحت الشمس الانسانية » .

أرض الفداء

عط عبدالله العطار

«أرض الفداء» ومربض النجب   الذائدين عن الحمى العربي
الثائرين وفي دمائهمو   نار الردى قدسية اللهب
من كل حر اصيد قرم   ذي نخوة بالمجد معتصب
لا يرهب الطاغي يهدده   بالسجن ، بالتعذيب ، بالعطب
حمل السلاح لاجل عزته   ان يمش فوق الارض تضطرب
فكأنه الاعصار منحدراً   نحو العدى كالسيل في صبب
العزم والايمان رائده   امضى من البتارة القضب

* * *

« أعمان » ان المجد موطنه   تاء ، ففدي المسير تقتربي
« أعمان » ان النصر منهجه   وعر المسالك شائك الشعب
هذا السلاح لديك منتقماً   مهج الشباب عتاده فثبي
وتقحمي دامي مسالكه   حتى تنالي عالي الرتب
يكفيك أن الانجليز عدوا   وقسوا على ابنائنا النجب
وتناهبوا الثروات منك وقد   تركوك نهب العسري والسغب
فلتثأري منهم لعزتنا   وترسمي خطوات كل أبي
وتذكري ثوراتنا وخذي   منها الذي يعنيك وانتخبي
ذي « ثورة العشرين » جذوتها   في القلب لم تهدأ ولم تغب
ستظل عبر الدهر شعلتها   في خاطر الاجيال والحقب

* * *

اخت الجزائر في الكفاح ثبي   وتفجري شعلا من اللهب
وتصفحي التاريخ عن كثب   لا تبحثي في باطن الكتب

هـذي ذرى الاوراس شاهدة ... بالتضحيات وان تسل تجب
ودم الجـزائر لم يزل ألقاً ... فوق الثرى كالنور كالذهب
لو لم يرق ابناؤها دمهم ... ويجاهدوا بالروح والنشب
لرأيتها لمـا تزل سلباً ... للاجنبي وايمـا سلب
والاجنبي لنـارنا حطب ... والفأس بين يديك فاحتطبي

* * *

يا ايها الدخلاء آن لكم ... ان تشتروا الارواح بالهرب
ولتسألوا الاحداث هل عرفت ... في من رأت اقوى من العرب
واستنطقوا الصحراء كم دفنت ... في جوفها من خائن ذنب
ستجيب ان العرب ليس لها ... صبر على ضيم ولا وصب
فلترحلوا عن ارضنا فلقد ... ضاقت بكم رغم المدى الرحب
ما عاد في ارض الفداء لكم ... شيء سوى الآلام والتعب
فجر العروبة في « عمان » بدا ... يزدان في اثوابه القشب

* * *

حييت يا يوماً به انتفضت ... شمماً « عمان » لطرد مغتصب
فاذا الجموع تمور هادرة ... تفدي الحمى بنجيعها السرب
تحدو بها الآمال هازئة ... بالموت ، لا تبغي سوى الحرب
جيش من الابطال ملتحم ... « ما ضم غير الفارس العربي »
ليحرر الوطن الابي فلا ... يبقي به شبراً لمستلب
حتى النساء بدت لهن يد ... تزدان بالرشاش لا الذهب
يشددن حول الخصر أحزمة ... فيها الدمار لكل ذي ريب
وعيونهن السود لامعة ... ببوارق الثارات والغضب

* * *

لا تهدئي يا نار ثورتنا ... بجنوبنا المحتل والتهبي
حتى نرى « عدنا » محررة ... « وعمان » لا تشكو من الكرب
ونرى الجبال الخضر شامخة ... تعلو ذراها راية العرب

الثورة في الشعر الجزائري

محمد الجديدي

لست مغاليا في شيء اذا قلت ان الشعر العربي في القرن العشرين قد سجل نصرا ما بعده نصر ، ذلك لانه أصبح شعرا جماهيريا ينافح عن قضاياها من أجل حياة أفضل وغد اسعد •

ومعنى هذا كله ان الشعر العربي انطلق من قمقمه الرطب واخذ يستنشق نسيمات الوجود الارحب بملء رئتيه وهو من ثم استطاع ان يتحسس آلام الاحياء بعمق فاكتسب من هؤلاء الاحياء طاقة دافعة ويظهر اثر ذلك واضحا في رفضه للقناعة والرضوخ لنير الواقع وعذاب المحيط وفي ثورته على بقايا الماضي تمكن من السير في درب النضال الطويل •

وان المتتبع لحركة التطور في الشعر العربي الجزائري يلمس لا محالة انه من هذا الصنف المشار اليه •

ذلك لان هذا الشعر قد قام بواجبه أحسن قيام في توعية الشعب المحروم حتى من حرية التعبير عن نبضات وخلجات نفسه وهو بالتالي مهد للثورة على الرغم من الاوضاع الشاذة السائدة آنذاك مع ما رافقها من انقسام داخل التكتلات السياسية أسفر عن انحراف نفر من قادة الاحزاب وطالبوا بادماج الجزائر ضمن الامبراطورية الفرنسية الا ان الشعر لم يترك هؤلاء يفعلون أو يقولون ما يريدون فعله أو قوله فتصدى لهم وبذلك قطع عليهم طريق العودة الى قيادة الجماهير من جديد •

فظهر في هذه الحقبة أكثر من شاعر عربي لحما ودما وقلبا ولسانا وعلى رأس هذه الاكثرية ثلاثة كان لهم الدور الاكبر في الهاب الشعور القومي والوطني معا ضد الاستعمار والبرجوازية الضالعة في ركابه •

فأولهم لا من حيث قوة الشاعرية وغزارة المادة بل من حيث التأثير الشاعر والمصلح الشيخ الاستاذ : عبدالحميد بن باديس وهو شاعر مقل وله اليد الطولى في نهضة الجزائر الحديثة • وقد اشتهر رحمه الله بقصيدته « شعب الجزائر » •

ولا اخال ان له غيرها من الشعر •

ومهما يكن من امر فان قصيدته هذه قد كشفت النقاب عن الشخصية الجزائرية في ظرف كادت تطمس فيه هذه الشخصية .

وفي الوقت نفسه رد على هؤلاء النفر من المنحرفين فقال :

شعب الجزائر مسلم … والى العروبة ينتسب
من قال : حاد عن اصله … أو قال : مات فقد كذب

وما دامت العبرة بالنوعية عد من شعراء الجزائر وهو – عندي – بالزعامة الاصلاحية أولى .

وكتب لهذه القصيدة ان تنتشر في طول البلاد وعرضها اذ وجد فيها الشعب التعبير الصادق عن تمسكه بعقيدته الدينية الاسلامية وبنسبه العربي الاصيل . فمن منا معاشر الجزائريين – قبل اعلان الثورة – لا يفور له دم أو لا يتحرك فيه ثأر في أغوار نفسه لحظة سماعه أو قراءته لهذه الابيات من القصيدة :

من كان يبغي ودنا … فله الكرامة والرحب
أو كان يبغي ذلنا … فله المهانة والحرب
يا نشء انت رجاؤنا … وبك الصباح قد اقترب
خذ للحياة سلاحها … وخض الخطوب ولا تهب

وينهي الشيخ الشاعر قصيدته بهذا البيت المفعم بالاحاسيس الزاخر بالروح الوطنية الخلاقة :

فاذا هلكت فصيحتي … تحيا الجزائر والعرب

اما سبب انتشار هذه القصيدة فقد يعود الى ما في لغتها من بساطة وهلهلة كذلك مما جعل كل الطبقات تفهمها بسهولة ويسر ، او لانها شقت طريقا جديدة لنفوس سئمت حياة الذل القاتل فراحت تتطلع الى شمس عربية ناصعة الجبين .

ولانها صادرة عن رجل عرف بالتقوى والورع وهي من ثم عانقت القلوب قبل الشفاه .

أما الشاعر الثاني فهو الاستاذ : محمد العيد آل خليفة الذي ملأ سماء الجزائر بآهات شعبه وانات امته العربية العظيمة .

ويعتبر شعره وثيقة تاريخية مهمة لكل باحث عن الحركات الوطنية الجزائرية وهو لم يترك كبيرة ولا صغيرة الا واحتلت هذه أو تلك مكانا مرموقا من شعره .

فعندما رأى المماطلة في السياسة الفرنسية وموقفها من قضية شعبه نبه شعبه الحر الى ما يحيط به من أخطار وخاطبه قائلا :

فقم يا ابن البلاد اليوم وانهض … بلا مهل فقد طال الرقود
وقل يا ابن البلاد لكل لص … تجلى الصبح وانتبه الرقود

فخض يا ابن الجزائر في المنايا تظللك البنود او اللحود
باخلاص واقدام وعلم يسود على البرية من يسود

وفي سنة ١٩٣٧ اجرت فرنسا انتخابات في الجزائر لادخال المنتخبين الى البرلمان الفرنسي وقد اطلق هؤلاء النواب على انفسهم ـ جبهة الشعب ـ فيصرخ في وجه هؤلاء المزيفين فيقول :

فيا جبهة الشعب أين الحقوق فان الرعاة لها يرقبون
وقولي لباريس ما في الشمال سوى امة لم تشأ ان تهون
وما في الجزائر الا نوائب يجزى بها الدهر كالمنجبون

وتمادت السلطات الاستعمارية في تجاهلها لحقوق الشعب الجزائري ونكلت بكل من يرفع صوته معارضا للسياسة الاستعمارية ٠

فيألم الشاعر من هذا ويرى ان لا خلاص من هذه الآلام وتلك المظالم الا بثورة عارمة تكون نتيجتها حرية كاملة وعلما يرفرف في سماء الجزائر حرا طليقا فيقول :

الشعب ضج من المظالم فانشدوا حرية تحميه واستقلالا
لا امن الا في ظلال مرفرف حر لنا عال يشير سبيلا

ويستمر الشاعر في ثورته فاذا به يلتفت الى أذناب الاستعمار الذين قبضوا ثمن خياناتهم وترفعوا عن مواطنيهم ويخاطب احدهم :

قف حيث شعبك مهما كان موقفه اولا فانك عضو منه منحسم
تقول اضحى شتيت الرأي منقسما وانت عنه شتيت الرأي منقسم
اعدى عدى القوم من يعزى لهم نسبا ويسمع القدح فيهم وهو يبتسم

وهو من المؤمنين بقوة الشعب وبصلابة ارادته الخلاقة حيث يقول :

واذا أراد الشعب نال مراده ولو انه كالنجم عز منالا

وللرجل شعر كثير كله يدعو الى الثورة والى الوحدة العربية اما شعره الذي قاله بعد قيام الثورة فانه لم يصلنا منه شيء يذكر ذلك لان الشاعر قد زج به في السجن منذ اليوم الاول للثورة وبعد اضراب قام به الشعب لاطلاق سراح شاعره استجابت السلطات الحاكمة فأطلقت سراحه وفرضت عليه الاقامة الجبرية طيلة سنى الكفاح التحريري ٠

اما ثالث الثلاثة فهو الاستاذ : محمد اللقاني الذي شرده الاستعمار مع نخبة ممتازة من أدباء الجزائر وشعرائها وهم الآن حملة القلم وقادة الفكر في بلاد قومي ٠

وهو شاعر مقل ملك عليه حب وطنه وعقله وقلبه ووجدانه كذلك فلم يتطرق الى أغراض الشعر المشهورة فغنى لوطنه وسخر من الذين ينظمون اشعارهم للتغزل بهند ودعد وليلي وما شاكلها من كل فاتنة وكاعب والحال

ان أوطانهم غارقة الى أذقانها في حمأة الرق والعبودية فيقول :

الا فدع التغزل في غـــوان فتلك طريقة المستهترينا
فمن صوت البلاد لنا نداء يكاد المـرء يسمعه انينا

وهو كسابقيه يمهد للثورة عن طريق مكافحة الامراض الاجتماعية من ذلك قوله :

بنى الجزائر هذا الموت يكفينـــا لقد اغلت جبال الجهل ايدينا
بنى الجزائر هذا اللهو اوقعنا في سود مهلـكة عمت نوادينا
بنى الجزائر استيقظوا فلـكم اذاقنا اللهو والاهمال تهوينـــا

ومرت السنون عجافا والشاعر الجزائري يقاوم على جبهتين ٠
فهو يدافع عن القضية السياسية من جهة ويناضل من أجل احلال الثقافة العربية شعورا منه بان اللغة العربية هي العمود الفقري لاي وحدة عربية مرتقبة من جهة أخرى ٠
الى أن قامت ثورة الخلاص الكبرى في غرة (نوفمبر) تشرين الثاني سنة ١٩٥٤ ٠
وقد اثرت هذه الثورة طيلة سنى وجودها في الشعر الجزائري
كما ان هذا الشعر هو الآخر ترك على صفحاتها أكثر من بصمة اصبع ٠
مع قليل من الايضاح أقول :
ان الثورة العربية قد اكسبت الشعر الجزائري طاقة ثورية هائلة احدثت انقلابا عميق الاغوار في مجرى الشعر ٠
فكان في هذه المرحلة شعر ثوري أصيل لا يقل روعة واصالة عن أي شعر ثوري آخر في أى منطقة من العالم قديمه وحديثه ٠
اذ قدر لهذا الشعر أن يكون أول من دعا الى الثورة من قبل أن تكون هناك ثورة فهيأ لها الظروف الموضوعية ٠
وهو من ثم لم يقف عند هذا الحد وكفى !
بل واصل مسيرته التاريخية النضالية فاحتضن ثورته منذ اللحظات الاولى لميلادها ووهب نفسه كلها لهذه الثورة العارمة ٠
فهجر ما تعارف عليه الشعراء منذ أجيال من أغراض شعرية ٠
وغنى للثورة والثوار وما يحيط بهما من معارك ضارية ومن بطولات خارقة ٠

وبقي يسير مع الثورة خطوة بخطوة في أشد ظروفها وأحلك لياليها دون ان تخور له قوى أو توهن له همة الى ان انتصرت هذه الثورة على أعدائها وأخذت تقيم نظاما جماهيريا تقدميا يستند في وجوده على أسس ثابتة من الصلابة والبذل ٠

وبطريقة أخرى فان كلا من الشعر والثورة قد اثر كل منهما في الآخر من حيث الجوهر مع اعترافنا بوجود اختلاف بسيط في الاطار الخارجي فظهر جيل جديد من الشعراء الشباب يحمل في أعماقه روحا ثورية خلاقة ونفسا شابة طموحة .

فأدى رسالته بأمانة واخلاص واسمع الارض ومن عليها همهمات الزخم الثوري الفوار .

وهو لا يقل روعة واشراقا وسلاسة عن الشعر الذي قيل ما قبل الثورة من حيث الشعور المتدفق الوثاب ومن حيث البساطة في التعبير .

الا ان شعر الشباب أقل صناعة وتعملا من شعر الشيوخ امثال محمد العيد آل خليفة ومفدي زكرياء واللقاني والطيب العقبي فكأن هؤلاء متأثرين بصياغة الرصافي والزهاوي في العراق وبروح حافظ وشوقي في مصر وبعمق مطران والزركلي في سوريا ومن ثم فان شعرهم يشبه الى حد كبير شعر من اتينا على ذكرهم اللحظة .

وبناء على هذا فان مفهوم الشعر عند الجيل الجديد يختلف عن مفهومه أو مدلوله عند اولئك .

فهو عندهم تعبير صادق عن واقع حياة الناس اليومية وانعكاس لما تحس به الانفس من أحاسيس ومشاعر مؤدى بلغة بسيطة يفهمها أكثر عدد ممكن من الناس وهو عندي على العموم شعر مهلهل اذا قيس بشعر السلف ولولا صدق تعبيره وحرارة أنفاسه وشدة نبضه لحسبته في عداد النثر المنظوم .

ومن ثم فاعتبرته شعرا حيا يزخر بعناصر الحياة لما فيه من المقومات الاساسية للوجود الشعري .

وليس بعيدا أن يكون مرد ذلك الى ما في الشباب من عجلة وتهافت على الشهرة ، أو لان حياتهم الثورية الجديدة تختلف عن حياة اولئك وهم من ثم لا يملكون الوقت اللازم للصناعة والتروي الضروري لخلق المادة الادبية فجاء شعرهم سهلا بسيطا – كما قدمت – لا صناعة فيه ولا تقليد أو مماطلة في اللفظ والمعنى كذلك . وآية ذلك ما نجده في شعر طائفة من الشعراء الشباب فمن ذلك قول صالح باويه :

دمدم الرعد وهزتنا الرياح ... حطموا الأغلال وامضوا للسلاح
حطموها واهتفوا ملء الاثير ... يا فرنسا اشهدي اليوم الاخير
اقسمت امي بقيدي : بجراحي ... سوف لا تمسح من عيني دموعي
أقسمت أن تغسل الجرح وتغدو ... شعلة تضرم احقاد الجموع
اقسمت ان تحمل المدفع مثلي ... ان ترش الدرب في السهل الخصيب

وكقول عبدالسلام حبيب من قصيدة « مصرع خائن » :

خذها ودمدم من مدم رصاص .
الويل لك ...
يا خائن الشعب الجريح
لن تستريح
حتى تموت سأقتلك
باسم الوطن
باسم الجراح الراعفة
باسم الجزائر والنضال
خذها رصاصة ثائر
حر الضمير جزائري

وكقول صاحب هذا البحث من ديوان « أغاني انعبيد » نقتطف هذه الابيات من قصيدة القيت في اجتماع عام :

ان كان هـذا اليوم يوم لقائنـا / فغـدا يكون لقـاؤنا بالوادي
وغــدا نعود مظفرين لبلـــدة / وغــدا اعانق تربتي وبلادي
وغـدا نعـود مـع المواكب واللوا / يهتز من فرط اللقاء والحـاد
والشعب يشـدو هازجـا مترنمـا / والام والابنـــاء في اسـعـاد
واليـك مني يا بـلادي تحيـة / مـلأ تحن الى لقـا الاتـداد

فالبساطة والهلهلة والتعبير السهل ميزات عامة يمتاز بها شعر الشباب الا انه لم يشذ عن هؤلاء جميعا الا شاعر واحد ذلك هو الشاعر الفحل الاستاذ صالح الخرفي فشعره لا يخلو من تعمل ومن مبالغة كذلك استمع اليه من قصيدة « تحية الجزائر » والتي ألقاها في مؤتمر الادباء العرب في الكويت سنة ١٩٥٩ حيث يقول :

من منبر الاوراس حتى المجمعـا / فالضـاد والرشاش قد نطقـا معـا
فانظر هنـا تجـد البطـولة منبرا / وترى البطولة في الجزائر مدفعـا
لم ترو غلتنـا المنابر فارتقيـ / ـنا للخطـابة اطلسـا متمنعـا
تلك الذرى كم زمجرت برصاصها / فأوت لنـا منـه الخطيب المصقعـا
قمـم موطـأة المتون لثـائر / روى صنـوبرها دمـا فتضـرعا

ومن مبالغاته التي لا تقبل اذ يقول :

ملأن الارض والاجواء حـديدا / فكان العزم اقوى من الحديد
فلسنا في الوغى جددا فتفنى / عزائمنـا اساطيـل الجنـود

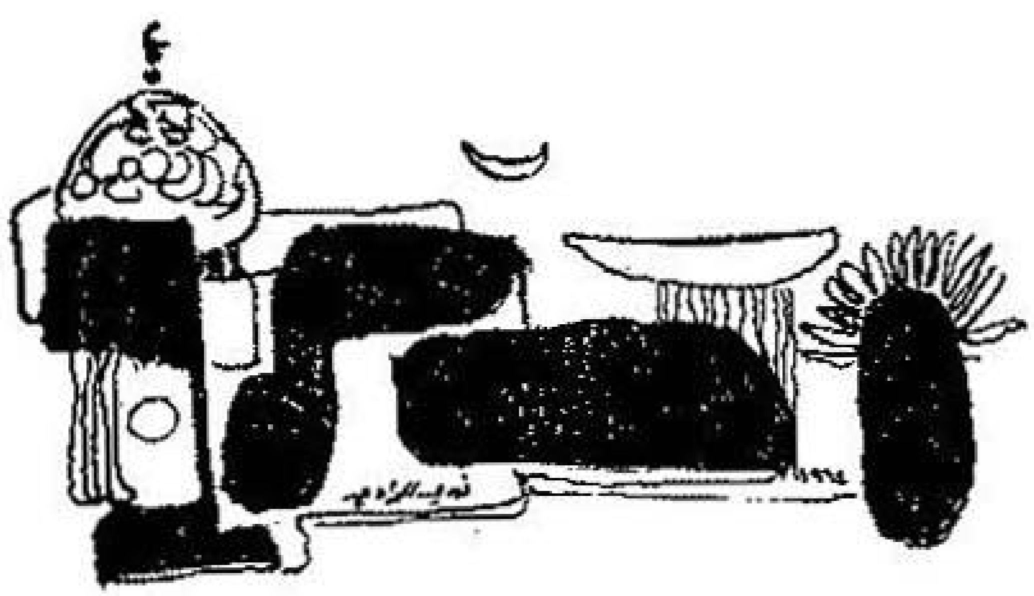
فالمبالغة والتعمل اذن ليست من مميزات أو من خصائص شعر ما بعد الثورة فأين هذه المبالغة وذاك التعمل من قول عبدالكريم العقون :

بني وطني اعيدوا مجد قوم   اقاموه عـلى اقـوى عمـاد
وأدوا ما عليكم من حقـوق   لشـعبكم وأدرأوا كـل عـاد
وفكـوا قيـده لا تتركـوه   يعاني كـل ظلـم واضطهاد

فهذا النموذج وما شابهه شعر ثوري أصيل عـلى ما يبدو فهو غير متعمل أو مصنوع كذلك نلمح فيه وضوح الثورة واشراقة الحرية وشعاع البطولة العربية ، وضياء الغد الباسم المرتقب ٠

ومهما يكن من امر فان الشعر الجزائري قديمه وحديثه واعني بذلك بمرحلتيه قبل الثورة وبعـدها ، يطفح بمعاني الثورة ويزخر بالتمـرد والعصيان في وجه جلاديه من المستعمرين ، الامر الذي جعل هذا الشعر يحتل مكانة مرموقة في سجل أدب العرب المعاصر ٠

وبعد فان هذه رؤوس أقلام آمل ان أعود الى الحديث عنـه مرات ومرات الى ان استوفي ما للموضوع من حق وواجب ٠



عكبرا مدينة العلم والادب
وموطن القصف والطرب

فصل مستل من كتاب مخطوط باسم
« نهر دجيل في التاريخ والادب » لكاتب المقال

موسى الموسوي

على طريق بغداد ـ سامراء تنبث عشرات الطلول والتلول والآثار لمدن وقرى مندثرة ، يكاد بعضها يأخذ برقاب بعض وتشير معالمها الباقية الى أروع صور التحضر الذي كان عليه سكان العراق في الازمان الماضية .

و (عكبرا) هذه التي نتحدث عنها مدينة معروفة مشهورة واخبارها ضافية في كتب البلدان والتواريخ والسير ، اخرجت عددا كبيراً من رجال العلم والادب والحكم في العهود الخوالي . كما اجتذبت مباهجها الفاتنة الكثيرين من طلاب اللهو والقصف والطرب ، فشاع ذكرها وذاع خبرها في اوساط المجان والخلعاء ووصفها شعراؤهم بما يحث اليها ركائبهم .

موقعها :

لاتزال اطلال (عكبرا) قائمة تعرف باسمها القديم ممتدة في جنوب شرقي بلدة (دجيل) الحالية . وتبدو على شكل تلول وركام من قطع الآجر والحجارة . وليس من السهل تحديد سعة هذه المدينة وامتدادها بتتبع تلك الآثار المتناثرة فان اتصال القرى ببعضها ـ يومذاك ـ يجعل من الصعب تمييزها عما جاورها وان أشار بعض الافاضل من الباحثين الى انها تمتد الى مسافة خمسة كيلو مترات على محاذاة الضفة الشرقية من مجرى دجلة القديم (الشطيطة) [1].

وكانت تقع بالنسبة للتقسيمات الجغرافية القديمة ضمن (طسوج بزرجسابور) والطسوج بوزن سبوح وقدوس لفظة فارسية تعني وحدة زراعية ، وقد قسموا سواد العراق على ستين طسوجاً واضافوا كل طسوج

الى اسم • وربما كانت عكبرا اكبر مدن هذا الطسوج ولذلك سمي باسمها القديم (بزرجسابور) كما سيأتي تفصيله • وهذا الطسوج كان يضم الاراضي والقرى الواقعة على الجانب الايسر من نهر دجلة في مجراه القديم ومن قرى هذا الجانب (العلث) وبلد والحظيرة وباخمشا وعكبرا وبصرى والبردان وبزوغى ، ومن القرى القريبة من عكبرا في الجانب نفسه : بوزى وتنبوك وجوزران والشلج وغمى وقرداباذ وكزكر وكركين وغيرها •

ويظهر اسم (عكبرا) في معظم الخوارط العربية التي رسمها الجغرافيون القدماء كصورة العراق للبلخي (٣٢٢هـ) وصورة الجزيرة للاصطخري (٣٤٠هـ) وصورة العراق له ايضا وصورة الجزيرة لابن حوقل (٣٦٧هـ) وصورة العراق له ، وكذلك صورة العراق للمقدسي (٣٧٥هـ) وخارطة العراق للجيهاني من جغرافيي القرن الرابع الهجري وخارطة العراق والجزيرة العربية للشريف الادريسي (٥٦٠هـ) وصورة العراق لابن سعيد المغربي (٦١٠هـ) وصورة الجزيرة له ايضا • (العراق في الخوارط القديمة للدكتور أحمد سوسه) •

وقد حدد المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم) موقعها من بغداد فقال : وتأخذ من بغداد الى البردان بريدين ثم الى عكبرا مرحلة ثم الى باحمشا نصف مرحلة ثم الى القادسية مرحلة) •

وكان ياقوت الحموي(*) قد وقع في وهم عظيم عند تحديده موقعها فقد اشار الى انها من نواحي دجيل اي في الجهة الغربية من دجلة فقد قال عنها « بليدة من نواحي دجيل قرب صريفين واوانا بينها وبين بغداد عشرة فراسخ » ومعلوم للمتتبعين ان صريفين وأوانا كانتا في الجانب الغربي من مجرى دجلة القديم • ثم ان الحموي اكد مقالته تلك في مكان آخر من معجمه فقال عند ذكر العراق : وأكثر بلاده عرضا من خط الاستواء عكبرا على غربي دجلة ، وعرضها ثلاثة وثلاثون جزءا وثلاثون دقيقة وذلك آخر ما يقع في الاقليم الثالث من العراق • ومن بعد عكبرا يدخل العراق كله في الاقليم الثالث الى حلوان •

ولكن صفي الدين ابن عبدالحق صحح ذلك فقال « كانت عكبرا من الجانب الشرقي على شاطىء دجلة ، فلما استحالت دجلة الى جهة الشرق صارت دجلة تحتها تسمى (الشطيطة) وأوانا تقابلها من غربي الشطيطة •

(*) نعتقد ان ياقوت الحموي لم يقع في وهم اذ ان دجلة غير مجراه عدة مرات ، فصارت عكبرا التي كانت واقعة على الضفة الشرقية واقعة الى الغرب من النهر وتابعة الى نواحي الدجيل • فالذي ذكره ياقوت صحيح ، لانه وضع كتابه (معجم البلدان) في مستهل القرن السابع للهجرة في الوقت الذي قام فيه الخليفة المستنصر بالله بحفر القناة وبناء جسر حربي على احدها ، لايصال الماء الى المناطق التي ابتعد عنها دجلة في تغيير مجراه الى الشرق • ويذكر لنا المسعودي قبل ياقوت بنحو ثلاثة قرون ان دجلة لم يكن ثابت المجرى •

الاقلام »

ويبدو أن وقوع أوانا على الجانب المقابل لعكبرا اوحى الى (فليكس جونس) ان النهر كان يشطر عكبرا شطرين ٠

اسمها وزمن انشائها :

كان اسمها في زمن الفرس (بوزورك شابور) فعرب على (بزرج سابور) ومعناه (سابور الكبير) قال حمزة الاصبهاني « بزرجسابور .. وهي المسماة بالسريانية عكبرا » فعكبرا اسم سرياني قيل انه من (عقبرا) ومعناه الفار والجرذ لعلها سميت بذلك لوفرة هذه الحيوانات في تلك البقعة ٠ ولعل من العسير تحديد زمن انشائها فهو قديم قدم اسمها ٠ وهناك من يرى انها منسوبة الى (يهوياكين ملك يهوذا) وهو من اواخر ملوك يهوذا في حدود سنة ٥٩٧ قبل الميلاد وهو ما صرح به الرحالة بنيامين التطيلي الاندلسي في رحلته التي وصف فيها بعض مدن العراق في زيارته له بين سنة ٥٦١ و ٥٦٩هـ وقد اضاف الى زعمه هذا قوله أن في عكبرا عشرة الاف يهودي ومن اعيانهم الربيان يوشع وناثان) وهناك من يرى أن عكبرا منسوبة الى عكبر الكردي وهو راي اورده الأمين في الاعيان في ترجمة اسكندر بن دربيس بن عكبر الكردي (٦ : ٢٠٤) ٠

وقد جاء ذكر عكبرا في أخبار فتوح المسلمين للعراق ، حين وجه القائد خالد بن الوليد وهو بعين التمر النسير بن ديسم الى هذه النواحي ، فأتى عكبرا فامن اهلها وأخرجوا لمن معه طعاماً وعلفاً ٠

وقد ورد اسم عكبرا ممدوداً ومقصوراً ٠ قال البحتري يمازح بشراً (ولعله بشر بن الفرج تاجر الخمور الذي ذكره البحتري غير مرة :

ولما نزلنا عكبراء ولم يكن	نبيذ ولا كانت حلالا لنا الخمر
دعونا لها بشراً ورب عظيمة	دعونا لها بشراً فاصرخنا بشر

وذكرها مهيار الديلمي في شعره عدة مرات فمن ذلك قوله :

يا فرحة يوم أرى رايتكم	تلاوذ الريح ، تؤم العسكرا
ونشر ايديكم واعراضكم	بالزاب يلقاني وشاطى عكبرا

وقريء ــ كما قال الحموي ــ على سارية بجامعها :

لله درك يا مدينة عكبرا	أيا (؟) خيار مدينة فوق الثرى
ان كنت لا ام القرى فلقد ارى	اهليك أرباب السماحة والقرى

صفتها وبعض اخبارها وخرابها :

عرفت (عكبرا) ببساتينها الغناء ومروجها الخضراء وفواكهها الجيدة وامتازت بكرومها واعنابها ٠ قال المقدسي (وفي وجه سامراء مدينة عكبرا وهي كبيرة عامرة كثيرة الفاكهة جيدة الاعناب سرية) وكان الشراب العكبري من

مشهور الشراب وفي قصة الوزير المهلبي وندمائه القضاة اشارة الى ذلك ٠ وقد قيل عنها انها كانت « مجمعاً للخلعاء ومأوى لاهل الانس والقصف فكان يقصدها الناس من بغداد ، وقد أصبحت بعد انتقال العاصمة الى سامراء من المدن الرئيسة على طريق البريد العام بين بغداد وسامراء » ٠

ومما أزاد في مباهجها ومحاسنها كون (دير الخوات) فيها ٠ والخوات كما قال الاستاذ كوركيس عواد محرفة عن الاخوات جمع الاخت ويراد بها الراهبة ٠ وقد ذكره الشابشتي فقال « هذا الدير بعكبرا ، وهو دير كبير عامر يسكنه نساء مترهبات متبتلات فيه ، وهو وسط البساتين والكروم ، حسن الموقع ، نزه الموضع ، وعيده الاحد الاول من الصوم (يريد به الصوم الكبير عند النصارى) يجتمع اليه كل من يقرب منه من النصارى والمسلمين، فيعيد هؤلاء ، ويتنزه هؤلاء وفي هذا العيد ليلة الماشوشي، وهي ليلة تختلط (فيها) النساء بالرجال فلا يرد احد يده عن شيء ، ولا يرد احد احداً عن شيء ٠ وهو من معادن الشراب ومنازل القصف ومواطن اللهو » ٠ وللناجم ابي عثمان (المتوفى سنة ٣١٤ هـ) فيه :

آح قلبي من الصبابة آح	من جوار مزينات ملاح
وفتاة كانها غصن بان	ذات وجه كمثل نور الصباح
اهل دير الخوات بالله ربي	هل على عاشق قضى من جناح

* * *

وكان هناك نهر متصل بعكبرا اسمه نهر (زاور) ذكره ابن عبدالحق في المراصد واشار الى وجود قرية عنده تسمى (زاور) ٠ وفي مدينة (بلد) الآن مقاطعة زراعية على نهر يسمى (نهر الزور) وتدعى المقاطعة باسمه ولاشك في وجود علاقة بينهما ٠

اما (تل عكبرا) فيظن انه محلة من محلاتها والنسبة اليه (تلعكبري) ويعرف عدد من العلماء والمحدثين بهذه النسبة كابي الحسين محمد بن هارون بن موسى التلعكبري الذي كان النجاشي صاحب الرجال يروي عنه عن ابيه ٠

ويظهر ان خرابا الم بعكبرا من جراء العسف وثقل الخراج ايام البويهيين فقال فيها الشاعر عبدالصمد بن بابك ابياتاً تصور ضعف الدولة وطغيان الترك وتغلب الديلم عليها واولها :

صكوا على مال عكبرا صكوا	فليس في اليأس منكم شك

ومنها

فاستدركوا رايكم ورايتكم	فما لكم هيبة ولا ملك
قد طمع الجند في دياركم	والديلم المقطعون والترك
وانتشر الأمر والفساد كما	اسلم نظم القلادة السلك

واقفـرت (عكبـــرا) ودمنتهـــا   فاستوقفوا الركب عندهـــا وابكوا
ومـا لكم غـير عصـر اعينكـم   وحكهـــا ان شـــفاكم الحك

اورد ذلك العلامة الشبيبي في كتابه (مؤرخ العراق ابن الفوطي ج ٢ ص ٢٧٣) وقد كانت تلك الحوادث التي توجع لها هذا الشاعر بداية النهاية لهذه المدينة القديمة فان دجلة حولت مجراها الى الشرق في اواخر القرن السادس الهجري ، مما جعل هذه المجموعة الكبيرة من المدن والقرى تعاني من الجفاف حتى خربت الواحدة بعد الاخرى ٠

قال صفي الدين بعد ذكره تحول دجلة عن عكبرا (وخربت وانتقل اهلها الى أوانا وغيرها وصار ما في شرقيها الى دجلة من عمل دجيل ، ويسمى الان (المستنصري) لان الامام المستنصر رحمه الله استخرج لها نهراً يسقيه من دجيل ووقفه على آدر المضيف التي انشأها في محال بغداد لفطور الفقراء في شهر رمضان) ٠

من انتسب الى عكبرا من الافاضل :

وينتسب الى عكبرا قوم من اهل العلم والحديث منهم :

● ابو عبدالله محمد بن النعمان العكبري البغدادي الملقب بالشيخ المفيد وكان من اجل المشايخ وأكابر العلماء ، عدوا له قريبا من مئتي مصنف في الفقه والكلام والرواية منها الرسالة المقنعة والايضاح والافصاح والارشاد والامالي والفصول المختارة من العيون والمحاسن واجوبة المسائل العكبرية٠ وكان حسن الخاطر دقيق الفطنة حاضر الجواب ٠ ولد في الحادي عشر من ذي القعدة سنة (٣٣٦) وانحدر من عكبرا الى بغداد مع ابيه وهو صبي ، واشتغل بالقراءة على الشيخ ابي عبدالله المعروف بـ (جعل) ثم على ابي ياسر، واخذ الحديث عن ابي القاسم بن قولويه القمي وعن الشيخ الصدوق القمي وابي غالب الزراري وابي عبدالله الصميري واحمد بن العباس النجاشي وغيرهم من اكابر رجال الحديث والفقه ٠ وعنه اخذ العلم عدد من الجهابذة كالشيخ الطوسي والسيدين المرتضى والرضي والشيخ ابي الفتح الكراجكي وغيرهم ٠ وتوفي ليلة الجمعة لثلاث خلون من شهر رمضان سنة (٤١٣هـ) وصلى عليه السيد المرتضى علم الهدى بميدان الاشنان وقد ضاق بالنـاس مع كبره ، فقد قيل ان يوم وفاته كان يوما لم ير اعظم منه ودفن في داره سنين ، ثم نقل الى مقابر قريش ودفن في مشهد الكاظمين الى جانب قبـــر الشيخ الصدوق ٠ وقبرهما الان معروف هناك يزار ، وعليه شباك من نحاس بديع الصنع ٠ ورثاه جمهرة من الشعراء كعبد المحسن الصـــورى والشريف المرتضى ومهيار الديلمي وغيرهم ٠

● وممن نسب الى عكبرا : على بن نصر بن سعد بن محمد الكـاتب ٠ ترجم له ياقوت وغيره وقالوا انه ولد بعكبرا ونشأ بها ثم انحدر بعـد ان

بلغ الى بغداد ، وقرأ الادب والنحو على ابن برهان النحوي ثم انحدر الى البصرة وصار كاتبا لنقيب الطالبيين بها • واقام هناك مدة ثم رجع الى بغداد في سنة تسع واربعين (واربعمائة) واقام بالكرخ وولي الكتابة لنقيب الطالبيين الى ان مات ، وكان من اهل الادب والفضل ، مولده في محرم سنة ثمان وعشرين واربعمائة وتوفي في جمادى الاخرة سنة ثماني عشرة وخمسمائة •

● ومنهم ابو نصر علي بن هبة الله بن علي المعروف بابن ماكولا • كان ابوه وزير جلال الدولة بن بويه وعمه ابو عبدالله الحسين بن جعفر قاضي القضاة ببغداد وكان يلقب بالامير لانه من بيت الوزارة والقضاء والرئاسة القديمة ، وكان عارفا لبيبا عالما ترشح للحفظ ، حتى كان يقال له الخطيب الثاني •

وكان مولده بعكبرا في شعبان من سنة (٤٢٢) وقتل بالاهواز من نواحي خوزستان في سنة (٤٧٥) وقيل في مولده ومقتله غير ذلك • ترجم له ياقوت في معجم الادباء ترجمة ضافية وذكر له من مستحسن شعره في التجنيس قوله :

ولما تفرقنا تباكت قلوبنا ... فممسك دمع عند ذاك كساكبه
فيا نفسي الحرى البسي ثوب حسرة ... فراق الذي تهوينه قد كساك به

وقوله :

فؤاد ما يفيق من التصابي ... أطاع غرامه وعصى النواهي
وقالوا لو تصبر كان يسلو ... وهل صبر يساعد والنوى هي

وقوله :

اليس وقوفنا بديار هند ... وقد رحل القطين من الدواهي
وهند قد غدت داء لقلبي ... اذا صدت ولكن الدوا هي

وقوله :

وهيج أشواقي وما كنت ساليا ... بيبرين برق من ذرى الغور أومضا
ذكرت به عيش التصابي وطيبه ... ولست بناسيه وان عاد أو مضى

وكان مولعا بالجناس كما يبدو ، وقد صنف كتاب المختلف والمؤتلف جمع فيه بين كتب الدارقطني وعبدالغني والخطيب وزاد عليهم زيادات كثيرة • وله كتاب الوزراء وغير ذلك وترجمته في وفيات الاعيان (٣٦٢:١) وفوات الوفيات (١٨٥:٢) والمنتظم والحميدي ودائرة معارف وجدي (٤١٣:٨) وتذكرة الحفاظ (٢:٤) وغيرها •

● وممن نسب الى عكبرا :

عبدالواحد بن علي بن اسحاق بن ابراهيم بن برهان ابو القاسم

الاسدى العكبرى النحوى ، صاحب العربية واللغة والتواريخ وايـــام العرب ٠

قرأ على عبدالسلام البصري وكان أول امره منجما فصار نحويا وكان حنبليا فصار حنفيا وكانت فيه شراسة على من يقرأ عليه ٠ ولم يكن يلبس سراويل ولا على رأسه غطاء وتوفي في جمادى الاولى سنة (٤٥٦) ببغداد ٠٠ وكان قد سمع من ابن بطة كثيرا وصحبه وكان اذا ذكر المتنبي يعظمه ،وكان يخرج من داره وقد اجتمع على بابه من اولاد الرؤساء جماعة فيمشى وهـم معه ، ويلقى على ذا مسألة وعلى ذا مسألة ٠ وكان يتكبر على اولاد الاغنياء، واذا رأى الطالب غريبا أقبل عليه ٠

ولما ورد الوزير عميد الملك الكندرى الى بغداد استحضر ابن برهان، واعجبه كلامه وامر له بمال فأبى ان يقبله ، فأعطاه مصحفا بخط ابـن البواب ، وعكازا مليحة حملت اليه من بلاد الروم ، فأخذهما وعبر الى منزله فدخل عليه ابو علي بن الوليد المتكلم ، فأخبره بالحال فقال له : انت تحفظ القرآن وبيدك عصا تتوكأ عليها ٠ فلم تأخذ شيئا فيه شبهة ؟ فنهض ابن برهان ودخل على قاضي القضاة ابي عبدالله ابن الدامغاني وقال له : لقـد كدت اهلك لولا نبهني ابو علي ابن الوليد وهو اصغر مني سنا ، واريـد ان تعيد هذه العكازة وهذا المصحف على عميد الملك ، فما يصحبـاني ، فأخذهما واعادهما اليه ٠ واخباره طريفة كثيرة ٠ ومن شعره :

احبتنـــا بأبي انتمـــوا ... وسقيا لكم اينمـا كنتمو
اطلتم عـــذابي بأبعادكـم ... وقلتم نزور فمـا زرتمو
فان لم تجودوا عـلى عبدكم ... فان المعزى بـه انتــمو

له ترجمة في الوافي للصفدى وفوات الوفيات (٤١:٢) وشـذرات الذهب (٢٩٧:٣) وبغية الوعاة (٣١٧) والنجوم الزاهرة (٧٥:٥) وترجم له الدكتور مصطفى جواد ترجمة مسهبة في بحثه عن الضائع من معجـم الادباء في مجلة المجمع العلمي العراقي ص ١٦٨ مجلد ٩ ٠

● وممن ينسب الى عكبرا : ابو العز أحمد بن عبيد الله بن محمـد السلمي المعروف بابن كادش العكبرى ٠ المحدث المشهور المتوفي سـنة (٥٢٦) ٠ له ترجمة في كثير من كتب التاريخ والحديث ٠

● ومنهم ابو الحسن محمد بن احمد بن محمد بن عبدالجبار بن توبة الاسدى العكبرى ٠ ولد سنة (٤٥٥) وقرأ القرآن بالروايات وسمع الحديث وتفقه في مذهب الامام الشافعي على ابي اسحاق الشيرازي وسمع كتـاب (القراء السبعة) لابن مجاهد على أبي محمد الصريفيني ، والحديث من أبي بكر الخطيب وغيره ، وكان حسن التلاوة للقرآن ، ذا سمت ووقـار ، ووصفه السمعاني بالصلاح ٠ توفي سنة (٥٣٥) ٠ (تعليقات الدكتـور مصطفى جواد على تكملة اكمال الاكمال ص٩) ٠

● ومنهم ايضا : محمد بن عثمان بن عبدالله العكبرى ، ابو عبدالله الواعظ المتوفي في جمادى الاولى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ٠ له ترجمة في التكملة وتاريخ الاسلام والمختصر للذهبي ٠

● ومنهم : محب الدين ابو البقاء عبدالله بن الحسين العكبرى الحنبلي، الفقيه المحدث النحوى المشهور ٠ قال ابن الفوطي (نقلا عن ياقوت) ٠٠ (كان امام مسجد ابن حمدى بالريحانيين ، ومتقدم الاقراء به ٠ وكان ورعا صالحا متقللا حسن الاخلاق ، قليل الكلام فيما لا يجدى نفعا ، لم يخرج من رأسه كلمة فيما علمت (القول لياقوت) الا في علم وما لابد منه من مصالح نفسه ، وكان رحمه الله رقيق القلب تفرد في عصره بعلم العربية والفرائض ٠ سمع من ابن الخشاب وحضر مجلس الوزير عون الدين بن هبيره في القراءة والسماع وله تصانيف كثيرة ٠٠) وقال ابن الدبيثي (وكان جماعة لفنون من العلم والنحو واللغة العربية ، وشرح المقامات الحريرية ، وشعر ابي الطيب المتنبي وغير ذلك ٠ سمعنا منه ونعم الشيخ كان ٠٠٠ ثم قال : سألت الشيخ ابا البقاء عن مولده فقال : ولدت سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، وتوفي ليلة الاحد ثامن ربيع الاخر سنة ست عشرة وستمائة ، ودفن يوم الاحد بباب حرب (رح) ٠

وقد ذكر له الصلاح الصفدى عددا كبيرا من مصنفاته في علوم القرآن والحديث والفقه والنحو واللغة والشعر وغيرها ٠ ونقل الذهبي في ترجمة ابي البقاء عن ابن النجار قوله : قرأت عليه كثيرا من مصنفاته ، وصحبته مدة طويلة ، وكان ثقة متدينا حسن الاخلاق متواضعا ٠ ذكر لي انه اضر في صباه بالجدرى ٠٠ الخ ٠٠

وقال الدكتور مصطفى جواد وكان قد كتب ترجمة وافية لابي البقاء ضمن مقالته النفيسة عن التراجم الضائعة من معجم الادباء للحموى :وقد طبع من تآليف ابى البقاء العكبرى (التبيان في اعراب القرآن) ونسب اليه شرح لديوان المتنبي ٠ نسبه اليه بعض الادباء جهلا او عمدا ٠ وهو لعفيف الدين علي بن عدلان الموصلي الاديب النحوى المتوفي سنة (٦٦٦هـ) كما جاء في آخر الشرح ، وكما دلت عليه عدة أدلة ، اقل مافيها انها تنفى نفيا قاطعا انيكون ذلك الشرح لمحب الدين العكبرى ٠٠٠ والظاهر لنا ان الذى عزا هذا الشرح الفذ الى العكبرى كان قد رأى نسخة غفلا من أسم المؤلف فاراد ان يرفع قيمتها فنسبها الى هذا العالم الفاضل ، ونستدل على ذلك بوجود نسخة من الشرح غفل أيضا من اسم المؤلف محفوظة بدارالكتب الوطنية بباريس وارقامها (٣١٠٥) ٠

● وممن نسب الى عكبرا ابو الفرج أحمد بن محمد بن جورى العكبرى، ذكر الخطيب انه نزل بغداد وحدث بها عن جماعة ذكرهم ٠

هذا والمعروف ان (آل ياسين) الاسرة العلمية الكريمة في الكاظمية كانت من الاسر التي هجرت عكبرا واستوطنت الكاظمية ٠

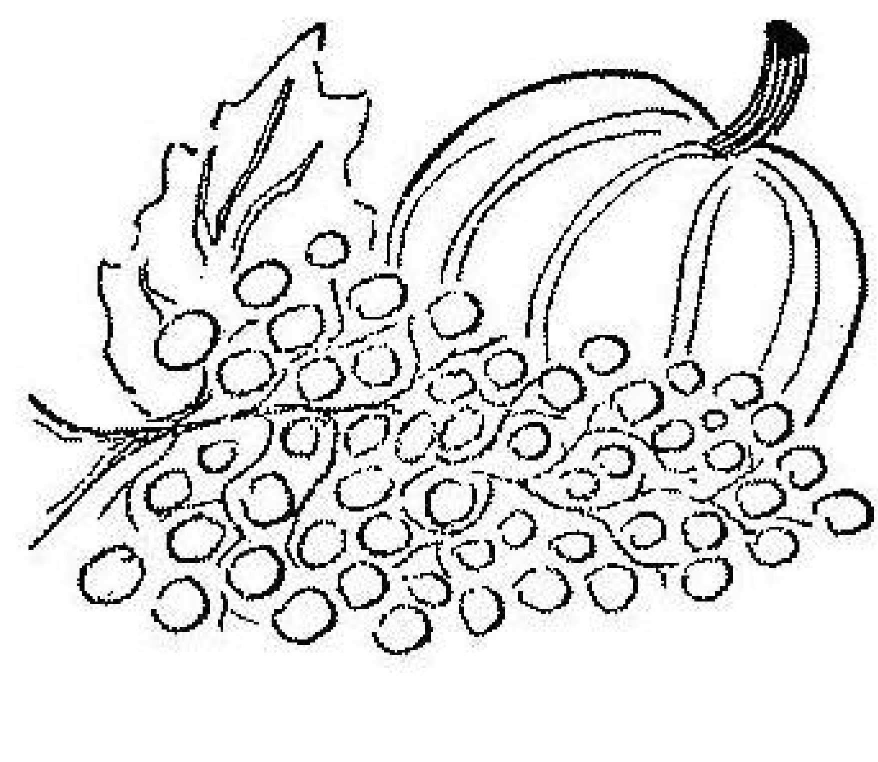
مصادر البحث

احسن التقاسيم للمقدسي
اعيان الشيعة للأمين
تاريخ بغداد للخطيب
تقويم البلدان لابي الفدا
الديارات للشابشتي
تكملة اكمال الاكمال لابن الصابوني

ديوان البحتري
ديوان مهيار
رحلة بنيامين التطيلي
ري سامراء للدكتور أحمد سوسه

العراق في الخوارط القديمة له

فتوح البلدان للبلاذري
فوات الوفيات لابن شاكر
الكنى والالقاب للقمي
مجلة سومر
مجلة المجمع العلمي العراقي
المختصر من تاريخ ابن الدبيثي للذهبي
مراصد الاطلاع لابن عبدالحق
معجم الادباء لياقوت الحموي
معجم البلدان له
مؤرخ العراق ابن الفوطي للعلامة الشبيبي
الوافي بالوفيات للصفدي
وفيات الاعيان لابن خلكان



زاوية علمية

الأنيماثولوجيا

علم الحياة الموهوبة

ترجمة

عبد الوهاب الأمين

سر الموت المغلق :

ظل الانسان واقفا وقفة العاجز أمام ما نسميه بالموت منذ البداية • فهو بالنسبة للعلم سر مغلق كسر الحياة ، لم يجرأ على البحث في كيفية تفاديه أحد من قبل ، الا اذا أخذنا مأخذ الجد ما كان يسعى بعض السحرة أو المأخوذين بالغيبيات الى تحقيقه عن طريق ابتكار دواء يعطي الحياة ، ويسمى بالاكسير .

فالواقع أن الموت حالة انسانية موجودة مع الحياة جنبا لجنب • والتأويل العلمي لحالة الموت معروف بأنه استهلاك في الجسم أو توقف بعض الاجهزة فيه ـ كالقلب مثلا ـ عن العمل لاسباب تتصل بالامراض المعروفة أو تسببها الشيخوخة •

أما دراسة موضوع الموت دراسة مجهرية وسريرية لغرض ابتكار مضاد له أسوة بالامراض التي تجري دراستها بشكل روتيني ، فهو أمر بدأ حديثا ، وتعثر منذ بدايته لأكثر من سبب واحد •

غير انه يبدو الآن ان السعي قد تجدد لدراسة الشيخوخة سريريا وعلميا لغرض تفادي الموت او اطالة الحياة في كل من امريكا وروسيا • وهناك من يقول ان هذه الدراسات تجد طريقها الواضح ـ وان كان غير معبد في الوقت الحاضر ـ ولكن التفاؤل يسود جهود العلماء الباحثين ، ومنهم من يقول ان هناك تقدما ملحوظا يبشر بمستقبل لهذه الدراسات •

الانسان مخلوق مظلوم :

والواقع ان الانسان هو المخلوق الوحيد الذي يكابد ظلما واضحا في موضوع الموت •

فهو الحيوان الوحيد الذى لا يتمتع بالمعدل الصحيح لعمره قياسا على بقية الحيوانات الاخرى • وبالرغم من أنه ارقاها طرا ، فانه اكثرها تخلفا في موضوع الموت • فهو يموت ــ حسب التعريف العلمي ــ قبل أوانه كثيرا • ولذلك فمن اللازم دراسة حالة الشيخوخة لدى الانسان من زاوية جديدة لتقرير ما يصيبه من افتئات ، ولاتخاذ اللازم لاطالة عمره حسب المعدل الصحيح •

ويقول بعض الاختصاصيين ان المعدل الصحيح لعمر الانسان ــ اذا اخذنا بنظر الاعتبار النسب التي تخص مراحل العمر لدى الحيوانات الاخرى ــ ينبغي أن يكون (١٥٠) عاما ، في حين ان ارقى معدل لعمر الانسان الان ــ وذلك في بلاد « النورديك » في اوربا الشمالية ــ لا يتجاوز (٦٥) عاما •

والدليل العلمي الثابت على امكانية وصول الانسان لمثل هذا العمر ــ أو المعدل ــ هو وجود معمرين يصلون اليه في كل جيل •• ومنها جيلنا الحاضر • فليس هناك دليل اقوى على امكان حصول الشيء من حصوله فعلا • وما دام أن هناك من يصلون الى هذا العمر بصورة طبيعية وبلا عناية طبية خاصة ، فمن المؤكد انه في الامكان تثبيت هذا العمر بصورة اجماعية اذا ما درس الامر علميا •

وقد كانت دراسات اطالة عمر الانسان قبل السنوات العشر الاخيرة ــ ويمكن ان نعتبرها بداية جدية لهذا العلم ــ محصورة في نطاق الدراسة العلمية الغذائية وفي محاولة « تجديد الشباب » وهو تعبير اتخذته الصحافة مدة طويلة لتعريف الجهود المبذولة في ذلك السبيل • ولكن التقدم الملحوظ الذي حصل في هذه الاثناء ، وفي نطاق أوسع كثيرا ، يبعث على الامل في أن يكون لهذه الدراسات موطن قدم ثابت علميا في وقت قريب •

بداية « الانيماتولوجيا » :

وقد بدأ هذا العلم ـ وقد سمي الآن بعلم « الانيما تولوجيا » ــ كما قدمنا قبل حوالي عشر سنوات • وكان كغيره من العلوم الشابة مشاعا بين الدارسين • ولكن الطرق التي تؤدي الى المدخل الى هذا العلم تعددت بينهم ، فكان البعض يركز جهوده على فكرة ابعاد « الشيخوخة » باعتبارها مرضا معينا ، والبعض الآخر يركز على اساس تبديل اعضاء الجسم عن طريق « بنك » الاحتياطات الممكنة •

ولكن الجديد في هذا الموضوع ما كتبه « أ • شيموتيان » الروسي عن مقابلة له مع العالم السوفيتي الشاب « جنيادي برديشيف » الذي يبلغ الثالثة والثلاثين من العمر ، وهو رئيس المختبر الكيماوي البيولوجي في

« معهد العناصر البيولوجية الفعالة » في « فلاديفستك » في قسم الشرق الاقصى في دائرة سبيريا من الاكاديمية السوفيتية للعلوم ·

فقد كان هذا الحديث ينطوي على اتجاه جديد في هذه الدراسات ، اذا ما وجد طريقة الى الاجواء العلمية الكلاسيكية ، فانه سيحدث اعظم دوي علمي في تاريخ الانسانية ، لانه يناقش موضوع الموت من الاساس ويتشكك فيه ·

يقول هذا العالم الشاب :

« ان العلم قد أصبح الآن قريبا جدا من ازاحة الستار عن اسرار الشيخوخة والموت » ·

واكثر ما يثير الدهشة في أبحاث هذا العالم الشاب ما توصل اليه من أن مفتاح السر يكمن في اعماق المحيطات !

وخلاصة ذلك أن البحر ــ وهو المهد القديم للحياة ــ تعيش فيه حيوانات يمكن أن تسمى « زوارا من الازمنة القديمة » ·

وهي حيوانات ابتدائية بالمفهوم العلمي · فأن بعض التراكيب العضوية الحية تحتفظ فيها بشكلها الهيولي الاصلي وفي بعض النماذج لا تزال الخلايا الحية تنقسم طيلة مدة بقائها على قيد الحياة · وبالفاظ أخرى فهي لا تعرف ما نسميه بالموت الطبيعي · وذلك ــ كما يبدو ــ هو المتعارف عليه بالنسبة لجميع سكان المحيط في العصور الاولى ·

وسينطلق خيال الانسان بعيدا كلما اوغل « برديشيف » في سرد قصته عن المحيط في عصوره الاولى ، وعن الاوضاع التي تشابكت فيها ابسط انواع العضويات بالاجسام المعقدة البروتينية التي تحتوي على الحوامض الذرية · فهنا كان مبدأ الحياة ·· وظلت السنوات تترى بالملايين واصبح المحيط مهدا لمختلف المخلوقات الحية بشكلها الاولي · وقد تقاتلت هذه المخلوقات فيما بينها ، ومات بعضها من الجوع ، أو من اندلاع البراكين ، او من الحاجة الى الضوء ، أو من أسباب أخرى ، ولكنها لم تعرف الموت الطبيعي · لقد كانت تهلك ولكنها لا تموت · وانما بدأ الموت الطبيعي بعد ذلك مع التطور · فلماذا « ابتكرت » الطبيعة الموت ؟

الشروح الاولى :

يجيب هذا العالم على هذا السؤال بقوله « اننا نفحص الآن نظرية تقول باللهجة الدارجة دون اللهجة العلمية ان الاجسام الحية لا تهرم » · فقد بدأ الهرم عندما تطورت العضويات ، عن طريق انهاء انقسام الخلايا ، الى ايجاد قدرة على « المحافظة » على شكل معين وجسم معين ذى اطراف يضمن لها وجودا بيولوجيا ·

أما « الموت » كما يراه « برديشيف » فهو كالآتي :

اولا ـ الموت الذي يتأتى من أسباب خارجية بحتة مسيطرة •

ثانيا ـ الموت المزعوم حسب البرنامج من دون هرم • ويمكن أن يلاحظ ذلك حتى اليوم بين النباتات السنوية ، وبعض الحشرات والاسماك •

وهذه العضويات تموت مباشرة بعد عمل واحد فقط من اعمال الولادة ، وهو العمل الوحيد في حياتها • أما لدى الحيوانات المتقدمة فان الموت يأتي بشكل تدخل نتيجة عملية هرم يضعف قوى الدفاع العضوي • فلا يمكن ادراك ميكانيكية الهرم الا اذا تركزت اشكال الموت التي تعتمد على تطوره •

وقد قضى « برديشيف » طوال الصيف الماضي في جزيرة « سخالين » لدراسة اشكال الموت لدى انواع متعددة من الاسماك اهمها نوع « السالمون » الذي يأتي باعداد كبيرة جدا لكي يلد ويموت ، لغرض دراسة موضوع الهرم نلتوصل من وراء هذه الدراسة الى التغلغل في موضوع الموت تحت الضوء الجديد •

ويقول العالم الروسي ان هذا النوع من سمك « السالمون » يهرم بشكل مثير للنظر • وهو لذلك يساعد كثيرا على دراسته أكثر من الانسان •

ويزيد على ذلك قوله انه يدرس الهرم كشيء جانبي ، ويركز جهوده الآن لمعرفة الاسباب التي تدعو الى وقف انقسام الخلايا في جسم الانسان • فلماذا تتوقف خلايا المخ ، أو العضلات ، أو الكبد ، أو الغدد الداخلية ، عن الانقسام ، وبالتالي عن تجدد الحياة ؟

وللاجابة عن هذه الاسئلة يقوم هؤلاء العلماء بدراسة مركزة على « سمك موسى » وهو نوع من السمك المفلطح الذي يمكن أن يظل نظريا في دور واحد من ادوار نموه الى مدد متطاولة يعجز العلم عن ادراكها في الوقت الحاضر •

ويقول هذا العالم ان الحيوانات لها اجهزة خاصة توقف النمو بتنظيم انقسام الخلايا في اجسامها ، ففي بعضها تكون اسرع ، وفي البعض الآخر ابطأ ، وهناك حيوانات لا تتحرك اطلاقا • ودراستنا تنصرف الى معرفة هذه الاجهزة •• ونحن في مراحلنا الاولى لهذه الدراسات •

والواقع ان هذه الدراسات لا تستهدف الموت وحده • فاذا ما كتب لها النجاح فانها ـ في طريقها الطويل ـ سوف تجد العلاجات لامراض مستعصية كالسرطان مثلا ، وللقضاء على الهرم كمرض بحيث يمكن اطالة عهود الصبا والشباب وتقليص ادوار الكهولة والشيخوخة •

وبالتالي يستطيع العلم أن يهب المزيد من الحياة للانسان •

عن مجلة « ساينس دايجست » الامريكية
ومجلة « ليترايا » الروسية

الضمير والنفس

ضياء الدين ابو الحب

... سألني سائل عن الضمير ، ما طبيعته وكيف يعمل في نفوسنا ؟ وهل يخطيء الضمير في تقدير مصلحتنا ومصالح الآخرين ؟ وما هي هذه القوة العاتية التي تقف حكما بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والميزان المفترض فيه دقة الحكم ، وصدق الاتزان بحيث لا يحيد عن المنطق ، ولا يخطئه الصواب في كل المواقف ، وفي شتى الحالات ؟ وهل هو فطري في جبلتنا يخلق معنا أم انه شيء نكتسبه بالخبرة والتجربة ؟ وهل يلتزم الضمير بحرفية الاوامر والمحضورات أم بروحها ؟

وللاجابة عن هذه الاسئلة أود ان أنوه بادىء ذي بدء بأن الضمير شيء لا يولد معنا ، وليس هو بشيء مفطور في جبلتنا وخلقنا وانما هو أمر مكتسب تتعلمه منذ ساعة الميلاد فصاعدا عندما نؤمر ما ينبغي علينا ان نعمله وننهى عما يجب ان نتجنبه . فيتولد فينا شعور بالتمييز بين ما هو خير فنمارسه ونميل اليه ، وبين ما هو شر فننأى عنه وتعافه نفوسنا . وفي كثير من الاحيان تدفعنا غرائزنا الاصيلة والبدائية فينا نحو طلب شيء من الاشياء . ولكن ابوينا سرعان ما يمنعاننا عن اتيانه ، ويحذراننا مغبة الحصول عليه ، فيتولد في نفوسنا شيء من الشعور بالتناقض الوجداني بين الحب والبغض للشيء ذاته وهذا ما يطلق عليه علماء النفس اسم : Ambivalence . فنحن نحب ونبغض في آن واحد للشيء الواحد مثلا . وهذا معناه وجود قوتين متدافعتين متناحرتين في ذاتنا احداهما تتضمن الغرائز والنزعات الفطرية البدائية التي من دأبها التهور والطيش والاندفاع نحو ارضاء لذات الجسد ولذاذات النفس وشهواتها العارمة وقد اطلق عليها « فرويد » واتباعه اسم « النفس السفلى » أو ما يسمى ب « الهو » تقابلها ذات أخرى في النفس تأتمر بالتعليمات والاوامر والنواهي ، وتخضع لاحكام الجماعة التي ينتمي اليها الفرد ، وتلتزم بالأعراف والتقاليد السائدة في المجتمع ، وترعى الانظمة والقوانين التي تحترمها الهيئة الاجتماعية ، وتريد من كل فرد ان يكون قيما عليها يحترمها ويطبقها بندا بندا منذ مبدأ حياته

اليومية ، وهذا ما يطلق عليها اتباع مدرسة التحليل النفسي اسم « الانا » أو « الذات » ٠

ومن طبيعة الذات ان تهضم الاحداث ووقائع الحياة ، وتخضع لاحكامها وتتأثر بآثارها الحسنة أو السيئة التي يرتضيها المجتمع أو لا يرتضيها ، ومن هنا ينشأ الضمير أو ما يسمى « بالنفس العليا » التي تتجمع على شكل مبادىء ومثل عليا ، وقيم خلقية سامية ، واحكام متزنة ، وتعاليم دينية قويمة ورقابة ابوية صارمة تتحكم في نزوات النفس السفلى ونزعات النفس الامارة بالسوء فتوقفها عند حدها ما دامت تتعارض مع المثل القائمة والعادات السائدة في المجتمع ، وتتناقض والقيم الانسانية النبيلة التي يرتضيها العرف والناس اجمعون ٠ كما ان هذه النفس العليا أو الضمير تسيطر على أحداث الحيـاة التي يتعرض لهـا الانسان قد تصيب الانسان بمكروهها وتعرضه للاغراء والاسفاف والطيش والتمرغ في الاوحال ، وهي عبارة عن الذات التي تريد الحفاظ على مكانتها والدفاع عن مصالحها والابقاء عليها سليمة غير مثلومة آمنة غير مروعة بين ما تعيه من تصرفاتها أو بين ما تطمره أو تخفيه في طيات اللاشعور ، أو ما ينحبس عنها في منطقة قريبة الى الشعور ولـكنها خفية عنه نسبيا وهو ما يطلق عليه اسم « شبه الشعور » ٠

فهذا البناء الشكلي للنفس تسيطر عليه الاحكام التي ترعرعنا عليها ونحن صغار في ان نلتزم جانب العدل والروية بين ما ينتابنا في أعماقنا من شعور نحـو الاندفاع والطيش والتهور في طلب ملـذات الجسد وارضاء شهواتها ، وبين ما يستدعينا الى الانحراف فيه من تيارات الحياة وواقعها ومطاليبها ، انما هو الضمير أو الوجدان الذي يزاول مهمته العليا السامية في ان يجعلنا نسير بهوادة ويسر شأنه شأن الاب الناهي والآمر الذي تنطبع صورته في انفسنا فلا نتردد عن الخضوع له ، والالتزام بأوامره ونواهيه لاننا في النتيجة نشعر بمساعدته الـكبرى لنا في ساعات الازمات فينقي قلوبنا من الرجس والدرن ، ويبعد عنا عناء الجرى وراء المطامع والنزوات الجسدية والحسية ٠ ويجعلنا في مأمن من غائلة الركض وراء الاساءة الى احد والاضرار بالناس ٠

فالضمير في الواقع حاسة مرهفة راقية يهذبها الدين ، وتصقلها العوامل الاجتماعية السامية يبصرنا بأمور دنيانا وآخرتنا ، فنوازن بين مصالحنا الذاتية ومصالح الآخرين ، وكثيرا ما يشعرنا بفداحة تضحية مصالح الناس من حولنا لننعم بما ننعم به من خيرات وما نتناهبه من ملذات ذاتية لنحرم سوانا من الاشخاص ، أو نهضم حقوقا للغير ، فيقف الحكم العدل ينبهنا الى اخطائنا ويرد غائلة الانانية الطاغية عن نفوسنا ٠ غير أن الذي يحدث عند الشواذ والمنحرفين والنزقين هو ان ينجرفوا ناحية الشر ، وتطغى على نفوسهم دوافع النفس السفلى أو النفس البدائية ذات الغرائز البهيمية العارمة التي لا تقيم وزنا الا لارضاء شهواتها ٠ ولا تخضع الا لهمجيتهاووحشيتها وطيشها

ولا تخضع للمبادىء والاحكام العادلة ولا للقيم الخلقية السامية ، وكل ما يسيطر عليها هو التلذذ الآني ، والتحكم النزق الطائش .

ومن الادلة على نشوء الضمير فينا بعد الولادة والتنشأة هو ما نراه من اختلاف الناس في شتى نحلهم ومللهم في قبول هذا أو ذاك من الآراء التي يعتبرونها وجيهة أو عادلة ، وان الضمير يقبل بعضها أو لا ينزه بعضها الآخر منها . فكم من القبائل المتوحشة في جزر الهند الشرقية أو في أواسط افريقيا واستراليا ما زالوا لا يشعرون بتأنيب الضمير عند قتل عدوهم وأكله ، وضميره يؤيده على فعلته هذه كل التأييد . الا انهم بعد ان بدأو يختلطون بجموع متحضرة من البشر صاروا يكتسبون معنى جديدا في النظر الى هذه الفعلة الشنيعة وبدأ ضميرهم يستيقظ في استبشاعها واستفظاعها .

ومن الدلائل الاخرى لتولد الضمير في أعماق النفس بالتربية الحقة والتنشئة السليمة ان الاطفال الذين ينشأون في بيئات منحطة متدنية لا تقيم وزنا للمثل الاخلاقية السامية . نجد اولئك الاطفال لا يجدون في نفوسهم غضاضة من ارتكاب أعمال العنف والسرقة وحتى القتل والغدر والخيانة لان الضمير فيهم لا يستحكم ولم يجبل على حب الخير والسعي في طريق الفضيلة .

وهكذا الطفل الرضيع لم يولد فيه شيء اسمه الضمير يمنعه عن الاستحواذ على كل ما يراه نافعا له أو الحصول على اللذة من ورائه ، فكل شيء ملذ بالنسبة اليه يعتبره سليما ومنطقيا وان كان في غير مصلحة من هم من حوله .

فليس من الصحيح اذن ان يعتبر الضمير شيئا مغروسا فينا منذ الازل وانه امر الهي قائم في جبلتنا ، وانه صوت يجلجل في اعماقنا من غير ان نكون قد ميزنا بين الخطأ والصواب بعد ان اكتملت مواهبنا الذهنية وصقلتها التجارب وهذبتها التنشئة الصالحة والروية الناضجة ، والحياة الكريمة الابية الفاضلة .

ومن ثم تبدأ النفوس الواعية تشعر بحراجة الموقف وبالتأثيم عندما ترتكب شيئا اذا يؤاخذها عليها المجتمع ، أو يعترض على دوافعها النزقة العرف السائد بين الناس أو عندما تصبح ملكة النقد ، والتمييز بين الخطأ والصواب على جانب كبير من الحصافة والادراك ، فكل خطأ في حق أحد من الناس ، وكل تقصير في تأدية واجب يصبحان مدعاة لوخز الضمير ، والتحسس بالذنب ، والشعور بالاثم والعدوان . وكل مشاعر بالاثم من شأنها ان تثير في النفس معركة حامية الوطيس بين النفس البدائية ذات النزعات العارمة والنزعات الضارة وبين النفس العليا أو الضمير الذي يلتزم بسمات الفضل والنبل والوفاء والاخلاص والشهامة وما اليها . فاذا تغلبت الجوانب الهمجية في نفس الانسان ، واستحكمت دوافع الفطرة الساذجة على كل ما هو حق ومقبول في المجتمع أصبح الانسان عرضة لتيارات ماحقة من

الشعور بالاثم ، والتحسس بالدونية وبالنقص ، وبالحطة في عيني ذاته قبل ان تحملق في وجهه عيون الناس أو تقبض عليه ايدي العدالة الحقة لتحاسبه وتقاصصه ٠

وهناك مصدر آخر للتحسس بالاثم وبالعذاب المقيم ناتج عن تربية ناقصة لا تهتدي سبيلها القويم ناتجة عن جهل الكبار في تربية الصغار ، تقيم في نفس الطفل ظلا لضمير مزيف ذلك هو ربط الذنب والتأثيم بأمور ينبغي ان تعتبر طبيعية فينا ، وذلك كالتحذير المتزايد للطفل في ان يتجنب التعرف على أسرار الحياة الجنسية أو معرفة دور الابوين في انجاب الاطفال ٠ وكذلك كبت المشاعر العدوانية التي ينبغي ان يمارسها الطفل في ساعات الشدة والغضب ومنعها من التعبير عن نفسها بطريقة من الطرق كالاحتجاج والمقاومة والنزوع الى الدفاع عن النفس في ساعات الخطر ٠ فاننا ان منعنا هذه النزعات الطبيعية ان تعبر عن نفسها واذا منعناها أو كبتنا آثارها ، وخلقنا في الطفل ضميرا خانعا لا يقوى على مقاومة عدو أو رد كيد خصيم لدود ، ولدنا في الطفل ضميرا مريضا يحتمل ان يكبت في أعماق الذات ويعبر عن نفسه بتصرفات لا شعورية نابية تتجلى في البرودة الجنسية عند المرأة أو الرجل ، أو بمركب النقص الذي يغل يدي ذلك المخلوق التعس التي لا يقوى على مقاومة تيار الحياة ، ولا يصدر من بين يديه أي أمر مفلح ، ولا يرجى فيه الخير الكثير لانه يتهم ذاته ولا يثق بها ، ولا يستحث خطاه نحو الاتيان بأعمال مبتكرة ، وبنشاط خلاق في خدمة نفسه والآخرين من حوله ٠

والشيء الذي يحز في نفسي دائما ان أرى بعض الناس يغلظون القول على الطفل وينددون بأعماله التي لم يرتكبها عن سوء قصد ، ويقابلون افعاله المغلوطة بالشدة وبالتعنيف والتوبيخ ، ويقرنون زلاته البسيطة بالتهويل والتخويف ، وقد يخيفونه أو يشددون النكير عليه لمجرد قولة عابرة لم يحسن التعبير عنها أو زلة طارئة لم يفكر في عواقبها ، فيقرنون كل ذلك بالتويل والثبور ، ويحملون الطفل على ان يبدو كاملا في كل شيء ، ويخلقون في نفسه ما يطلق عليه علماء النفس « الانا المثالية » الخالية من المثالب والزلات بينما الحياة الحقيقية ليست مثالا تام الكمال ففيها حالات من ضرورات التورط في الاخطاء العابرة التي لم يحسب لها الانسان حسابا دقيقا أو ان الظروف اقتضت أحيانا ان يخالف المرء ضميره فيخفي في نفسه ما لو اعلنه للناس لثارت ثائرتهم ٠ فما قولك في اخفاء المشاعر الحقيقية عن الناس الذين لا يمكننا ان نصارحهم بمثالبهم ولا ان ننتقص اقدارهم بالرغم من علمنا بأنهم مذنبون مقصرون أو غشاشون خداعون ، ومؤاخذتنا اياهم على جرائرهم يجرنا الى معارك لا اول لها ولا آخر ، وقد يجر علينا المتاعب ويصيبنا بالهوان ، وقد ينتصرون علينا بمكرهم وخداعهم ، وليس

الناس في وضع يستطيعون فيه في كل الاحوال التمييز بين المحق والمبطل والمحسن والمسيء .

فتوليد مشاعر « الانا المثالية » في الطفل بدرجة عالية تؤدي الى تحميل ذلك الطفل في مقتبل حياته شعوراً بالنقيصة دائما والى محق ما تستحق ذاته من التكرمة ومن الوثوق بالنفس ، فقد لا يتعاون مع الآخرين لانه يستخف بقيمهم ، وقد يسخر من تصرفاتهم التي لا يلتزمون بها جوانب الحق الصراح ، والدين في اقوم أشكاله ، وبذلك تضيع عليه الفرص في ان يدخل أبواب الحياة بشيء من المرونة التي يستطيع عن طريقها ان يفتح أبواب المعروف ، ويبشر بالفضائل ويدعو الى الخير . اما اذا كان متزمتا تطغي الانا المثالية على كل تصرفاته فلا أظن انه يصيب نجاحا في مواجهة الواقع المر الذي ينبغي للمرء ان يصادفه كل يوم في اناس ليسوا من سويات مثالية واحدة وانما هم مراتب ومن درجات شتى ، لابد لكل واحد منا ان يعاملهم ، وان يظهر نفسه قدوة صالحة تستحق اقتداء الآخرين بها والحذو على منوالها اذا اظهرت مرونة وحسن تفهم ، والتكيف والتوافق مع الظروف القائمة في أحسن أو اردأ أحوالها .

وهناك نفر من الناس يتمسكون بحرفية القوانين والانظمة دون تطبيقاتها أو ما يسمى ب « روح القوانين » اذ تتطلب الحياة الواقعية شيئا من مرونة هذا الضمير الذي بين جوانحهم . فمما يروى عن احد المبشرين المسيحيين والمسمى « جون نيوتون » انه كان قبطانا في احدى السفن التي تتاجر بالعبيد في ابان القرن الثامن عشر ، انه يروى عن حالة من حالات التقرب الى الله ، وقد تجلى له السيد المسيح وهو على ظهر السفينة فظل خاشع القلب متحمدا بذكر الله عاملا بالوصية التي تقول له « لا تقتل » ولكن العبيد من حوله كانوا مزدحمين على ظهر السفينة يعانون الشقاء والذل ، ويموتون كتلا وجماعات وضميره لا يشعر بأنه يقترف أي ذنب . انه يطبق حرفية ما جاء في الانجيل ، ولكنه لا يجد في ذلك البيان المعجز من بين يديه ما يحمله على تفسير فظاعة النخاسة واسترقاق مخلوقات الله وتعريضهم للموت الزؤام والقتل الجماعي .

وهذا السيد المسيح نفسه كان يلتزم في جميع تصرفاته بروح القوانين دون حرفيتها ، ولهذا فقد تعرض في سبيل ذلك الى صراع مرير مع بني اسرائيل الذين التزموا بحرفية الوصايا العشر دون روحها وقد كان ينبههم الفينة بعد الفينة الى ان الوصايا العشر تقتضي منهم الالتزام بروحها لا بحرفيتها ويذكرهم بأن النبي داود نفسه وهو من بين قادتهم سرق الخبز المقدس من بيت العبادة مرة لانه كان جائعا . ولكنهم لم يلتزموا بما قال لهم وظلوا غاضبين عليه ناقمين من أفكاره .

فالضمير الحي من سمات الانسان الناضج الذي يحكم عقله في كل ما هو حق ، ويميزه من كل باطل ، غير انه ينبغي عليه ان يزن الامور

بمعيار من الروية والفهم ، وان يحسب لكل أمر حسابه بحيث يقوده ضميره آخر الامر الى نفع الناس وتقدير ظروفهم · وفهم أحوالهم ، وعدم ادانة احد الا بعد ان يثبت ذنبه · ولهذا كانت المحاكم تدرس قضايا الناس بروية وامعان نظر ، وتستشير الحكام والمحلفين ، وتتيح الفرص للمتهم ان يدلي بآرائه ويعرض قضيته بكل تفاصيلها ، وتفسح المجال للمحامين ان يجمعوا البراهين والادلة أو يدحضوا ما لم يثبت منها لكي تأخذ العدالة مجراها على ضوء الوقائع والاحداث ، وبذلك يتحقق للضمير الحر ان يحكم عن قناعة لا يشوبها شيء من الارتباك والاختلال ···



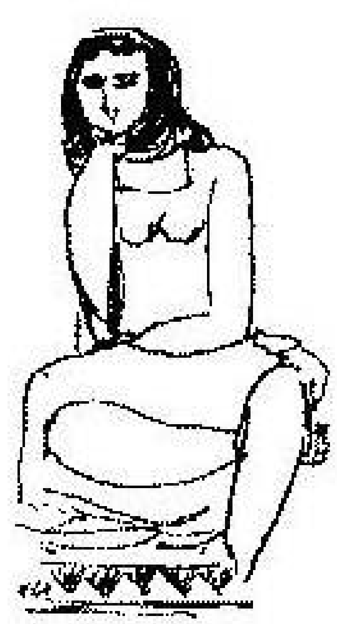
إليها

غازي سعيد

لا تذرفي دمع الغرام بحرقة ... لم تبق عندي دمعة لغـــرام
أفرغت عيني من جروحي في الهوى ... وعصرت قلبي في كؤوس مدامي
لا تحلمي أني أحبك في غد ... فغدي توارى في هشيم حطامي
فارمي سهامك نحو غيري وانصبي ... شرك الخداع لعاثر أو ظامي
اني عرفت الحب يسمو فكرة ... وعقيـــدة ترقى مـــع الأيام
يتعـــانق القلبان في قبـــلاته ... كتعـــانق العبقات والانســـام
وتطهـــر الارواح في اشـــواقه ... ويزول مـــا فيهـــا من الآثام
وبه المحب يرى العذاب سعادة ... وأســـاه فيض محبـــة ووئام
فاذا الفراق أصابه قلبا طعنة ... فالجرح نبع بواكر الاحـــلام
واذا الوداع أسال دمع مـــودع ... فالدمع مصباح لدرب ظـــلام

*

هـــذا أنا ان شئت فاحترقي معـــي ... في معبـــدي وتقاسمي آلامي



لغة هذيل

خليل ابراهيم العطية

« اجعلوا المملي من هذيل والكاتب من ثقيف »

عثمان بن عفان (رض)

تمهيـــد :

هذيل : احدى قبائل العرب العدنانية المشهورة وهي : هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر بن معد بن عدنان · المشهود لها بالتفصح .اذ كانت لغتها مما نزل بها القرآن الكريم(١) وأخذت عنها اللغة(٢) ولا غرابة في ذلك فقد كانت ديارها في (السروات) التي شهد لها (عمرو بن العلاء) بالفصاحة قائلا : (افصح الناس اهل السروات وهي ثلاث ··· وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن اولها : هذيل وهي تلي السهل من تهامة ···)(٣) وكانت لهم (صدور اوديتها وشعابها الغربية ، ومسايل تلك الشعاب والأودية على قبائل خزيمة بن مدركة في منازلها وجيران هذيل في جبالهم : فهم وعدوان ابنا قيس بن عيلان)(٤) ·

ولترامي أطراف ديارها سكن بعض هذيل شعاف الجبال(٥) وآخرون الخيف (والخيف ما كان مجتنباً عن طريق الماء يميناً وشمالا متسعاً وفيه منبر وناس كثير من خزاعة ومياهها فقر وباديتها قليلة)(٦) ، وبعضهم في (مر الظهران) الذي (··· فيه عيون كثيرة ونخيل وجميز)(٧) ·

وكان لها في جاهليتها صنم تحج اليه وكانت قريش وجميع العرب تشاركها في تعظيمه اسمه (مناة) وفيه الآية الكريمة (ومناة الثالثة الأخرى)(٨) ·

ولهذيل بطون : سعد ولحيان وعمير والعدد في سعد ، وارهاط اشهرها : تميم وحريث ومنعة وخناعة وجهام وغنم ومعاوية والحارث (وهم رهط عبدالله بن مسعود صاحب رسول الله ص) ·(٩)

بعض احوالها :

تصور الاخبار المنشورة في المظان هذيلا جفاة غلاظاً : فهي ممن وأدت بناتها في الجاهلية(١٠) ورجالها لم يمتطوا الخيل الا في النادر اذ هم كما

ذكر (ابن منظور) في اللسان (جرى) : عراجلة رجالة .. معروفون بالسعي الشديد[11] ثم هم الى جانب ذلك قوم يتشاءمون بالسنيح دون البارح والى ذلك أشار شاعرهم أبو ذؤيب :

أربت لاربته فانطلقت ازجي لحب اللقاء السنيحا[12]

وهذيل متهمة بالدعوة الى الزنا ـ وعيرت بذات النحيين ـ بل جاءت الى رسول الله (ص) داعية اياه اباحته لهم حتى قال فيهم حسان بن ثابت مقولته :

سالت هذيل رسول الله فاحشة ... ضلت هذيل بما سالت ولم تصب[13]

كما اتهمت (لحيان) ـ احد ارطامها بأكل لحوم الناس . والى ذلك اومىء حسان :

ان سرك الغدر صرفا لا مزاج لــه ... فأت الرجيع وسل عن دار لحيان
قوم تواصوا بأكل الجار بينهــم ... فالكلب والشاة والانسان سيان[14]

شعر هذيل وما طبع منه :

ولفصاحة هذيل لم تخل مظنة من مظان اللغة والأدب من رواية مقطعة لها أو أبيات نقلا عن العلماء الذين رووا شعرها أو جمعوه امثال : الاصمعي وابي عبيدة وابي عمرو والشيباني وابن الاعرابي والسكري وغيرهم وقد بلغ شعرهم الدرجة التي دفعت (حسان بن ثابت) الى اعتبارهم اشعر العرب[15] ومن الكثرة حداً دفع الامام الشافعي (رض) الى حفظ (عشرة آلاف بيت من شعر هذيل باعرابها وغريبها ومعانيها)[16] وذكر الأصمعي انه قرأ شعرهم عليه .[17]

ومن بين مجموعات شعر عشرات القبائل[18] وصلنا بعض شعرهم كان للمستشرقين فضل نشره والتعليق عليه : ويعد (كوزي. فري. كوزكارتن) أول من اعتنى بشعر هذيل اذ طبع في لندن سنة ١٨٥٤م أول مجموعة من (شرح اشعار الهذليين) ، واصدر المستشرق (فلهاوزن) في برلين سنة ١٨٨٤م (اشعار الهذليين ما بقي منها في النسخة المقدونية غير مطبوع) تبعه (فهيم باكركترفك) فنشر لامية ابي كبير الهذلي في المجلة الآسيوية بباريس سنة ١٩٢٣م . وطبع (يوسف هل) سنة ١٩٢٦ ديوان ابي ذؤيب في هانوفر ، وطبع (ف.ب كترفك) ديوان ابي كبير الهذلي سنة ١٩٢٧م بباريس ايضاً .

وفي سنة ١٩٣٣م ظهرت في (لايبزك) مجموعة تشتمل على شعر : ساعدة بن جؤية وابي خراش والمتنخل واسامة بن الحارث مع شرح لشعرهم نشرها (يوسف هل) .[19]

وطبعت دار الكتب المصرية في القاهرة بين ١٩٤٥ ـ ١٩٥٠م ثلاثة أجزاء من (ديوان الهذليين) من نسخة الشيخ محمود الشنقيطي المحفوظة في الدار تحت رقم (٦ أدب ش) وفيه شروح مختصرة ٠

وأصدر الاساتذة : أحمد ناجي القيسي وأحمد مطلوب وخديجة الحديثي في بغداد ١٩٦٢م وبمراجعة استاذنا الفاضل الدكتور مصطفى جواد : « التمام في تفسير اشعار هذيل مما اغفله أبو سعيد السكري لابي الفتح عثمان بن جنى) عن النسخة الفريدة المحفوظة في مكتبة الاوقاف العـامة ٠

وصدر أخيرا في القاهرة (شرح اشعار الهذليين) صنعة السكري رواية ابي الحسن علي النحوي عن ابي بكر الحلواني في مجلدين ضخمين بتحقيق الاستاذ عبدالستار أحمد فراج ومراجعة محمود محمد شاكر ٠

لغة هذيل :

لم أجد لهذه القبيلة المشهود لها بالفصاحة من يدرس لغتها (٢٠) ويبين غوامض كلامها وما اختلفت فيه عن قبائل العرب غير القليل النادر المبثوث في معجمات اللغة ومراجع الأدب ٠

وقد تهيأت لي طائفة مما وجدته منثورا في المظان يشتمل على بعض ما عزاه الاقدمون الى هذيل بعضه في الاعراب وآخر في الصرف ونحوه والتمست وانا استقرىء ذلك شاهدا صحت نسبته اليهم وان وجدت اتفاقا بين لغتهم ولغة غيرهم من العرب ذكرته في موضعـه ولست ادعى انني احصيت في هذه العجالة كل ما يختص بهذيل وربما عدت ـ باذن الله ـ الى الموضوع فزدته ايضاحا وبيانا متى ما وجدت الوقت الكافي ٠

ان من اظهر ما اختصت به هذيل : (الفحفحة) وقد شاركتها في ذلك (ثقيف) والفحفحة : ابدال الحاء عينا فيقولون : في حتى مثلا عتى ٠ ومنها قول ابي ذؤيب :

فقال له وقد (اوعت) اليـه   الا لله أمـك ما تعيف

أي : اوحت اليه ٠

ومن الفحفحة وردتنا بعض الفاظهم : فقد قالوا : الدعداع في الدحداح « وهو المستدير الململم » والعفضاج في الحفضاج وهو الضخم ، والعثالة في الحثالة ، وتصوع في تصوح وتصوح البقل اذا يبس(٢١) ٠

ومن ذلك : الانطـاء : وهو جعل العين الساكنة نونا فيقولون في اعطى : انطى ٠ وشاركت هذيلا في الانطاء : سعد بن بكر والازد وقيس والانصار(٢٢) ٠ وعلى لغتهم قرىء شذوذا (انا انطيناك الكوثر) كما ورد الانطاء في قول الاعشى :

جيادك في القيظ في نعمـة   تصان الجلال و(تنطى) الشعيرا(٢٣)

وهذيل لا تنبر (والنبر : الهمز) قال أبو زيد : (اهل الحجاز وهذيل واهل مكة والمدينة لا ينبرون ... وقال أبو عمر الهذلي : قد توضيت فلم يهمز وحولها ياء)(٢٤) .

ومن ذلك ميلها الى تعدية الفعل اللازم وهي على ما يذكره ابو علي الفارسي تعدي صيغة (فعَل) اذا كانت قابلة للتعدي بمعناها وانشد :

ولم تبصر العين فيهـــا كلابا(٢٥)

ويجمع بنو هذيل امثال : جوزة وبيضة ونحوهما : جوزات وبيضات بفتح الفاء والعين ، والمشهور في لسان العرب تسكين العين اذا كانت صحيحة(٢٦) .

وهم لا يبقون الف المقصور على حالها عند الاضافة بل تقلب عنـــدهم ياء ثم يدغمونها توصلا الى كسر ما قبل الياء ، والمشهور في لغـة العرب جعله كالمثنى .

والى ذلك اشار (ابن مالك) في الفيته :

والفاً ســلم ، وفي المقصـــور عن (هذيل) انقــلابها يــاء حسن

قال ابو ذؤيب في رثاء بنيه :

سبقوا (هوي) واعنقــوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع(٢٧)

اراد : هواي .

وورد مثل ذلك في قول ابي الاسود الدؤلي (ديوانه ط . عبدالكريم الدجيلي) : ١٧٨ :

احبهـــــم لحب الله حتى اجيء اذا بعثت على (هـــويا)

وثمة طائفة أخرى أسوقها مرتبة :

« أ »

اتا : يأتو في لغة هذيل ولغة بقية العرب : اتى : يأتي .
قال خالد بن زهير الهذلي(٢٨) :

يا قوم مالي وأبـا ذؤيب
كنت اذا (اتوتـه) من غيب
يمس عطفي ويشم ثــوبي
كأنمــا أربتــه بريب

اذا : اذا لغة هذيل وغيرهم يقول : اذ .
قال ابو ذؤيب الهذلي :

تواعـدنا الربيق لننزلنــــه ولم تشعر (اذا) اني خليف(٢٩)

جاء في اللسان (اذذ) تعقيبا على البيت :
(قال ابن جني : قال خالد (كلثوم) اذاً لغة هذيل وغيرهم يقولون اذ ، يقال : فينبغي أن تكون فتحة ذال (اذا) في هذه اللغة لسكونها وسكون التنوين بعدها ، كما ان من قال (اذ) بكسرها فانما كسرها لسكونها وسكون التنوين بعدها ، بمن فهرب الى الفتحة ·
الازار : يذكر ويؤنث في لغة هذيل · قال ابو ذؤيب :

تبرأت من دم القتيل وبزه وقد علقت دم القتيل (ازارها)[٣٠]

وفي اللسان (ازر) عن ابن سيدة : يجوز أن يكون على لغة من أنث الازار ويجوز ان يكون اراد : ازارتها فحذف التاء ·
الايير : الشمال الباردة في لغتهم[٣١] وبلغة غيرهم الريح ·
قال حذيفة بن انس الهذلي :

وانا مساميح اذا هبت الصبا وانا مراجيح اذا (الايير) هبت ·

(ب)

البوع : البوع « بالضم » والجمع : الابواع : مسافة ما بين الكفين اذا بسطتهما ، وفي لغة غيرهم من العرب : الباع والبوع - بالفتح - ·
قال ابو ذؤيب :

فلو كان حبلا من ثمانين قامة وتسعين (بوعا) نالها بالانامل[٣٢]

(ت)

تخذ : عن أبي عمرو الشيباني ان (تخذ) لغتهم ولغة غيرهم من العرب (اتخذ)[٣٣] ·
قال : ابو جندب الهذلي :

(تخذت) غران اثرهم دليلا وفروا في الحجاز ليعجزوني

(ج)

الجحش : الجحش اطلقوه على الخشف :
روى الاصمعي بيت ابي ذؤيب :

باسفل ذات الدبر أفرد خشفها فقد ولهت يومين فهي خلوج

هكذا : أفرد جحشها[٣٤] · وقال : الجحش : الخشف في لغة هذيل ·

(ح)

الحال : الحال بلغة هذيل : المرأة ·

قال الاعلم الهذلي :

اذا تذكرت (حالك) غير عصر وافسد منعها فيك الوجيف

حتى : لغة هذيل وقريش وجميع العرب الا هذيلا وثقيفا فانهم يقولون فيها : عتى وهو من الفحفحة • أنشد الفراء :

لا أضع الدلو ولا أصلي (عتى) ارى جلتها تولى •
صوادراً مثل قباب التل(٣٦) •

وعن ابي عبيدة : من العرب من يقول : أقم عني (عتى) آتيك • وهي لغة هذيل(٣٧) • وبها قراءة (عبدالله بن مسعود) : (ان هو الا رجل به جنة فتربصوا به (عتى) عين) •

الآية (٢٥) المؤمنون/أي حتى حين • وقد نهاه عمر بن الخطاب (رض) عن القراءة بها •

المنحرد : المنحرد : المنفرد بلغتهم • قال ابو ذؤيب :

من وحش حوض يراعي الوحش مبتقلا
كأنه كوكب في الجو (منحرد)

ورواه ابو عمرو بالجيم وفسره (اللسان حرد) وقال السكري في التعقيب على البيت :

(المنحرد : كذلك قال الاصمعي • ولم اجد احدا ممن حكى عن هذيل يقول هذا) •

حضرموت : البلد المعروف • المشهور فيه بفتح الميم غير هذيل فانها تضمه • عن السكري

قال : ابو صخر الهذلي :

حدت مزنة من (حضرموت) مربة
ضجوع له منها مدر وحالب(٣٨)

(خ)

اخال : وهي لغة هذيل ولغة غيرهم من العرب ـ وهي الافصح ـ غير بني أسد الذين يفتحون همزتها وهو القياس •

قال أبو ذؤيب :

فغبرت بعدهم بعيش ناصب و (اخال) انى لاحق مستتبع

وقال أيضا :

أمنك البرق أومض ثم هاجا فبت (اخاله) دهما خلاجا(٣٩)

ووزد مثل ذلك « من غير هذيل » في قول زهير :

وما ادري وسمت (اخال) ادري أقوم آل حصن أم نساء •• !

الخزومة : الخزومة بلغتهم : البقرة .
قال ابو ذرة الهذلي :

إن تنتسب تنتســب الى عــرق ورب
أهل (خزومات) وشحاج صخب(٤٠)

التخوف : التخوف بلغتهم بمعنى : التنقص :

ذكر البيضاوي في تفسيره (ص ٣٥٧) شرح الآية الكريمة : [أو يأخذهم على تخوف فان ربكم لرؤوف رحيم] الآية ٤٧/سورة النحل ، فذكر أن (عمر بن الخطاب (رض) قال على المنبر ما تقولون فيها ـ يعني قوله تعالى : أو يأخذهم على تخوف ـ فسكتوا : فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص .

فقال (عمر) هل تعرف العرب ذلك في اشعارها ؟ قال : نعم . قال شاعرنا ابو كبير يصف ناقته :

تخوف الرحـــل منها تامكـــا قـــردا
كما (تخوف) عود النبعة السفن .. الخ) اهـ(٤١)

الخيطة : الخيطة : الوتد في كلامهم(٤٢).
قال أبو ذؤيب :

تدلي عليها بين سب (وخيطــة) بجرداء مثل الوكف يكبو غرابهـــا

(ر)

اراب : لغة هذيل . والعرب تقول : رابني فلان اذا رأيت فيه ما يريبك وتكرهه .
قال : خالد بن زهير الهذلي :

. . . .
كأنني (اربتــه) بريب(٤٣)

الربد : ربد السيف « بضم الراء وسكون الباء » : فرنده ، هذلية(٤٤)
قال ابو صخر الهذلي :

وصـارم قــد اخلقت خشيبتــه أبيض مهو في متنــه (ربـــد)

ارجع : العرب تقول رجع بنفسه رجوعا ورجعه غيره رجعا وهذيــل تقول : ارجعه غيره . (الصحاح رجع) .
قال ابو ذؤيب : [الديوان ١/٤٣، ٢٤] :

فبدا له اقراب هــذا رائغـــا عجلا فعيث في الكنانــة (يرجع)

الراموز : أصل الرمز ما دل على حركة واضطراب ، والراموز بلغــة هذيل : البحر(٤٥) .

الرجاء : أصل الرجاء ما عني الشك والطمع واليقين : وهذيل وكنانة وخزاعة ونضر يقولون : لم ارج · يريدون : لم أبال(٤٦) .
ولعل من ذلك قول أبي ذؤيب :

اذا لسعته النحل لم (يرج) لسعها
وخالفها في بيت نوب عواسل

(زال) : لغتهم في (ما زال) قال شاعر بني قريم :

(فزلتم) تهربون ولو كرهتم   تسوقون الخزائم بالنقاب

أي : ما زلتم(٤٧) .

(س)

السب : يطلق على الحبل في لغتهم(٤٨) .
قال ابو ذؤيب :

تدلى عليها بين (سب) وخيطة   بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها

السبندي : الجريء من كل شيء · هذلية(٤٩) .
ووردت اللفظة في قول الزفيان :

أعيس جواب الضحى (سبندى)   يدرع الليل اذا ما اسودا

وعن الازهري : السبندي في لغة هذيل : الطويل .

مسبع : يقال : (قد اسبعت عبدك على الناس) أي اهملته وكذا هو في لغة هذيل كأنه خلا فصار سبعا وفي لغة غيرهم من العرب : (مسبع) : دعي · عن أبي عمرو · (انظر اللسان سبع) .
ووردت اللفظة في قول أبي ذؤيب [الشرح/١٢ ، ١٣] :

صخب الشوارب لا يزال كأنه   عبد لآل ابي ربيعة (مسبع)

السرحان : اطلقته هذيل على الاسد · والعرب اطلقته على الذئب .
قال ابو المثلم الهذلي في رثاء صخر الغي(٥٠) :

هباط أودية حمال الوية   شهاد أندية (سرحان) فتيان

ومن امثال العرب : (سقط العشاء على سرحان) يعنون به الاسد وقيل من ليس عنده خير(٥١) .

السخل : هذيل تقول : سخلت الرجل : اذا عبته · واصل السخل : ولد الضأن(٥٢) .

(**السميج**) : السمج والسميج : الذي لا ملاحة فيه والاخيرة هذلية .
(اللسان سمج) .

قال ابو ذؤيب [الديوان ١/١٣٧] :

فان تعرضي عني وان تتبدلي خليلا ومنهم صالح و (سميج) ·

وعن الاصمعي : انما اراد سمج فاضطر الى سميج ·

السنيعة : السنيعة واحدة السنائع · وهي — في لغتهم — الطريق في الجبل · اللسان (سنع) ·

السيد : السيد في لغة هذيل اطلقوه على الاسد ·
قال الشاعر (اللسان سيد) والصحاح (سرح) :
كالسيد ذي اللبدة المستأسد الضاري ·
وقد استعاره منهم : المزرد بن ضرار الغطفاني فقال :

تقول اذا استقبلته وهو صائم
خباء على نشز أو (السيد) ماثل(٥٣)

(ش)

شايح : شايح الرجل في الامر : اذا جد في لغتهم · **وفي لغة تميم** وقيس : الحاذر عن الاصمعي(٥٤) ·

قال أبو ذؤيب :
بدرت الى اولاهم فسبقتهم و (شايحت) قبل اليوم انك شيح
والشيح : الجاد · واشاح مثل : شايح ·

الشبح : الشبح : الباب العالي البناء · هذلية(٥٥) ·
قال ابو خراش :
ولا والله لا ينجيك درع مظاهرة (ولا شبح) وشيد

الشنج : محركة : الشيخ في لغة هذيل · يقولون : شنج على عنج أي شيخ على جمل(٥٦)· واصل الشنج : تقبض الجلد والاصابع وغيرهما ·

(ص)

صر : صرت الشيء : قطعته ، وصار وجهه يصيره : أقبل به · وفي قراءة عبدالله بن مسعود وابي جعفر المدني : (فصرهن اليك) بالكسر أي قطعهن وشققهن(٥٧) ·

(ض)

الضحضاح : أصل الضحضاح : القليل المتفرق ·
قال : خالد بن كلثوم : ضحضاح في لغة هذيل : الكثير لا يعرفها

غيرهم • يقال : عنده ابل ضحضاح • والى ذلك يومىء قول أبي ذؤيب(٥٨) :

يجش رعــدا كهدر الفحل تتبعــه
ادم تعطف حول الفحل (ضحضاح)

(ط)

الطرف : بسكون الراء • أصل الطرف في لغة العرب : الفرس الكريم • وقد استعارته هذيل للكريم من الفتيان •

قال أبو ذؤيب :

يقولوا قد رأينا خير (طـرف)(٥٩) بزقيــة لا يهــد ولا يخيب

وقال ايضا :

وان غــلاما نيل في عهد كاهــل (لطرف) كنصل المشرفي صريح •

اطرقا : افعلى مقصور • موضع في الحجاز • وعن أبي عمرو بن العلاء انما سمي كذلك بقول : احدهم اطرق أي اسكت ، وكانوا ثلاثة في مفازة فقال أحدهم لصاحبيه (اطرقا) أي اسكتا فسمي به البلد •

وزعموا ان اطرقا جمع طريق بلغة هذيل(٦٠) • وانشدوا لابي ذؤيب :

على اطرقا باليات الخيام الا الثمام والا العصي •

(ع)

العجس : العجس : المقبض والعرب تفتح العين غير هــذيل فهي تكسرها •

قال اميه بن أبي عائذ(٦١) :

على (عجس) هتافة المذروين زوراء مضجعة في الشمال •

العرض : العرض واحد الاعراض : تطلق في لغتهم على الرساتيق • وفي لغة أهل الجزيرة والشام : الاقاليم •

قال البريق : ويروى لعامر بن سدوس(٦٢) :

لنا الغور (والاعراض) في كل ضيعــة
وذلك عصسر قد خــلاها وذا عصــر

العنج : محركة • جاء في الابدال لابي الطيب اللغوي : ٢/٢٢٦ • (العنج ــ بالعين غير المعجمة ــ البعير في لغة هذيل • يقال : رأيت شيخا على عنج • أي شيخا مسنا على بعير • وفي مختصر العين : العنج : بلغــة هذيل الرجل وفيه أيضا : شتيخ على عنج أي شيخ هرم على جمل(٦٣) •

وعن الازهري قال الليث : العنج بلغة هذيل الرجل ويقال بالغين • وفي اللسان (عنج) : والعنج بلغة هذيل الرجل وقيل بالغين • وفيه عن الازهري : ولم اسمعه بالعين من أحد يرجع الى علمه ولا ادري ما صحته •

(غ)

الغنج : بالغين المعجمة ، محركة ، الرجل في لغة هذيل ، يقال : غنج على شنج أي شيخ على جمل ، انظر : مادتا (الشنج ، العنج) اعلاه .

مغاثة : هذيل تقول : ارض مغاثة ، والعرب تقول : ارض مغيوثة ومغيثة ، كأنهم اخذوها من الفعل : أغاث(٦٤) .

(ف)

المفناة : والمفناة والمقناة والمقاناة : الموافقة لكل من نزلها ولغة العرب بالقاف ، ولغة هذيل بالفاء .

قال قيس بن العيزارة :

بما هي (مقناة) انيق نباتها   مرب فتهواها المخاض النوازع

في لسان العرب (قنا) بعد ذكر البيت : قال الاصمعي : ولغة هذيل بالفاء ، وعن أبي عمرو ومفناة بالفاء لهذيل وطي وغيرها(٦٥) .

(ق)

القسورة : في لغة هذيل رماة الوحش وفي لغة قيس وغيرهم : الاسد . وقد فسر قوله تعالى : [فرت من قسورة] الآية ٥١/المدثر على الوجهين(٦٦) .

(ل)

اللد : الحبس ، لده عن الامر : حبسه في لغة هذيل ، عن ابن الاعرابي ، اللسان (لدد) .

قال ابو صخر الهذلي : (الشرح ٢/٩٣٩) :

وحبذا نجلها وقد عرضت   دون النوال بعلات و (أنداد)(٦٧)

اللذون : لغتهم في الرفع ، والاصل فيها (الذين) مطلقا : رفعا ونصبا وجرا .

ومنه قول الراجز :

نحن (اللذون) صبحوا الصباحا   يوم النخيل غارة ملحاحا

وتنسب هذه اللغة الى (**عقيل**) **أيضا**(٦٨) .

الو : ألوت ـ في لغة **هذيل** ـ **قدرت واستطعت**(٦٩) .

قال سويد الهذلي :

القوم أعلم لو ثقفنا مالكا   لاصطاف نسوته وهن (اوالي)

أوالي : فواعل من ألوت(٧٠) .

(**المليث**) : أصل المليث في اللغة : الشدة والقوة . وفي لغة هذيل : السمن الجدل .

قال الهذلي :(٧١) :

وادركت من خثيم ثم (مليثـة) مثل الاسود على اكتافها اللبــد

(م)

متى : متى في لغة هذيل ـ عن الاصمعي ـ بمعنى (من) . قال ذؤيب :

شربن بماء البحر ثم ترفعت (**متى**) لجج خضر لهن نئيج

أراد : من لجيج(٧٢) .

وقال صخر الغي :

متى ما تنكروهـا تعرفوهـا متى اقطارهـا علق نفيث

اراد : من اقطارها (٧٣) .

واختلفوا في قول بعضهم : وضعته متى كمه . فقال ابن سيده : انها بمعنى في . وقال : ابو عبيد بمعنى : وسط كمي (٧٤) .

(ن)

نجـد : نجد و بضمتين ، لغة هذيل خاصة يريدون : نجداً بالفتح . عن الاخفش (٧٥) .

قال ابو ذؤيب : (٧٦)

في عانـة بجنوب السي مشربها غور ، ومصدرها عن مائها (نجد)

وقال غاسل بن غزية : (٧٧)

سرت من الغـوط او من نخلتـين ينشب جانبا نعمـان (فالنجد)

المنكل : اسم الصخر هذلية(٧٨) .

قال الراجز :

فـارم علـى اقفائهـم بمنكـل بصخـرة او عرض جيش جحفل

(و)

الـود : لغة هذيل في الود : الأد .

قال ابو صخر الهذلي :

فكان لهـا (أدي) وريقـة ميعتي وليداً الى ان رأسي اليوم أشهب(٧٩)

وازع : هذيل تقول في وازع : يازع(٨٠) . والى ذلك اشار حصيب :

لما عرفت بني عمـرو (ويـازعهم) ايقنت اني لهم في هـذه قـود

وعن الجمحي : يأزعهم : اراد وأزعهم وهي لغة كنانة يريد رأسهم ·

ولـدة : عن ابن حبيب (الدة) لغتهم في (ولدة)

وبعد ·· فتلك الماعة يسيرة عن لغة هذيل وعساي اوفق الى اجتلاء ما فاتني في عدد قادم ومن الله التوفيق ·

---

(١) جاء في لسان العرب مادة (حرف) في الحديث عن لغات القرآن (··· بعضه بلغة هوازن وبعضه بلغة هذيل (وانظر ابن فارس : الصاحبي : ٢٨ ، وعلي عبدالواحد وافي فقه اللغة : ١١٩ ·

(٢) السيوطي : المزهر (ط · البجاوي وجماعته) : ١/١٠٤ ، ابن جني : الخصائص (دار الكتب) : ١/٤٠٥ الجاحظ : الحيوان (ط · هارون) ٥/٧٦ ·

(٣) ابو الفرج الاصبهاني : الاغاني (دار الكتب) : ١/٣٨٤ ·

(٤) البكري : معجم ما استعجم (ط· السقا) : ١/٨٨ ·

(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد (ط· العريان) : ٦/١٢٤ ·

(٦) عرام بن الاصبغ : اسماء جبال تهامة وسكانها (نوادر المخطوطات) : ٤١٤ ·

(٧) المصدر السابق : ٤٦٥ ·

(٨) ابن الكلبي : الاصنام : ١٤ ·

(٩) انظر عن هذيل : ابن قتيبة : المعارف (دار الكتب) : ٦٤ وما بعدها ، ابن دريد : الاشتقاق : (ط· هارون) : (هذيل) · القلشقندي : صبح الاعشى : ١/٣٤٨ عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب : ٣/١٢١٣ ـ ١٢١٥ ، نهاية الارب : للقلشقندي (ط· الابياري) : ٤٣٥ ·

(١٠) المبرد : الكامل : ٢/٤٢٥ ·

(١١) فحولة الشعراء للاصمعي (تحقيق محمد عبدالمنعم خفاجي) : ٢٧ والكامل : ٢/٥٣٢ ·

(١٢) شرح ديوان الهذليين (تحقيق · فراج) : ١/٢٠٣ واللسان (سنخ) ويبدو مما ذكره (ابن منظور) ان بعض القبائل شاركتها في ذلك ·

(١٣) كامل المبرد : ٤٤٤ وابن عبد ربه : العقد ١/١١ ·

(١٤) الجاحظ : الحيوان : ١/٢٨٦ والبخلاء (دار اليقظة) : ٤٣٤ ·

(١٥) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء (ط· محمود محمد شاكر) : ١١٠ ·

(١٦) الدكتور ناصرالدين الاسد : مصادر الشعر الجاهلي : ٥٦٢ ·

(١٧) المصدر السابق :

(١٨) انظر : المصدر السابق : ٥٤٣ ـ ٥٤٧ ·

(١٩) انظر : بروكلمان (العلمة العربية) : ١/٨٣ وما بعدها ، ومصادر الشعر الجاهلي : ٥٦٣ وشرح ديوان الهذليين (المقدمة) : ٤ ـ ٦ ·

(٢٠) تناول الدكتور ابراهيم انيس في اللهجات العربية ومحاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة بعض ما اختصت به هذيل وكذلك فعل الدكتور علي عبدالواحد وافي في (فقه اللغة) ·

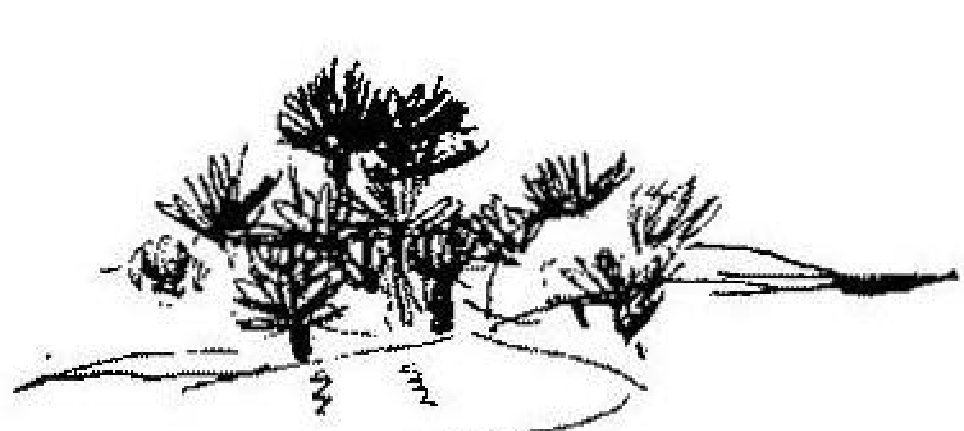
(٢١) الزمخشري : الفائق (ط· البجاوي) : ٢/١١٤ ·

(٢٢) وعزا ابو بكر الرازي في (مختار الصحاح) (نطا) الانطاء الى اهل اليمن ·

(٢٣) أبو الطيب اللغوي : الابدال ج٢/٣١٨ والبيت بغير انطاء في ديوان الاعشى (ط· محمد حسين) القاهرة : ٩٦ ·

(٢٤) مقدمة لسان العرب (ط· صادر) ص ٢٢ ·
(٢٥) اللسان (رحب) ·
(٢٦) شرح ابن عقيل (ط· · محمد محي الدين عبدالحميد) : ٣٥٣/٢ · الرافعي : تاريخ آداب العرب : ١٥٤/١ ·
(٢٧) انظر : شرح ديوان الهذليين : ٧/١ وحماسة ابي تمام شرح المرزوقي : ٥٢/١ وانظر الصحاح (هوى) والمفضليات (ط· هارون) ٤٢١ ·
(٢٨) انظر : جمهرة ابن دريد : ١٧٠/١ ، صحاح الجوهري : ٨٦٢/٢ واللسان وتاج العروس (اتى) · شمس العلوم لنشوان الحميري ط· ليدن ١٩٥١ : ٥٢/١ · شرح ديوان الهذليين : ٢٠٧ ·
(٢٩) شرح ديوان الهذليين : ١٨٤/١ · اللسان (اذذ) ·
(٣٠) ابن فارس : المقاييس : ١٢٧/٤ · اللسان (ازز) · وانظر : المذكر والمؤنث لابي موسى الحامض (مخطوط) مكتبة المتحف العراقي ص ٨٣ ·
(٣١) المقاييس : ١٦٣/١ ولم يرد في اللسان (اير) ما يشير الى اقتصارها في هذيل·
(٣٢) اللسان والمحكم (بوع) وروى البيت في ديوان الهذليين : ١٤٣/١ : وتسمين باعا ··
(٣٣) شرح ديوان الهذليين : ٣٥٤/١ ولم يرد في معجمات (اللسان ، الصحاح ، القاموس المحيط) ما يشير الى عزوها لهذيل ·
(٣٤) شرح ديوان الهذليين : ١٣٧/١ ·
(٣٥) شرح ديوان الهذليين : ٣٢٩/١ ·
(٣٦) الفائق للزمخشري : ١١٤/٢ ·
(٣٧) الفائق : ١١٤/٢ ، شرح ابن عقيل ١٠/٢ والرافعي ١٣٩/١ ·
(٣٨) البكري : معجم ما استعجم : ٤٥٥/١ ·
(٣٩) البيت الاول في شرح ديوان الهذليين : ٨/١ والثاني في : ١٧٧ من الجزء نفسه ·
(٤٠) الصحاح (خزم) ومزهر السيوطي : ١٢٩/٢ · وشرح الديوان ·
(٤١) جاء في اللسان (خوف) والعرب تقول تخوفته أي تنقصته من حافاته · قال : وقد أتى التفسير بالحاء ·
(٤٢) شرح ديوان الهذليين : ٥٣/١ · اللسان والصحاح : (وكف) ·
(٤٣) شرح الديوان ٢٠٧/١ الصحاح واللسان (ريب) ·
(٤٤) اللسان (ربد) ·
(٤٥) المقاييس : ٤٣٩/٢ ·
(٤٦) الرافعي : ٢٠١/١ ولم يرد في اللسان (رجا) ذكر لهذيل
(٤٧) ابن جني : التمام : ١٣٧ وشرح ديوان الهذليين : ٨٤٨/٢ ·
(٤٨) شروح ديوان الهذليين : ٥٣/١ واللسان والصحاح (سأب) ·
(٤٩) اللسان (سيد) ·
(٥٠) امالي القالي (دار الكتب) : ١٠٦/١ اللسان والصحاح (سرح) · شرح الديوان : ٢٨٥/١ ·
(٥١) الميداني : مجمع الامثال (ط· محي الدين عبدالحميد) : ٣٢٨/٢ ·
(٥٢) ابن فارس : المقاييس : ١٤٥/٣ ·
(٥٣) ديوان المزرد ـ تحقيق كاتب المقال ـ بغداد ١٩٦٢ : ٣٧ ·
(٥٤) اللسان والصحاح (شيح) امالي القالي : ٢٥٨/١ ، ٢٩٢/٢ · وفي شرح الديوان : ١٢١/١ ·
(٥٥) اللسان (شيج) ·

(٥٦) اللسان والقاموس المحيط (شنج) .
(٥٧) اللسان (صر) .
(٥٨) اللسان (ضحضح) ، شرح ديوان الهذليين : ١٦٧/١ .
(٥٩) شرح الديوان : ١٠٧/١ .
(٦٠) البكري : معجم ما استعجم : ١٦٧ وما بعدها واللسان وتاج العروس (طرق) . والبيت في الديوان : ١٠٠/١ وليس في معجم البلدان (ط . صادر) مج ٢١٨/١ ما يشير الى هذيل .
(٦٥) أنظر ايضا : التمام — لابن جني : ١٨ . وشرح ديوان الهذليين : ٥٩٣/٢ .
(٦٦) ديوان امرىء القيس (ط . ذخائر العرب) : ٣٥٩ وانظر الصحاح (قسر) وتفسير البيضاوي : ٨٠٠ .
(٦٧) اللسان (نيث) ولم أجد البيت في ديوان الهذليين ولا شرحه . ولعله ساقط من قصيدة ابي ذؤيب الدالية : ٥٦/١ — ٦٤ .
(٦٨) انظر شرح ابن عقيل : ١٢٥/١ وتسبها الى هذيل حسب . وتسبها الازهري : في شرح التصريح على التوضيح : ١٣٣/١ وفي نوادر ابي زيد : ٤٧ نسب شطرا الرجز لابي حرب الاعلم العقيلي . ويؤكد الدكتور أنيس في (اللهجات العربية) : ٨٣ نسبتها الى (عقيل) لاغراقهم في البداوة .
(٦٩) ...
(٧٠) التمام : ١٣٦ .
(٧١) شرح الديوان ٨١٣/٢ .
(٧٢) ديوان الهذليين (دار الكتب) : ٥٠/١ ، شرح الديوان : ١٣٩/١ . الخصائص ٨٥/٢ ويروى البيت : على حبشيات لهن زئيج .
(٧٣) شرح ديوان الهذليين : ١٢٩/١ ويروى في : ٢٦٤/١ منه : لدى اقطارها علق نفيث .
(٧٤) انظر شرح ابن عقيل : ٥/٢ وابن هشام : المغني ط . محي الدين : ٣٣٤/١ وصحاح الجوهري (متى) وابن فارس : الصاحبي : ١٤٥ .
(٧٥) اللسان (نجد) .
(٧٦) شرح ديوان الهذليين : ٥٧/١ .
(٧٧) المصدر السابق : ٨٠٦/٢ .
(٧٨) اللسان (نكل) . التمام لابن جني : ١٦٧ .
(٧٩) شرح الديوان : ٩٣٩/٢ .
(٨٠) المصدر السابق : ٣٣٧/١ .



فولتير ثورة على الطائفية

ابراهيم الخال

قال المسيو (آرو) وهو يحدث بعض أصدقائه عن أهل بيته وقد أخذ منه الاسف والحزن كل مأخذ :

« ٠٠ وان لي ولدين مخبولين : جن أحدهما بالسجع والنثر ، وجن الاخر بالشعر » ٠

وكان ولده الكبير أرمان هو المجنون الناثر ، وقد كان بمثابة المعلم لاخيه الصغير (فرانسوا) ، ثم بقي كذلك الى أن حكمت عليه احدى المحاكم الدينية بالموت بتهمة (الهرطقة) والمروق عن الدين ٠ أما المجنون الشاعر ، فهو فرانسوا ، الشاعر الثائر الذي قدر له أن يحكم على السلطة الكنسية ومحاكمها الدينية بالموت بعد أكثر من نصف قرن من هذا الحديث ٠

وفرانسوا هذا ، هو (فرانسوا ماري آرو) ـ فولتير ـ أعظم عباقرة فرنسا في القرن الثامن عشر ، بل والعبقري النابغة الذي لم تنجب فرنسا له صنوا أو مثيلا في أي عصر من عصورها التاريخية ، وحتى هذا اليوم ٠

لقد عاش فولتير حياة طويلة حافلة بالاحداث المرة ، لكنه استطاع أن يشق طريقه بقدم ثابتة نحو تحقيق الاغراض التى كان يرمي اليها ، بفضل حيوية أفكاره ، وقد كان على درجة من التأثير في الناس بحيث راحت العروش ترتجف عند ذكر اسمه ؛ وبحيث راح يتملقه ويطلب صداقته الاباطرة والبابوات ٠

قال فكتور هوغو وهو يتحدث عن فولتير في احدى خطبه : « انك عندما تذكر فولتير ، فانك تجسد بذلك احداث القرن الثامن عشر برمتها » ٠

وقال عنه (مورلي) في كتابه الرائع (فولتير) : « لقد كانت حياته حافلة بالحيوية بحيث ملأ بها القرن الثامن عشر كله » ٠

وقال عنه (لامرتين) : « اذا كان لنا أن نحكم على الناس بما أنجزوه من أعمال ، فاننا نعتبر فولتير أكبر كتاب أوربا الحديثة دونما شك ٠ لقد

منحته الحياة أربع وثمانين سنة من العمر فكان له فيها متسع من الوقت لسحق مساويء ذلك العصر الفاسد . وعندما انتهت سيرة حياته وسقط ميتا ، كانت كل الشواهد تشير الى أنه هو المنتصر » .

والاسم (فولتير) لم يكن من أسمائه الحقيقية الاصيلة بحال ، انما اتخذه هو لنفسه لتوقيع كتاباته وأشعاره به لاسباب ما زالت مجهولة بالنسبة لمؤرخي سيرته ، وذلك عندما كان نزيل سجن الباستيل في مطلع شبابه كما سنعرضه للقاريء في هذا المقال .

ولد (فرانسوا ماري آرو) في باريس عام ١٦٩٤ من أبوين ثريين، فقد كان والده كاتب عدل مدينة باريس ، ومن الناس ذوي اليسار ، كما كانت أمه من الطبقة الارستقراطية الفرنسية المعروفة بالبذخ والترف .

وكان يوم مولد فرانسوا شبيها بيوم مولد روسو الذي جاء الى الدنيا بعده بثمانية عشر عاما ، اذ لم تستطع أمه مقاومة الام الوضع فماتت اثر ولادته . وهكذا حياة النابهين : نبوغ ينطلق من قرارة الموت والحزن والالم .

وكانت القابلة التي سهرت على ولادته قد قررت بأنه سوف لا يعيش يوما أو بعض يوم بسبب ما كان عليه يوم مولده من ضعف وهزال . وتشاء الاقدار أن يخيب فأل تلك القابلة ويعيش الوليد مدة أربع وثمانين سنة ، سلم في نهايتها برميل البارود الذي صنعه خلالها الى ميرابو ودانتون ومارا وروبسبير ليفجروه تحت كيان النظام الاوتوقراطي الفرنسي الظالم الذي زالت بزواله السلطة الكهنوتية التي خضبت بجبروتها صعيد أوربا بالدماء البريئة ، الى الابد .

والمعروف عن فرانسوا الطفل ، أنه بدأ ينظم الشعر منذ اليوم الذي تعلم فيه القراءة والكتابة . فلقد ورث عن أبيه ذكاءه بالاضافة الى حدة مزاجه ، كما ورث عن أمه روح الفكاهة والنكتة .

وكانت شكوى أبيه تزداد يوما بعد يوم كلما ازداد ميل ولده الى الادب ونظم الشعر ، اذ كان يخشى أن يصبح الادب حرفة له ، ومحترفو الادب ، كما كان شائعا انذاك ، يعيشون مفلسين ، لا يقدرون على تدبير شؤونهم المعاشية في شيء .

لكن فرنسوا أصر على المضي في هذا السبيل . وقد شهدته يوما احدى العجائز من أصدقاء العائلة ، وكانت ذات يسار ، ولها ميول أدبية فلمست فيه علائم النبوغ والابداع ، وهو ما دعاها الى أن توصي له بألفي فرنك بعد وفاتها ليشتري بها الكتب التي يميل الى قراءتها . وكان الطفل قد استمد الكثير من تعليمه الاول من هذه الكتب ، ثم من رئيس دير فاسق ، جعله سلوكه الشائن ينظر بعين الشك الى الدين .

وكان ممن تعلم عليهم أيضا ، الجزويت الذين كانت طريقتهم الجدلية في المسائل الدينية والعلمية قد جعلت من نزعة الشك الموجودة عنده

شيئا أصيلا • وفي الوقت الذي كان أترابه يقضون أوقاتهم في اللهو واللعب عندما بلغ الثانية عشرة من عمره ، كان هو يجلس الى كبار رجال اللاهوت يشاركهم في الجدل وكأنه رجل من سنهم •

واذ يبلغ فرنسوا سن البلوغ ، نراه يترك حياة الدراسة جانبا بعض الشيء ، وليس له من شغل شاغل غير نظم ما يسعفه به خياله الواسع من رائع الشعر في النهار، وليمضي في الليل يلهو ويلعب ويعربد ويتبادل النكتة مع رفاق عابثين ، وهو سلوك أسخط أباه عليه سخطا كبيرا •

فلما لم يعد الاب يطيق طيش ولده وعبثه ، بادر الى ارساله الى أحد أصدقائه في مدينة (كين) وطلب منه أن يحتجزه في أحد غرف بيته مدة من الزمن كتدبير لابعاده عن حياته العابثة في باريس • غير أن صديق أبيه ما لبث أن أحب نكات فرنسوا وروحه المرح فأشفق أن يبقى سجينا لديه ، وأطلق سراحه ليعود ثانية الى باريس • عند ذلك رأى أبوه أن يبعده الى خارج فرنسا صحبة صديقه السفير الفرنسي الذي كان في طريقه الى مدينة لاهاي ، موصيا اياه بوضعه تحت المراقبة الشديدة •

وعندما استقر به المقام في لاهاي ، استطاع أن يكون له علاقة غرامية بفتاة شابة تدعى (بمبيت) ، كان خلالها يزورها زيارات سرية مشبوهة ، كما كان يكتب لها رسائل غرامية مليئة بالعواطف المشبوبة ، وكان يختتم رسائله تلك دائما بعبارة يقول لها فيها « سأحبك الى الابد » •

ولقد استطاع السفير اكتشاف هذه العلاقة غير البريئة ، فاضطر الى ارساله على جناح السرعة الى باريس مخبرا أباه بأن لا أمل في اصلاح ولده اللعين •

وكان فرنسوا يوم عاد من هذا المنفى غير السياسي ، في الحادية والعشرين من عمره ، اذ كان العام ١٧١٥ • لكن حياته بقيت على نفس المنوال اذ لم يكن يهتم بشيء غير العبث ونظم الشعر • شيء واحد بدأ واضحا عليه في هذه السن ، وذلك هو أن سخريته ونكاته كانت تبدو لاذعة كلما تقدم به العمر ، وان القسم الكبير من تلك النكات قد بدأت توجه نحو السياسة والكنيسة •

وفي عام ١٧١٥ ، كان لويس الرابع عشر قد توفي • وكان هذا الطاغية قد انفق من مال الشعب الكثير اذ كان يتصور نفسه هو الدولة • وكانت فرنسا عند وفاته في ضائقة مالية حادة ، بل وحتى البلاط نفسه كان يعاني معاناة كبيرة منها •

وكان ابنه لويس الخامس عشر يوم وفاته في سن لا تساعده على حكم بلاده ، لذلك أصبح هناك في فرنسا وصي على عرشها •

وذات يوم ، فيما كان هذا الوصي يتجول في حدائق فرساي ، التقى بطريق الصدفة بفرنسوا فبادره بالقول :

ـ فرنســوا !
ـ نعم أيها السيد الوصي ٠
ـ سأريك شيئا لم تره في حياتك قط ٠
ـ وما هو هذا الشيء ؟
ـ غرف سجن الباستيل ٠
ـ ولمـاذا ؟
ـ أنت تعرف ٠

وفي اليوم التالي ، وكان ذلك في السادس عشر من نيسان عام ١٧١٧ بر ذلك الوصي بوعده للشاب الساخر عندما أصبح هذا من نزلاء السجن الرهيب ٠

وتتلخص قصة دخول فرنسوا السجن ، في ان الضائقة المالية بعد وفاة لويس الرابع عشر ، قد اضطرت الوصي على العرش على بيع نصف الخيول التي كانت موجودة في الاصطبلات الملكية ، وهو حدث كان موضع احاديث الناس في العاصمة الفرنسية انذاك٠ وعندما سمع فرنسوا بما صنعه الوصي بخيوله ، أطلقها نكتة ساخرة اهتزت لها باريس بالضحك على البلاط الملكي لما تميزت به من جرأة ممزوجة ببراءة شاب طائش كـــان لا يعرف المعنى الذي تنطوي عليه عبارة (معاداة البلاط) تلك الايام ٠

وكان فرانسوا قد علق على بيع الخيول قائلا : « كان من الانفع لفرنسا وللوصي ، لو أنه باع نصف حمير البلاط أيضا » ـ يقصد بذلك العدد الضخم من موظفي البلاط والحاشية التي كانت تستنزف مصروفاتهم الخزينة العامة لفرنسا ـ ٠

ولقد وصلت هـذه النكـتة مسـامع الحاشـية ، ثـم الوصي ، بالاضافة الى قصيدتين لفرانسوا يسخر بها منه بسبب ما كان يشاع عنه بأنه يحاول أن ينصب نفسه ملكا جديدا ٠

ومهما تكن الحال ، فقـد أصبح فرانسـوا نزيل الباستيل ، وكان يومها في الثالثة والعشرين من العمر ، نحيف الجسم ، ضعيف البنية ما كان باستطاعة أحد أن يتصور انه سيستطيع العيش فيــه أكثر من اسبوعين أو شهر ٠٠

لكن فرانسوا الذي كان يتمتع بروحية صقر كاسر يومها ، استطاع أن يمضي فيه أحد عشر شهرا بالتمام دون أن يستطيع الباستيل النيل منه أو التغلب على روحه الوثابة ٠

وفي السجن وضـع ملحمته الشـعرية الـ (هنرياد) التي تضمنت قصة (هنري نافار) ـ وبعد أن فرغ من نظمها وقعها باسم (فولتير) ، وهو اسم جديد لم يستعمله من قبل أبدا وقـد اتخـذه لاسباب ما زالت مجهولة على مؤرخي سيرته ٠ لكن (كارليل) يعتقد بأنه ناتج عن تغيير مواقع حروف الاسم (آرو الاصغر) ، بينما هناك من يعتقد ، ومنهم جون

روبرتسن ، بانه اتخذه احياءا لذكرى والدته ، حيث كان بين بعض أفراد عائلتها من يحمل الاسم (فولتير) . ونحن نميل أيضا الى هذا الاعتقاد .

لقد تغلب فولتير على آلام الباستيل الرهيب بأن اشغل نفسه بقرض الشعر وخاصة ال (هنرياد) دونما شك . فالانسان اذا ركز ذهنه في عمل معين ، فانه لابد أن سينسى آلامه ويجتاز محنته بنجاح . وبهذه المناسبة ، لابد من الاشارة الى أن فولتير كان قد سبق علماء النفس المعاصرين بقرنين عندما قال ، كما يروي (تولنتاير) : « اذا أردت أن لا تنتحر ، فان عليك أن تشغل نفسك بشيء على الدوام » . ولقد التزم فولتير بهذه القاعدة طيلة حياته ، بل وانه تطرف في ذلك لدرجة انه كان يشتغل في أعماله الفكرية حتى فيأوقات راحته فقد كان، كما ذكر سكرتيره ، في (الرومانسيات) « لا يبخل بشيء ، عدا وقته ، على أحد » . وكثيرا ما سمعنا فولتير يقول : اني كلما تقدمت في العمر ، وجدت الانهماك في العمل اكثر ضرورة .. ان عدم انشغالك بشيء ما ، وعدم وجودك شيء واحد . لذلك فلن نستغرب كثيرا عندما نعلم بأن فولتير كان قد وضع خلال حياته تسعة وتسعين مؤلفا ، فرض فيها طابع شخصيته الجبارة وأفكاره ذات الدينامية الواعية على جميع التحركات الثورية التي شهدها القرن الثامن عشر .

ولا نريد الاسترسال في مناقبه وقد تركناه قبل حين في الباستيل . فلقد كان هناك من أصدقاء أبيه من راح يتشفعه لدى الوصي ويقنعه ببراءة الشاب . وأخيرا نجحت تلك المساعي فأطلق سراحه واستدعاه الوصي وخصص له راتبا شهريا بعد أن أخذ منه موثقا أن لا يعود الى السخرية لا من رجال البلاط ، ولا من القساوسة .

لكن فولتير أصدر عام ١٧١٨ ، أي بعد فترة وجيزة من خروجه من الباستيل ، مسرحيته الخالدة (أوديب) ، وهي مأساة مثلت مدة تسع وأربعين ليلة متوالية على المسرح في باريس ، وهو ما لم يحدث مثله في تاريخ المسرح الفرنسي ، نظرا لشدة اقبال الناس على مشاهدتها . وكان والده الشيخ الذي اتهمه بالخبال يوم كان طفلا ، والذي حاول أن يصده عن الادب ، (حرفة المفلسين) ،قد فرح كثيرا باقبال الناس على مسرحية ولده الشاب فحضر المسرح ذات ليلة لمشاهدتها . وكان الجالسون في المقاصير المجاورة لمقصورة الشيخ (آرو) يسمعونه يهتف عند كل كلمة مثيرة تصدر من فم أبطال الرواية قوله وهو (ينثني) على عبقرية ابنه هاتفا : « يا للخبيث .. يا للخبيث » !!

وفي (اوديب) لم يتمسك فولتير بالموثق الذي أعطاه للوصي بحال. فلقد تردد خلالها على المسرح صوت يقول : « أن قساوستنا هم غير الناس الذين يتصورهم البسطاء من أبناء الشعب . ان جميع تعاليمهم مستمدة من سلامة نياتنا .. فلنثق بأنفسنا ، ولنتفحص كل شيء بعيوننا نحن ، وليكن ما نراه وحينا ، وثالوثنا ، والهتنا » .

وكانت تراجيدية (اوديب) قد عادت على فولتير بأربعة الاف فرنكا، كما انها ، بالاضافة الى الـ (هنرياد) التي طار صيتها ، قد ركزت عليه الابصار فأصبح موضع عناية صالونات الطبقة الارستقراطية التي راحت تبذل له الغالي والرخيص في سبيل الظفر به واستنساره في اطارها ، فكان لها بادىء الامر ما أرادت ، اذ بقي فولتير في ذلك الاطار الاجتماعي مدة ثماني سنوات كان خلالها فتى سيدات الصالونات المدلل ، كما أصبح خلالها أيضا قبلة أنظار أدباء أوربا كلها بما تفتقت عنه عبقريته من نظم ونثر .

وعائلة فولتير من العوائل ذات الوشائج المرتبطة بالطبقة الارستقراطية ، خاصة من ناحية أمه . غير أنها لم تكن تحمل اسما من أسماء النبلاء . وكان اقبال تلك الارستقراطية واحتضانها لفولتير في هذه الفترة من صعود نجمه ، قد بدأ يغيظ الكثير من نبلاء الارستقراطية المتعجرفين الذين كانوا يرون انفسهم بأنهم يفوقونه مركزا ومحتدا .

وذات يوم ، عندما كان فولتير منطلقا على سجيته في النكتة والسخرية في قصر الدوق دي سولي ، اغتاظ منه الشيفاليه دي روهان فالتفت من محله البعيد عن فولتير وصاح غاضبا : « من هذا الفتى الغر الذي يتكلم بمثل هذا الصوت العالي بحضورنا ؟ » . فما كان من فولتير الا أن رد عليه في الحال قائلا : « انه ليس ممن يحملون اسما كبيرا من أسماء النبلاء ، انما قد اكتسب احترام الناس بسبب الاسم الذي يحمله » .

وكان دي روهان من الشخصيات المنيعة الجانب في أيامه ، كما كانت اغاظته وازعاجه في شيء جريمة لا تغتفر ، فما عسى أن يفعله دي روهان وقد تلقى هذه الصفعة من فولتير ؟ .. هل يقتله ؟ ان ذلك سيقيم فرنسا ويقعدها فقد تملك هذا الشاب قلوب أبناء الشعب وراح البلاط يحسب له ألف حساب . واذن فلابد من الغد .

لقد جمع دي روهان عصابة من أوباش غلمان اصطبلاته وأمرهم أن يكمنوا له في الطريق ليلا ويهاجموه عند مغادرته القصر ، ويشبعوه ضربا مبرحا .. وكذلك كان يعمل النبلاء .

ولقد نفذ هؤلاء الاوباش ما امرهم به دي روهان فعلا . وفي اليوم التالي ، دخل فولتير دار الاوبرا معصوب الرأس وكان يسير متكئا على عصا ، اذ كانت ساقه مرضوضة لفرط ما نالها من الضرب .

وبعد ان اصبح فولتير داخل الاوبرا ، أدار بصره في مقاصيرها ، ثم توجه مباشرة الى المقصورة التي يجلس فيها الشيفاليه دي روهان . وبدون أن يحييه بأية كلمة ، دعاه الى المبارزة على رؤوس الاشهاد في اليوم التالي .

ولقد جن جنون دي روهان لهذه الدعوة وهذا التحدي . ودي روهان من فرسان فرنسا المجلين في ميادين المبارزات . لكن النظرات الحديدية التي كان يسددها اليه فولتير عندما دعاه الى المبارزة قد اطارت صوابه وتركته في فزع وهو يتأمل سوء المنقلب لو ان هذا الاديب الشاب الناحل الجسم ،

ذا الروحية الجبارة تمكن منه وتغلب عليه يوم غد في الميدان ·

لذلك بادر دي روهان فورا الى الاجتماع بابن عمه ، مدير شرطة باريس ، وأوضح له المسألة وطلب منه القاء القبض على فولتير قبل موعد المبارزة ، والقائه في السجن ·

وفي اليوم التالي ، كان فولتير مشغولا بالتمرين على المبارزة عندماداهمت بيته ثلة من افراد الشرطة اقتادته معها ليرى نفسه نزيل الباستيل من جديد ·

لكن اعتقال فولتير على هذه الطريقة كان قد مثل فضيحة لدي روهان اذ بدأ خصومه من النبلاء يلمزون ويلمحون الى ان الاعتقال كان يعني اكثر من هزيمة لدى روهان · وكان دي روهان على يقين من ان فولتير سوف لايغتفر له ما انزله به من اهانة وأذى ، وانه سيبقى على موقفه في طلب المبارزة عند اطلاق سراحه · لذلك كان الحل الوحيد الذي ارتآه دي روهان واصدقاؤه من كبار رجال البلاط ، هو طمس فضيحة اعتقال فولتير بنفيه الى انكلترا · لذلك لم يطل مقام فولتير في الباستيل ، فقد اطلق سراحه بعد مدة قليلة من اعتقاله وطلبت منه الحكومة مغادرة فرنسا الى بريطانيا في الحال ·

ولقد سفر فولتير مخفورا الى الساحل الفرنسي الشمالي · ثم ودعه حراسه عندما أصبح على ظهر السفينة التي اجتازت به القنال الانكليزي الى انكلترا ، غير انه رفض النزول من السفينة ، وعبر القنال ثانية عائدا الى فرنسا وفي نيته ان ينتقم من أعدائه مر الانتقام · وعندما استقر به المقام في شمالي فرنسا ، جاءه من أصدقائه من يخبره بأن عودته الى البلاد قد أصبحت معلومة لدى الحكومة ، وان الشرطة تجد في البحث عنه لاعادته الى الباستيل · عند ذلك غادر الاراضي الفرنسية على جناح السرعة ويمم نحو الاراضي البريطانية التي قضى فيها ثلاث سنوات هي المدة من ١٧٢٦ الى ١٧٢٩ ·

وها هو ذا فولتير الان وقد وجد نفسه فجأة بين ظهراني الشعب البريطاني الذي جعل من بلاده قلعة من قلاع الحرية الجبارة في الوقت الذي كانت تعيش فيه الشعوب الاوروبية في سجون رهيبة احتفظ بمفاتيحها القساوسة والطبقة الارستقراطية في القرن الثامن عشر · وهنا في انكلترا ، لم يجد فولتير اثرا لـ « الرسائل المختومة » التي يصدرها موظفو البلاط البطرون ، والنبلاء العاطلون عن العمل ، ليذهبوا بالابرياء من ضحاياهم من عامة ابناء الشعب الى زنزانات الباستيل الرهيبة دونما تحقيق أو محاكمة · بل انه لم يجد أثرا لسجن شبيه بالباستيل ، او رقيب على المطبوعات يأمر بحرق كتب العباقرة من المؤلفين ، أو قساوسة جعلوا من الاديرة سجونا للحريات ومباءة للتفسخ الخلقي بعد ان كان المفروض فيها أن تكون خالصة لعبادة الله ·

عند ذلك يتذكر فولتير بأنه يعيش يومه على الارض التي درج عليها شاعر بريطانيا العظيم وبطل حريتها « جون ملتن » الذى افنى حياته دفاعا عن حرية ابناء شعبه والذي لم يستسلم للضيم يوما حتى عندما فقد بصره وانزوى فى احد احياء لندن الفقيرة القصية لينظم قصيدتيه الخالدتين، « الفردوس المفقود » و « الفردوس المستعاد » قبل أن يموت • كذلك يتذكر بأن ثمار الحرية هذه كانت من حصاد سيف كرومويل الذى انتصر للبرلمان ثم بقي مجردا يحول دون عودة آل ستيوارت الى العرش • وانها من نتاج جهود عباقرة أمثال « هوبز » (١٥٨٨ ــ ١٦٧٩) الذى نقل روحية الشك بالكهنوت المسيحي التي امتاز بها عصر النهضة الى بلاده ، و « جون لوك » (١٦٣٢ ــ ١٧٠٤) صاحب الاراء اللامعة في العقد الاجتماعي ، وصاحب الرسالتين الشهيرتين « في الحكومة المدنية » و « في الفهم الانساني » ، وغيرهما امثال كولنز وتايندال من الذين كانوا يؤمنون بالله ويدعون الناس الى رفض دعاوى الكنيسة وقساوستها في استعباد الناس وسوق مخالفيها الى الموت الزؤام حرقا بالنار أو تمزيقا على الخوازيق •

كل هذا وغير هذا كان قد تذكره فولتير وهو يتحدث الى عباقرة المفكرين الانكليز أمثال لورد بولينجبروك واديسون سويفت وبوب وغيرهم ممن كانوا يتكلمون بحرية وينشرون آراءهم في بلادهم ويقدمونها الى المطابع ايضا بحرية قد لاتخطر على بال أوربي في القارة •

ولقد شهد فولتير بالاضافة الى ذلك في بريطانيا ، حاكما يمكن ان يقال بانه أنزه واقوى الحكام الذين شهدتهم الشعوب الاوروبية حتى ذلك التاريخ ، وذاك هو البرلمان •

وكان فولتير قد تعرف على كبار الكتاب الانكليز عن طريق صديقه السياسي والمفكر الانكليزي ، لورد بولنجبروك ، فكان موضع احترامهم وحفاوتهم جميعا ، وغالبا ماكان ضيفهم المكرم في بيوتهم عند تناول طعام العشاء • لكن اعظمهم محبة له دونما شك ، كان بولنجبروك فقد كان فولتير اثيراً لديه للغاية ، كما كان هو بدوره أثيراً لدى فولتير •

ولم تشهد انكلترا من أجنبي استطاع ان يسيطر على اللغة الانكليزية بالسرعة التي سيطر بها عليها فولتير • ذلك انه خلال سنة واحدة من اقباله على دراستها ، أصبح اماما من أئمة اللغة الانكليزية اذ سيطر بذكائه الوقاد على جميع آدابها وفلسفتها مما أذهل معاصريه من مشاهير الادباء ورجال الفكر الانكليز •

وكان اكبر من تأثر به فولتير من المفكرين الانكليز ،هو اسحاق نيوتن• ولقد اصبح فولتير من بعد تلميذا أمينا لنيوتن في كل ما كتب ، كما أصبح اكبر داعية لارائه في فرنسا الى آخر ايام حياته • ولقد سار فولتير في المقدمة مع بولنجبروك ودين سويفت واديسون وغيرهم من المفكرين الانكليز في جنازة نيوتن ، وقد ادهشه واقع الحال ذلك اليوم عندما خرجت

لندن بقضها وقضيضها لتشييع العبقري العظيم الى مثواه الاخير ، وهو مابقى يذكره طوال حياته ·

وباستطاعتنا الان ان نمضي جازمين الى القول بأن القنبلة الاولى التي سددت الى النظام الاوتوقراطي الاستبدادي الفرنسي عام ١٧٨٩ لم تصنع في فرنسا ، انما في بريطانيا حيث عكف فولتير على احكام صنعها مدة ثلاث سنوات · ذلك ان فولتير كان قد هضم خلال هذه المدة جميع الاداب والعلوم والفلسفة الانكليزية وتأثر بها تاثرا بالغا · وكان ثمرة ذلك هو « الرسائل الانكليزية » التي سجل فيها انطباعاته عن المجتمع الانكليزي وما يتمتع به الناس هناك من حريات ، يقابلها ظلم صارخ واضطهاد في فرنسا ·

فـ « الرسائل الانكليزية » جملة وتفصيلا ، كانت في الواقع دعوة صريحة وجهها فولتير الى الشعب الفرنسي للثورة واسترجاع حقوقه السليبة من الارستقراطية الباغية ورجال الكنيسة الذين أذاقوه الذل والهوان بقذف خيرة ابنائه الى زنزانات الباستيل الرهيبة جوابا على كل نقد يوجه الى السلطة الكنسية ·

ولم يدر بخلد الوصي على عرش فرنسا بأن في جعبة فولتير مثل هذه الرسائل التي قدر لها مع غيرها أن تعصف بعرش آل بوربون ، عندماأرسل له الى انكلترا اذنا بالرجوع الى فرنسا عام ١٧٢٩ · وفي فرنسا ، كان من المستحيل بالنسبة لفولتير نشر تلك الرسائل ، خاصة وانها تتضمن مديحا وثناءا على « البيون الغادرة » ـ انكلترا ـ بالاضافة الى التحريض على الثورة ، وهو مالا يتفق وذوق الرقابة الملكية على المطبوعات بحال ·

كان الكتاب والكاتب من الاعداء التي ترتعد منها الكنيسة والارستقراطية فرقا ورعبا في القرن الثامن عشر في فرنسا · لقد شعرت تلك الارستقراطية وتلك الكنيسة بأن نهايتيهما ستقرران في ذلك القرن دونما شك ، لذلك فانهما راحتا تسيران جنبا الى جنب في اضطهاد احرار الفكر ومؤلفاتهم ما استطاعتا الى ذلك سبيلا · لقد قضى ديدرو مدة ستة اشهر في سجن فنسان اللعين بسبب رسالته عن « العميان » · وفي عام ١٧٥١ ، أجبر رجال الدين العالم « بوفون » على التبرؤ من افكاره وآرائه في « قدم الارض » علنا أمام الرأى العام · وفي تلك الايام أيضا ، القي بالكاتب النابغة « فيريه » في غياهب الباستيل بسبب وضعه رسالة ناقش فيها مصادر السلطة الملكية في فرنسا · وكاد جان جاك روسو أن ينزل ضيفا على الباستيل أيضا لولا أنه لاذ بالفرار عند صدور كتابه « أميل » الذى صودر واحرق · ويقول « روبرتسون » بأن مرسوما ملكيا كان قد صدر في باريس عام ١٧٥٧ ، تضمن انزال عقوبة الموت بكل مؤلف يناقش أية مسألة تتعلق بالمعتقدات المسيحية التي كانت سائدة آنذاك ·

ولقد بقيت سياسة حرق الكتب المخالفة لآراء الكنيسة والطبقة الحاكمة ، سائدة حتى عام ١٧٨٨ ، ثم عادت الى الظهور من جديد عام١٨١٥

عندما عاد آل بوربون الى الحكم • أما في الفترة النابوليونية ، فان الكورسيكي الشاب كان يقول متأسفا بأنه « كان باستطاعة آل بوربون انقاذ أنفسهم لو انهم سيطروا على وسائل الكتابة والنشر : لقد أدى ظهور المدفع الى قتل النظام الاقطاعي ، أما الحبر ، فانه سيقتل الهيئة الاجتماعية الحديثة • »

ويحضرنا بهذه المناسبة كلام لويس السادس عشر ، اذ قال عندما ادخل السجن ووجد فيه بعض كتب فولتير وروسو : « ان هذين الرجلين قد قتلا فرنسا » •

ومهما تكن الحال ، فقد عاد فولتير الى فرنسا عام ١٧٢٩ ، وكان أول شيء عمله في باريس هو مبادرته الى شراء جميع بطاقات اليانصيب الحكومي دفعة واحدة ، اذ اكتشف بأن هناك ايادي غير نظيفة وراء اليانصيب ، وانه بشرائه جميع البطاقات سيربح ربحا وفيرا ، وهو ما حدث فعلا اذ ملأ حقائبه بالفرنكات الذهبية ومضى في طريقه يضحك ويطلق النكتة اثر النكتة ساخرا من الحكومة التي تركها تتميز من الغيظ بعد أن أصبحت موضع ضحك الجمهور بسبب نكات فولتير •

بعد ذلك أمضى فولتير في باريس مدة خمس سنوات كان خلالها ملء سمع المجتمع الفرنسي وبصره • وهو بعد أن أصبح على جانب كبير من الثراء ، فقد راح يبذل العطاء للبائس والمسكين ، وكأنبل ما يكون عليه الرجل الجواد الكريم من خلق رفيع •

ولم تكن « الرسائل الانكليزية » قد أصبحت كما مهملا خلال هذه المدة أبدا • لقد بدأ اصدقاء فولتير يستنسخونها باليد فور وصولها الى فرنسا ، ثم راحوا يتداولونها لاغراض القراءة ، فكانت تصل الى من يوثق بهم باستمرار • واخيرا ، فقد شاءت الصدف أن تقع الرسائل بيد أحد الناشرين من ذوي الطمع ، فبادر هذا الى طبعها دون الحصول على اذن بذلك من فولتير ، ثم راح يوزعها ويبيعها على نطاق واسع ، فثارت ثائرة الحكومة والكنيسة عليها ، وأصدر برلمان باريس امره بمصادرتها واحراقها فورا على اعتبار انها « فضيحة واعتداء على الدين والاخلاق والسلطة » • وعندما علم فولتير بكل ما حدث ، أيقن بأنه لابد وان سيلقى به في غيابة الباستيل في هذه الساعة أو تلك ، فقرر الهرب •

ولقد هرب فولتير مع عشيقته المركيزة « دوشاتيليه » ، وكانت اذ ذاك سيدة جميلة في الثامنة والعشرين من عمرها في الوقت الذي كان هو فيه في سن الاربعين • و « دوشاتيليه » هذه ، كانت اديبة عالمة في الرياضيات والعلوم الطبيعية الاخرى ، وتمتاز بجميع الصفات التي لايمكن لمن تتوفر لها ان تهرب مع عشيق • لكنه الحب الذي يفوق سلطانه سلطان العلوم والمراكز الاجتماعية • وعندما علم زوجها الكونت الذي كان خارج باريس منذ شهور بهربها ، لم يحاول ان يتعرض لها بسوء ، اذ أدرك بأن ذلك جزاءا وفاقا

للشيخ الدميم الخلقة الجاهل الذى يتزوج بفضل مركزه الارستقراطي وثروته ، شابة جميلة نابهة في سن ابنته ، خلافا للحق والصواب ·

كانت « دوشاتيليه » تحب فولتير حبا عميقا وتقول عنه بأنه « جوهرة فرنسا ، والمخلوق الذى يمكنك ان تحبه لألف سبب وسبب » · وكان فولتير يبادلها هذا الحب ، ويرى فيها من الصفات ما امتازت به على الرجال ، فكان يقول لها : « انك رجل عظيم كانت غلطته الوحيدة هي كونه امرأة » ·

ولقد توجه العاشقان الهاربان من المركيز والحكومة الى قصر المركيزة شاتيليه الفخم في « سيرى » · وفي ذلك القصر ، أمضى فولتير عدة سنوات من حياته الحافلة أصبحت « سيري » خلالها قبلة انظار المفكرين والادباء في فرنسا واوربا ، بل وباستطاعتك ان تقول بأن المركز الفكري لباريس قد انتقل منها الى « سيري » بانتقال فولتير اليها ·

ولم يمض العاشقان ايامهما في القصر في تبادل القبل والعناق وحسب ، انما راحا يتباريان ايضا في اجراء التجارب العلمية ، اذ هيأت المركيزة لفولتير بالاضافة الى مختبرها الخاص ، مختبرا كبيرا غالي الثمن راح يناقسها بواسطته في اجراء تجارب العلوم الطبيعية · ففولتير بالاضافة الى كونه فيلسوفا كبيرا وشاعرا عظيما ، كان عالما من علماء الطبيعة أيضا ، وقد حصل على أغلب معلوماته في هذه العلوم من انكلترا ايام كان منفيا فيها ·

وكان القصر قد بدأ يزدحم بالضيوف من اصدقاء ومعجبين يوما بعد يوم · وكان المطلوب من ضيوف فولتير هو أن يسهروا على خدمة انفسهم في القصر لعدم استطاعته السهر على خدمة هذا الجمع المتزايد منهم ، فكانوا ينفذون له رغباته ، لايجدون في ذلك ما يمس كرامتهم في شيء ، بل وكان يودهم جميعا ان يسهروا هم على خدمته لفرط حبهم له ·

وفي تلك الفترة من حياته ، بدأ فولتير يضع رومانسياته الخالدة أمثال « كونديد » و « زاديك » وغيرهما · وعندما كان ينتهي الجميع من تناول طعام العشاء في القصر ، يبدأ فولتير بقراءة ما فاضت به قريحته من شعر وقصص رائع لضيوفه فكان جو القصر يبدو رومانسيا قلما كان له شبيه في تاريخ الفلسفة والادب · ولم تشهد الفلسفة في تاريخها من جو يسوده الضحك والبهجة والمرح كالذى شهدته في قصر المركيزة شاتيليه ليالي كان فولتير فيه يمزج الحكمة بالنكتة والسخرية من القساوسة والكهنوت ·ولقد وصلت أخبار هذه الليالى وقصص مجالس قصر شاتيليه الى خارج حدود فرنسا ، بل والى اقاصي أقطار اوربا · فلقد كان بريد السفير الروسى الى القيصرة كاترين الثانية مشحونا على الدوام بأخبار فولتير ومجالسه البهيجة· ولقد قالت عنه كاترين يوما وهي تقرأ اخبار تلك المجالس : « انه اله البهجة والمرح » المنقطع النظير · ثم راحت تراسله وتسأله « ما اذا كانت تثقل

عليه برسائلها ! »

ومثلما كانت هذه الاخبار تصل اولا بأول الى قيصرة روسيا ، فانها كانت تصل ايضا الى قيصر المانيا . وفي تلك السنوات ذاتها بدأت مراسلاته مع الامير « فريدريك » ــ ولم يكن قد أصبح « فريدريك الاكبر » بعد . فلقد كان هذا الامير معجبا غاية الاعجاب بفولتير . وكانت اولى رسائله اليه اشبه ما تكون برسالة تلميذ الى استاذه اذ كتب عام ١٧٣٦ في بعض ما كتب يقول:
« ... وانك لرجل فرنسا الاعظم ... والانسان الذى تشرفت به اللغة ... وانه لشرف عظيم لي أن اكون من معاصري رجل مثلك له هذا القدر العظيم من العلم والمعرفة ... وليس من السهل لكل موهوب ان يترك « العقل » مستغرقا في البهجة والضحك .. ثم اية بهجة يمكن ان تعدل أو تفوق بهجة الفكر ؟ » .

وكان فريدريك أميرا ، ثم ملكا متسامحا حر الفكر الى درجة كبيرة بحيث أصبح بلاطه وبلاده ملجأ لاحرار الفكر الهاربين من ظلم القساوسة والحكومات الاستبدادية . وبخصوص اعجابه بمرح فولتير ، فقد أجابه الاخير على احدى رسائله عام ١٧٣٧ برسالة جاء فيها قول فولتير الذى بقي ، وسيبقى خالدا على مر العصور : [« ويل للفلاسفة الذين لايستطيعون ازالة تجاعيد وجوههم بالضحك » « اني لانظر للوجوم الذى يسيطر على الفلاسفة نظرتي الى المرض »] . وعندما اعترض فريدريك على « النفاق » الذى تضمنه جواب فولتير على رسالته الاولى ، اجاب فولتير بدوره قائلا : [ان وجود أمير يكتب ضد المداجاة والنفاق امر فريد في بابه ، فهو أشبه ما يكون بوجود بابا يكتب ضد « عصمة » البابوات من الخطأ !] .

وذات يوم ، ارسل الامير فريدريك الى فولتير نسخة من كتابه « ضد مكيافيلي » الذى شرح فيه رأيه باسلوب جميل في مسألة السلم والحرب وقال بأن الحرب انما هي أصل المظالم وجميع الآثام ، وان من واجب الملوك صيانة السلم لصالح شعوبهم . ولقد عقد فولتير امالا كبارا على وجود مثل هذا الملك في المستقبل وكاد يطير فرحا بعد أن انتهى من قراءة الكتاب . على ان ظن فولتير كان قد خاب في فريدريك الذى أغرق اوربا في بركة من الدم بعد اشهر قليلة من اعتلائه العرش عندما اجتاحت جيوشه سيليزيا .

ومع ذلك ، فان التاريخ سيبقى الى الابد يشيد بتسامح هذا الملك ورعايته لحرية الفكر والتزامه جانب الأحرار المضطهدين رغم جميع الاخطاء التي وقع فيها خلال حياته .

وكان فولتير بعد أن مضت بضع سنوات على نشر « الرسائل الانكليزية » وخفت الضجة حولها ، قد بدأ يتردد مع عشيقته بين آونة واخرى على باريس . وفي عام ١٧٤٣ ، كان فولتير في باريس يدرب الممثلة المدموازيل « دوموستيل » على دورها في مسرحيته « ميروب » . ولقد ضاقت

الممثلة ذرعا بالمسرحية لصعوبة دورها فيها فقالت متشكية لفولتير : « ان نفس الشيطان الذي تفتق عنه ذهنك في هذه المسرحية يجب ان يحل في بدن الممثلة لكي تنجح في اداء دورها ! » ، فأجابها قائلا : « وذاك هو بالضبط ما اريد ٠ ان عليك ان تفسحي مجالا للشيطان في بدنك لكي تنجحي في أى فن من الفنون ٠ » ٠ وكاين « ديمستر » قد قال عن فولتير نفسه يوما : « لقد سلمته جهنم جميع سلطان زبانيتها » ، كما قال عنه سان بوف بهذا المعنى أيضا : « لقد كان الشيطان يسكن بدن فولتير على وجه التأكيد » ٠

وفولتير من كتاب المسرحية العظام رغم فشل بعض مسرحياته اثناء تمثيلها على مسارح باريس في حينه ٠ فبعد « اوديب » كتب سلسلة طويلة من المسرحيات كان منها « بروتوس » عام ١٧٣٠ ، و « ايريفيل » عام ١٧٣٢ ، ثم « زير » التي نالت اعظم النجاح ، ثم « محمد » في ١٧٤١ ، و « ميروب » في ١٧٤٣ ، و « تانكريد » في ١٧٦٠ ، ثم « ايرين » عام ١٧٧٧ ٠

على ان اكبر الاعمال الفكرية التي بدأها في « سيرى » تلك الايام كانت رسالته « في الاخلاق » التي كان عنوانها الكامل : « رسالة في اخلاق وروحية الامم اعتبارا من شارلمان الى لويس الثالث عشر ٠ » ٠

وكان الذي حفز فولتير على الشروع بوضع هذه الرسالة هو ماكان يراه من تذمر المركيزة شاتيليه من اسلوب كتابة المؤرخين للتاريخ اذ لم يكونوا ليهتموا بشيء قدر اهتمامهم بانساب الملوك وسيرهم والمعارك الحربية التي خاضوها وغير ذلك مما كان يتزلف به هؤلاء للملوك عصرهم الحاكمين ٠ ولقد كان فولتير يصدر عن تفكير واحد مع المركيزة في هذا الموضوع اذ عرف التاريخ المكتوب انذاك واشار الى طبيعته قائلا : « انه لا اكثر من صورة للجرائم والنكبات » ٠ كذلك فانه كتب يوما الى « هوراس والوب » في تموز ١٧٦٨ رسالة بهذا المعنى جاء فيها قوله : « ان تاريخ اليوركيين واللانكستريين ، والكثير من غيرهم ، لا اكثر من تاريخ لقطاع الطرق ٠ »

لقد لمس فولتير في ما وجده امامه من تواريخ مكتوبة بأن التاريخ الانساني مليء بالاخطاء والاساطير والاكاذيب التي جعلت الفكر في عمى دائم وظلام مقيم ٠ وهو يرجع جميع هذه المأساة الى جهل المؤرخين وعدم انتباههم الى الاسس والمبادىء التي يجب أن يكتب بموجبها التاريخ الحقيقي ٠ اما هذه الاسس والمبادىء التي يراها فولتير ، فهي ان تكون دراسة التاريخ وكتابته على اساس التدقيق في التطورات التي جرت على حياة المجتمع الانساني من وجهة النظر الفلسفية ٠ انه بعبارة ادق ، كان يرمى الى استخدام الفلسفة في دراسة التاريخ ٠ وفي ذلك يقول : « الفلاسفة وحدهم هم الذين يجب ان يكتبوا التاريخ ولا أحد سواهم ٠ » ثم يمضى ساخرا من التاريخ الذى كتبه معاصروه ومن سبقهم فيقول : « انه ايضا لا اكثر من مجموعة من الحيل التي نضحك بواسطتها على من مات » ٠ بعد ذلك نراه يصيح متفلسفا : « ان التاريخ ليبرهن على ان كل شيء يمكن اثباته والبرهنة عليه بواسطة

التاريخ » ·· ولقد كان فولتير على حق والحق يقال : اوليست كتابة التاريخ بصورة مزيفة ، تعبيرا عن عقدنا ، وتنفيسا عنها ، بما يتلاءم واماثيننا الموهومة ورغباتنا الحبيسة التي نطمح الى تحقيقها في المستقبل اذا ما كنا كتابا معقدين ؟

ولقد قرأ فولتير الكثير من الكتب التاريخية قبل ان يضع هذه الرسالة· كان يذهب الى مكتبة باريس الملكية ليتفحص مئات الكتب والمخطوطات التاريخية مما وضعه « بيير دانييل » وغيره ، في تاريخ فرنسا واوربا ، ثم ليعود الى استاذه القديم « الاب تورنيمين » ليخبره بمرارة بأن جميع ماطلع عليه غير ذي فائدة بالنسبة للتاريخ الجديد الذى يريد كتابته · ولم يكتف فولتير من اجل السيطرة على الموضوع المنوى كتابته بما قرأ في مكتبة باريس الضخمة وغيرها ، بل راح يغرق جميع الناس الذين عاشوا احداثا هامة ومازالوا على قيد الحياة بمئات الرسائل ، بالاضافة الى حصوله على مئات المجلدات من المذكرات الهامة المطبوعة والمخطوطة لاناس من مختلف العهود والاوساط · وذاك هو شأن الكاتب النابه : لا يطلع على الناس بموضوع الا بعد أن يحيط به من كل جوانبه ويسيطر عليه سيطرة عالم متمكن خبير ·

نعم ، بمثل هذه الجهود المضنية والمعرفة الواسعة وضع فولتير رسالته الخالدة التي كانت في الواقع « اول فلسفة للتاريخ » · لقد كان فولتير يبحث في الخطوات التي خطاها الانسان عند تحوله من البربرية الى الحياة الاجتماعية · وكان يرى بان دراسة التاريخ يجب ان تكون على ضوء العوامل والفعاليات التي تنشىء الثقافات ، ثم التي تفسخها وتسقطها · وفي ذلك يقول « بوكل » بأن فولتير كان اول من وضع الاسس العلمية الحديثة للتاريخ · ولقد كان فولتير الاستاذ الاكبر لـ « جبون » و « بوكل » وغيرهما من اعلام المؤرخين الذين التزموا الطريق التي سلكها في هذا الميدان ·

ولقد نشر فولتير هذا الكتاب في برلين عندما كان في بلاط فريدريك ، وقد نفي بسببه من فرنسا ، كما سنرى بعد قليل ·

وفي عام ١٧٤٥ أيضا ، عاد فولتير والمركيزة شاتيليه الى باريس عندما رشح نفسه لعضوية الاكاديمية الفرنسية · ولكي تسهل مسألة قبول عضويته للاكاديمية ، فانه حلف للمسؤولين فيها الف يمين ويمين كاذبة بأنه « كاثوليكي » صميم ، و « يموت في الكاثوليكية ! » ما في ذلك ريب · وعندما سالته رئاسة الاكاديمية ان يحلف لها « بشرف قلمه » في انه صادق في ما يقول ، رفض ذلك وقال بأنه لايرى داعيا للربط « بين الفكر الطليق والغيبيات » · عند ذلك ايقنت الاكاديمية بأنه « كذاب أشر ! » وانه مازال « متزندقا وشيطانا رجيما ! » · لكن فولتير استطاع ان ينجح في الحصول على عضوية الاكاديمية في السنة التالية بسبب نفوذه في الصالونات الارستقراطية · وفي الحفلة التي اقيمت له في الاكاديمية بمناسبة عضويته، القى هناك خطبته الخالدة التي اعتبرت اروع ما احتفظ به الادب الفرنسي

الكلاسيكي من آثار ·

وفولتير الان قد جاوز الخمسين من عمره بأربع سنوات عندما علم عام ١٧٤٨ بأن المركيزة شاتيلية قد وقعت في غرام شاب وسيم هو المركيز « سان لامبرت » · ولقد غضب اول الامر ، لكنه عندما دقق في المسألة ورأى بأنه على ابواب الشيخوخة ، هدأت ثائرته · وكان قد كتب يوما عن هذا الحادث يقول : « ··· وهكذا هن النساء · لقد حللت محل ريشيليو ، ثم جاء سان لامبرت ليحتل محلي : مثل المسامير ، يأتي الواحد منها بأعقاب الاخر » ليطرده من الخشبة ، « وتلك هي طبيعة الاشياء ، وفي هذا الدرب يمضي العالم · » · وكانت المركيزة من قبل عشيقة للكردينال ريشيليو الذي هجرته لتنصرف الى فولتير ·

على ان شاتيليه توفيت عام ١٧٤٩ على اثر ولادة طفل · ولقد حزن فولتير حزنا عميقا لوفاتها ، وراح يسلي نفسه ويعزيها بالانهماك في الكتابة عبثا · وكان الذي انقذه من يأسه وحزنه هو فريدريك الكبير الذي جدد دعوته له للاقامة في بلاطه ، مرفقا مع ذلك مبلغ ثلاثة الاف فرنكا كمصاريف سفر · ولقد لبى فولتير الدعوة شاكرا ، ثم ولى وجهه نحو برلين التي وصلها عام ١٧٥٠ ·

هو ذا بلاط فريدريك ، قيصر المانيا الحر الفكر ، في بوتسدام ·

هنا كان فولتير يكلم اقوى ملوك القرن الثامن عشر كلام الند للند · و « هنا يقف ١٥٠ الف من الجنود في حراسة القصر ··· وهنا الاوبرا ، والكوميديا ، والفلسفة ، والشعر ، واصوات الموسيقى البهيجة ثم الهيبة والجلال ، وموائد افلاطون ، والحرية ، ـ من ذا الذي يصدق هذا ؟ لكن ذلك كله شيء صحيح · » · هكذا كتب فولتير الى صديقه «دارتنجال» في تموز عام ١٧٥٠ ·

وكانت حياة فولتير في بوتسدام محصورة في حلقة مكونة من فريدريك وبقية ادباء العصر وفلاسفته ممن كان في رعاية فريدريك · ولقد كان بين هؤلاء ، المفكر الفرنسي اللاجيء « لاميترى » صاحب النظرية القائلة بـ « مادية الروح ، وروحانية المادة » ، وهي نظرية استمدها من فلسفة « ديكارت » الذي لم يجرأ على التمسك بها خوفا من سلطان الكنيسة · غير ان مجاهرة « لاميترى » بهذه النظرية ، قد دفعت الكنيسة الى نفيه خارج فرنسا فالتجأ الى فريدريك ·

وكان هؤلاء الادباء والفلاسفة لايطيقون حضور الحفلات الرسمية لما تحتمه عليهم من تقييدات · انهم كانوا يتناولون طعام العشاء مع فريدريك في حلقة صغيرة منسجمة الاجزاء ، فكانت هناك نكات فريدريك التي لاتقل قوة عن نكات فولتير ، وكان هناك تبادل رأي يجري بحرية منقطعة النظير في الفلسفة ، والسياسة ، والدين ، والعلم ، وكل ما يتعلق بحياة الفرد والمجتمع · كان لكل فرد من افراد تلك الحلقة ان يعرض الفكرة التي يعتقد

بها بحرية دونما خوف • وفي ذلك كتب فولتير يقول : « لا يوجد هنا ما يزعجني ••• لقد اهتديت الى الميناء بعد عاصفة استمرت خمسين سنة ••• الخ » • ومن الجدير بالذكر ، هو ان جميع تلك الندوات كانت تجرى باللغة الفرنسية اكراما لفولتير •

وكان فريدريك قد حرم على رجال حكومته وحاشيته واصدقائه ، الاشتراك في المضاربات المالية بسندات سكسونيا • وعلى الرغم من ذلك ، فان فولتير حاول ان يحصل على أرباح كبيرة من هذه السندات ، وقد ربح فعلا عندما ارتفعت اسعارها • ولقد حاول الوسيط الذى اشترى السندات لفولتير ابتزاز المال منه بتهديده بانه سيقوم بأخبار فريدريك بأمر هذه الصفقة ، فما كان من فولتير الا ان قفز نحو الرجل وراح يضغط بيديه على رقبته ، ثم استطاع ان يطرحه أرضا ويشبعه ضربا • وعندما استطاع ذلك الوسيط ان يوصل خبر هذه المعركة واسرارها الى فريدريك ، ثارت ثائرته ، لكنه استطاع ان يسيطر على نفسه بما طبع عليه من روح فلسفية شاعرة اذ انه كان يميل الى معالجة المسألة بحكمة كما يظهر عندما اسر الى « لاميترى » قائلا : « ان المرء ليعتصر البرتقالة قبل ان يرميها قشرا ، واني سأحتفظ به مدة سنة اخرى على الاغلب » •

ولقد أخبر « لاميترى » فولتير سرا بحديث فريدريك ، فبدأ بعد ذلك يضيق بحياة بوتسدام ، وبمجالس فريدريك ، وراح صفوه يتبدل كدرا ، ومرحه وجوما ، وقد كتب في ذلك يقول : « ان قشر البرتقالة يملأ احلامي في الليل ••• واني لا أشعر بأن هناك من انسان سقط من حالق واصبح صغيرا مثلي • » •

ثم بدأ يتحين الفرصة لمغادرة المانيا ، وقد وافته عام ١٧٥٢ • فلقد تخاصم يوما العالم الرياضي الفرنسي الكبير « موبورتوى » الذى استعاره فريدريك من فرنسا لتدريس الرياضيات في المانيا ، مع عالم رياضي الماني يدعى « كوينك » حول تفسير نظريات « نيوتن » • وكان فريدريك قد وقف الى جانب العالم الفرنسي في هذا النزاع ، بينما وقف فولتير الى جانب الالماني • ثم استعرت الخصومة التي راح يتألم منها فريدريك كثيرا ، اذكتب الى شقيقته حول الموضوع يقول : « لقد تجسد الشيطان في شخوص هؤلاء الادباء من رجالي ••• وان مما يعزي الحيوانات ان ترى هؤلاء الناس ذوي العقول ليسوا بأحسن منها حالا • » • أما فولتير ، فقد كتب الى بعض اصدقائه حول نفس المسألة قائلا : « •• وانا الان في معسكر يقف ضد الملك • غير اني لا أملك صولجانا ، انما املك قلما ••• »

بعد ذلك كتب فولتير رسالته الساخرة « فضيحة الدكتور أكاكيا » ، التي استغرق فريدريك بسببها في الضحك مدة ليلة بطولها عندما قرأها عليه فولتير • وعلى الرغم من انه وعد القيصر بعدم نشرها ، لكنه أرسلها الى أحد الناشرين حيث طبعت ووزعت على وجه السرعة ، وهو ما أسخط

فريدريك وأثار غضبه ، فلم ير فولتير هذه المرة بدا من الفرار ٠

ولقد القى رجال فريدريك القبض على فولتير في مدينة فرانكفورت وطالبوه بتسليمهم قصيدة فريدريك ، « آلهة الحكمة » ، التى لم يكن القيصر يرغب بأن يطلع عليها عامة الناس لعدم توافقها مع التفكير الذى كان سائدا آنذاك ٠ وكانت القصيدة في حقيبة للملابس فقدها فولتير في الطريق الى فرانكفورت ٠ لذلك بقي فولتير محتجزا في المدينة لبضعة اسابيع الى ان عثر على الحقيبة المفقودة حيث اطلق سراحه ٠

وكان أحد الناشرين من عديمي الذمة في فرانكفورت على خلاف مع فولتير بسبب المبالغ التي صرفها في نشر بعض كتبه ، فانتهز فرصة غضب فريدريك عليه وجاء يضغط عليه ويهدده ليضطره على دفع مبلغ معين ادعى بانه مدين له به ، فما كان من فولتير الا ان امسك بتلابيبه وراح يكيل له الصفعات من كل لون ٠ بعد ذلك هنأ « كوليني » ، وهو سكرتير فولتير ، الناشر اللئيم بتلك الصفعات اذ قال له « لقد قبضت حسابك يا سيدى من واحد من أعاظم رجال العالم ٠ » ٠

وعندما غادر فولتير المانيا وأصبح على الحدود الفرنسية ، جوبه بأمر صدر من باريس يقضى بنفيه الى خارج فرنسا ، فاسقط في يده وأصبح في حيرة من أمره ، لا يدرى اين يولى وجهه في الاقطار والامصار . وكان ذلك في مارت/آذار عام ١٧٥٤ ٠ واخيرا ، فقد استطاع ان يشترى عقارا قديما يسمى « لى ديليسيه » بالقرب من مدينة جنيف ٠ هناك أمضى مدة أربع سنوات منفيا من فرنسا ، لكن فرنسا في الواقع ، كانت تزوره في منفساه ممثلة بقادة الفكر فيها ، وبالشباب الثورى الذى كان يتطلع الى عصر من الحرية ، جديد ٠

كان كتاب « الاخلاق » الذى سبق ان أشرنا اليه هو السبب المباشر لهذا النفى ، فلقد ثارت ثائرة الكنيسة والقصر الملكي لقول فولتير في هذا الكتاب « ان غزو المسيحية لروما كان قد هيأها للسقوط وجعل منها ضحية للغزو البربرى » ٠ وكان من المضحك ان تقول الارادة الملكية التي صدرت بنفي فولتير [ان رجلا يفكر في انه « انسان » قبل ان يكون فرنسيا ، لايستحق العيش فى فرنسا ٠] ٠

في تلك الايام ، كان جان جاك روسو موضع غضب السلطات في فرنسا وسويسرا بسبب آرائه الثورية الجريئة ٠ وعلى الرغم من اختلاف فولتير معه في الرأي ، وشدة سخريته من تلك الآراء ، فانه وجه له الدعوة للاقامة معه في « لى ديليسيه » تخلصا من غضب السلطات ٠ وتظهر عظمة نفس فولتير جلية واضحة عندما كتب الى روسو بعد ان أحرقت حكومة جنيف كتاب العقد الاجتماعي ، اذ قال : « اني على الرغم من عدم اتفاقي واياك حول كلمة واحدة مما جاء في كتابك ، فاني سأبقى ادافع عن حقك بحرارة ، حقك في حريتك في التعبير عن آرائك ، وهو الحق الذى يحاول قتله هؤلاء

الظالمون ٠٠» ٠

وفولتير الآن في الرابعة والستين من العمر عندما قرر الانتقال من « لي ديليسيه » الى « فيرني » وهي قرية سويسرية تقع بالقرب من الحدود الفرنسية ٠ ولقد اصبحت « فيرني » عاصمة الفكر الاوربي عند انتقال فولتير اليها اذ غدت كعبة احرار الفكر الذين كانوا يقصدونه لمجرد الزيارة والاستفسار عن صحته وقد أصبح شيخا كبيرا ٠ فرجال الدين الذين كانوا لايؤمنون باللاهوت المسيحي ، كانوا يتوافدون عليه زرافات ووحدانا ٠

وفي فيرني أيضا ، كان يزوره مشاهير رجال العصر ، امثال « جبون » و « بوزويل » و « لامبرت » و « هلفتيوس » وغيرهم من رجال ونساء شهيرات ٠ كذلك كان فريدريك الكبير يراسله من المانيا ، وغوستاف الثالث من السويد ، وكاترين الثانية ، قيصرة روسيا ، وكريستيان السابع من الدانيمارك ٠ ولقد كانت هدايا كاترين الثمينة اليه تبعث في نفسه الامل على ان الدنيا لاتخلو من أصدقاء طيبين ٠ وكان ازدحام بيت فولتير بالزوار في فيرني يدعوه الى تكرار قوله : « لقد أصبحت فندقا لاوربا جميعها » ٠

وفي فيرني أيضا ، وصلت انباء نكبة مدينة لشبونة الى فولتير ٠ وكانت لشبونة قد اصيبت تلك الايام بهزة أرضية صعقتها عند احتفالها بعيد القديسين ، حيث قضت أنقاض الكنائس المنهارة على ثلاثين الف نسمة قضاءا مبرما ٠ وكان هذا الحادث قد أوله رجال الدين في باريس الى الذنوب والمعاصي التي كان يرتكبها أهالي لشبونة ، كما كتب عنه جان جاك روسو الى فولتير متفلسفا في ان الناس لو كانوا يعيشون في الطبيعة لما كانت هناك مدينة مثل لشبونة تصاب بمثل هذه المأساة ٠ عند ذلك جرد فولتير قلمه ليكتب رائعته الخالدة « كونديد » خلال ثلاثة أيام فقط ، عام ١٧٦١ ٠ وكانت آراء روسو غائظة لفولتير لدرجة انه كتب الى صديقه « بوردى » حولها يقول : « ان جان جاك يتشبه بالفلاسفة كما يتشبه القرد بالانسان ٠ » ٠

وتكاد تكون فيرني في تلك الحقبة من حياة فولتير ، بقعة الارض التي خططت لمستقبل المعرفة في اوربا ، ولمستقبل فرنسا ، بل ولمستقبل اوربا كلها ليقطع العالم هذين القرنين اللذين عاصرنا احداث احدهما نحن ابناء القرن العشرين الذين مازلنا نرقب اصطراع الحرية في معاركها مع الطغيان والعبودية في كثير من بقاع الارض ٠ ففي فيرني بالذات ، دوى العبقرى الكبير بصيحة الثورة الفرنسية المخيفة عندما صاح والدموع الغزار تهمى على خديه الناحلين : « اسحقوا العار » ٠

« انا فولتير ، شاعر فرنسا الذى أضحكت الدنيا بسخريتي ، صرت ابكي وأوبخ نفسى على كل ضحكة تفلت من فمي دونما تعمد ، بسبب العار الذى يجثم بكابوسه على صدر وطنى ٠٠٠ عار الطائفية ٠٠٠ الا فلتسحقوا الطائفية ٠٠ اسحقوا العار ٠٠ أنت يا دلامبرت الجرىء ٠٠ وانت يا ديدرو البطل ٠٠ وانتم يا شباب فرنسا ومثقفيها التقدميين ٠٠ اين انتم ؟ ولم

سكوتكم على هذا العار ٠٠ عار الطائفية ٠٠ اسحقوا العار ٠٠ ان حريات الاجيال القادمة امانة في اعناقكم ايها الابطال ٠ »٠

« اسحقوا العار » ٠٠ نعم ٠٠ هكذا كتب فولتير لاصحابه في باريس ٠

وتلك هي الصيحة التي دوى بها فولتير من منفاه عام ١٧٦١ ، والتي رددتها اربعة اركان باريس عندما خرجت بقضها وقضيضها صبيحة الرابع عشر من تموز عام ١٧٨٩ لتعصف بالباستيل والنظام الاوتوقراطي الاكليروسي ٠٠ لقد كانت الشبيبة الفرنسية التي راحت تتساقط برصاص الحرس الملكي الاجنبي السويسري تهتف في عنفوان الثورة : « اسحقوا العار » ٠

وعار الطائفية ، هذا الذي استغرق اهتمام الفيلسوف الكبير في بقية سني عمره ، كان قد وعاه فولتير خلال احداث الاضطهادات التي كان يقوم بها الكاثوليك ضد اخوانهم من المواطنين البروتستانت ٠ كانت حادثة « آل كالا » الشرارة التي سعرت النار في صدر فولتير ليحرق بها عرشاً ونظاماً متهرئاً بكتابه الخالد « مقبرة التعصب » ولقد أصبح فولتير في هذه المرحلة من حياته ثورة على الشرور وعلى الملكية وعلى الكنيسة ، رغم انه كان يتصور بأنه كان يدعو الى « الاصلاح » لا اكثر ٠ ترى أية ثورة هذه التي ردد شعارها الثوار بعد حوالي ثلاثين سنة عندما طافوا برؤوس القساوسة الفاسدين وهم يرفعونها على اسنة الحراب هاتفين « اسحقوا العار » ؟ ٠٠٠ ألا سحقاً لعار الطائفية في كل مكان ٠ وكان ذنب « آل كالا » الذين أبادهم اخوانهم الكاثوليك بدولاب التعذيب تنحصر بتهمة خيالية فحواها انهم صدوا احد اولادهم عن الانخراط في سلك الكثلكة ٠

وفولتير من مشاهير كتاب « الانسكلوبيديا » التي كان يصدرها ديدرو ، كما قد يتذكر القارىء ٠ وهو بعد ان فرغ من مقالاته في انسكلوبيدية ديدرو ، بدأ فورا تلك الايام بوضع كتابه الرائع « القاموس الفلسفي » الذي خلد به نفسه كأحسن ما يخلد به نفسه فيلسوف عظيم ٠ والقاموس الفلسفي عبارة عن مجموعة من المقالات وضعت على حسب الحروف الهجائية في بحث مواضيع هامة معينة كـ « الحرب » و«الانسان» و « الحرية » وغير وهي مقالات كانت تمثل ثورة فكرية في القرن الثامن عشر دونما شك ٠

ولم يكن فولتير ملحدا كما قد يتصور البعض ٠ تلك كانت فرية يروجها ضده رجال الدين الطائفيون الذين كانوا يرون في مذابح سان بارتلميو وغيرها اعمالا بطولية قام بها الكاثوليك ضد بروتستانت فرنسا - فالذي يدرس فولتير دراسة وافية يجده في « القاموس الفلسفي » يخاطب « هولباخ » زعيم ملحدي ذلك العصر ، قائلا له في مادة « الله » ، انك نفسك تقول بان الايمان بالله قد منع بعض الناس من اقتراف الاجرام٠ وهذا صحيح ٠ لكنك تعود فتقول بان الدين كان سببا لمآسي كثيرة ٠ وكان الاحرى بك ان لا تنسب

هذه المآسي للدين ، انما للخرافات المدسوسة على الكائن الاعلى باسم الدين، أعني هذه الخرافات التي تسود عالمنا هذا غير السعيد ٠

وفي احدى رسائله الى ديدرو ، قال فولتير تلك الايام « اود ان تكون على بينة من اني اعتقد بوجود اله مقتدر عظيم ، هو على درجة واسعة من العلم بحيث انتج لنا هذا العالم ٠ » ٠٠ لكن فولتير كان يؤمن بوجود الله سبحانه على طريقة سبينوزا في كثير من تفكيره ، كما كان يميل الى الفكرة القائلة بوحدة الوجود ، فهو يرفض كل الافكار المسيحية وما تقول به من معجزات ، واقانيم ثلاثة ، وهو من هذه الناحية أيضا ، من أكبر المؤلفين الموحدين الذين شهدهم القرن الثامن عشر في اوربا ٠

وفولتير الان قد اشرف على الثمانين عندما اجتمع حوله في فيرني أصدقاؤه الخلص امثال دلامبرت وديدرو الذين طلبوا منه الموافقة على ان يقيموا له تمثالا ٠ ولقد وافق فولتير بعد الحاحهم الشديد عليه ، لكنه أوصاهم بعدم ارهاق الناس بالتبرعات التى سيجمعونها لهذا الغرض ٠ وكان الوف الناس قد تقدم بطلب التبرع بمبالغ كبيرة ٠ وعندما وجه فريدريك الكبير سؤاله الى هؤلاء الابطال عن المبلغ الذي يمكن ان يشارك به في صنع التمثال ، اجابه فولتير برسالة يقول فيها : « فقط بضعة أفلاس ، واسمك الكريم » ٠

وكان فولتير تلك الايام يشعر بأنه سوف لايبقى طويلا في هذه الحياة، كان يردد ماهو شبيه بقول الشاعر العربي القائل :

« يا موت خذ ما ابقت الايام مني
بيني وبينك خطوة لو تخطها فرجت عني »

وهو عندما كانت مدللته الوحيدة « بيليه بون » تقبله ، كان يقول لها: « انها قبل الحياة للموت ٠ » ٠

ثم يستبد به الشوق لرؤية باريس قبل أن يموت ٠ لكن الاطباء منعوه من الاقدام على هذه السفرة بسبب تردي صحته ٠ غير انه يصر ويبادر الى شد الرحال ومغادرة منفاه وقد أصبح في الرابعة والثمانين من عمره عام ١٧٧٨ ٠

وكان يوم وصول فولتير باريس من الايام المشهودة ، وقد وقع خبر وصول الشاعر الشيخ وقوع الصاعقة على رأس رجال البلاط الفرنسي وقساوسة العاصمة ٠ ولقد أقام فولتير في دار صديقه « دارجنتال » الذي استقبله بعناق حار ٠ وكانت هذه الدار قد أصبحت منذ تلك الساعة كعبة رواد الفكر وقادة الشباب الاحرار الذين بدأوا يتوافدون لزيارته بالمئات وكانوا يعدون بالالوف ٠ وكان بين الزوار ايضا الكثير من رجال الدبلوماسية الاجانب الذين راحوا يزورونه رغم انزعاج الحكومة من تصرفاتهم هذه ٠ ولقد احضر « بنيامين فرانكلين » الذي كان سفير بلاده لدى فرنسا انذاك ، حفيده الى فولتير وطلب منه ان يباركه ، فقال له الشيخ وقد وضع يده

الناحلة على خد الطفل : « اوصيك يا بني ان تنذر نفسك لله وللحرية • »

ثم يبدأ الموت زحفا سريعا على فيلسوف عصره الجبار الذي لم تجرؤ السلطات الظالمة على جبروتها تلك الايام ، على مس شعرة واحدة من رأسه رغم انه رجع من منفاه ضاربا أمر الملك عرض الحائط • وعندما احضر له القس وهو على فراش الموت ، سأله فولتير قائلا : « من أرسلك ؟ » ،فأجابه هذا بأنه قادم من قبل الله - هناك صاح به فولتير بأن يبرز لـه « اوراق اعتماده الربانية » والا فعليه ان يغادر الدار • ثم استدعي له بعد طرد هذا، قس آخر ليقوم بالمراسيم قبل تسليمه الروح • لكن القس الجديد رفض ان يقوم بأى شيء مالم يعترف فولتير خطيا بأنه كاثوليكي ، ومخلص للكثلكة • عند ذلك تململ فولتير في فراشه وصاح صيحة بطل جسريح ، ثم طرد القس وناول احد المقربين اليه ورقة أخرجها من تحت وساده ، كان مكتوب فيها : « اني اموت على حب الله والايمان به • لم اعتد في حياتي على أحد • ولم ابغض أعدائي ، واحب اصدقائي ، ولا اؤمن بالخرافة » ـ التوقيع: « فولتير » في ٢٨ شباط ، ١٧٧٨ • لكن فولتير لم يمت ذلك اليوم ، انه قدر له ان يعيش ثلاثة شهور اخرى شهد خلالها احتفالا جرى له في المجمع العلمي الفرنسي • وقد وصف « مورلي » خروج أهالي باريس لايصاله الى الاكاديمية بقوله انه كان من الاحداث التاريخية المشهودة ، وانه لم تحتفل باريس بأى قائد أو رجل كبير كاحتفالها الشعبي بفولتير ذلك اليوم •

كذلك قدر له ان يشهد تمثيل مسرحيته « ايرين » • ولم تكن هـذه المسرحية من مسرحيات فولتير الناجحة في موضوعها نجاحا يلفت النظر ،غير ان وجوده في المسرح كان يثير مظاهرات شعبية ضخمة كانت تجمد الدم في عروق الحكام الظالمين الذين اذاقوا الشعب الذل والهوان •

وذات ليلة ، بعد ان رجع من المسرح ، شعر بأن نومته تلك الليلة هى الابدية مافي ذلك شك بسبب هبوط قواه البدنية • وعندما القى نفسه في الفراش ، لم يمهله الاجل ، اذ راح يردد سكرات الموت الذى انهى حياته قبل مطلع الفجر ، وذلك في الثلاثين من شهر مايس عام ١٧٧٨ •

ولقد رفض القساوسة الصلاة عليه ودفنـه في مقابر المسيحيين في باريس ، وهو ما اضطر اصدقاءه الى نقله ودفنه في مكان منعزل في «سيليريه» خارج باريس •

وفي عام ١٧٩١ ، وقد انتصرت الثورة ، خرجت باريس برمتها ، وعلى رأسها قادة الجمعية الوطنية ليستقبلوا نعش فولتير الذى نقل على عربة من « سيليريه » الى الباناثيون ، مدفن العظماء ، وكان مجللا بعلم الثـورة ، وقد كتبت على العربة بضعة شعارات كان منها شعار يقول : « لقد علمنـا كيف نحصل على الحرية »•

من مراجع البحث

برانديز : فرانسوا فولتير
براندیز : التيارات الرئيسية في آداب القرن التاسع عشر *
تولنتاير : فولتير في رسائله
تولنتاير : حياة فولتير
مورلي : فولتير
روبرتسن : فولتير
تين : نظام الحكم القديم
بوكل : تاريخ الحضارة *
بيرتو : نابليون في كلماته
سان بوف : صور من القرن الثامن عشر
فولتير : رسالة في الاخلاق
فولتير : القاموس الفلسفي
فولتير : المختار من كتاباته
فولتير : الرومانسيات
فولتير : الرسائل الانكليزية



الآثار المخطوطة في النجف

- ٤ -

علي الخاقاني

مكتبة الامام كاشف الغطاء

- كتب اللغة -

١ - تفسير لغات القرآن :

مجهول المؤلف ، كشف فيه جميع الكلمات اللغوية من اول القرآن الى آخره · في ٩٢ ص ، ٢٠ س ، ٢٦ سم ، ١٧/٥ سم برقم ٨ لغة ·

٢ - جوهر القاموس :

للعلامة يحيى شفيع القزويني ، استدرك فيه على صاحب القاموس لاغفاله بعض المصادر والجموع · رتبه على مقصدين ، وكل مقصد على ابواب ، بخط ممتاز مجدول بالذهب ، في ٢٦ ص ٢٥ س ، ٢٦ سم ، ١٧/٥ سم برقم ٩ لغة ، وبضمنه فوائد ومسائل للشيخ ملا احمد ·

٣ - شرح غريب الحديث :

مجهول المؤلف ، من الكتب القيمة ، فرغ مؤلفه من تأليفه يوم عيد الفطر عام ٩٠٧ هـ ، وكتب بحدود الالف ، نقص من أوله المقدمة ، في ٥٥١ ص ٢٠ س ، ٢١ سم ، ١٤/٩ سم ، ٤ سم ، برقم ٨٢ لغة ·

٤ - شرح قصيدة المنفرجة :

الاصل للشاعر النحوي اللغوي أبي الفضل يوسف بن محمد التوزي المعروف بابن النحوي ، والشرح للعلامة محمد بن خليل البصري · من مخطوطات القرن السابع الهجري ، في ٦٢ ص ٢١ س ، ١٨ سم ، ١٢/٩ سم برقم ٩١ لغة ضمن مجموع · والاصل من بحر المتدارك وقافيته الجيم · وقد شرح هذا الاصل فريق منهم ابو العباس احمد بن زيد النقاوسي ، وهو يتقدم بالزمن على البصري لان الاخير نقل عنه في شرحه هذا ، ومنهم الشيخ زكريا الانصاري ، وقد طبع الاصل بالاستانة في مجموع ضم ٢٥ رسالة ومنها شرح الانصاري ·

٥ ـ الطراز الاول ، فيما عليه من لغة العرب المعول :

الجامع للصريح منها والمأول ، المغني عن كل مختصر فيها ومطول . تأليف الاديب الكبير السيد علي خان الشيرازي صاحب السلافه . يقع في ثلاث مجلدات ضخام . بحث فيه اللغة والاعراب والكتاب والسنة والمثل . رتبه على أواخر الحروف .

أوله بعد البسملة : (ان ابلغ ما نطقت به البلغاء بادي بدا ، وأفصح ما بدأت الفصحاء به الكلام أبدا ، أحمد الله الذي انطق العرب بأعرب لسان ، وشرف منهم النسب بأشرف انسان ، وأحل العربية في اللغات ، محل الغرة من الجبين ، ورفع منارها بنسبة كتابه العربي المبين . بخط صاحب الحصون ، فرغ من الجزء الاول ضحى يوم الخميس ١٨ رجب ١٣٢٢ هـ في النجف . يبدأ الجزء الاول من أول الهمزة وينتهي بآخر حرف التاء ، في ٥٥٢ ص ٢٧ س ، ٣١/٥ سم ، ٢١/٥ سم ، ٤/١ سم ، برقم ٥٣ لغة .

والجزء الثاني فرغ منه صبيحة يوم الجمعة ١٦ ربيع الثاني ١٣٣٠ هـ، يبدأ به من أول حرف الجيم وانتهى به الى آخر حرف الذال المعجم ، في ٦٢٦ ص ٢٧ س ، ٣٠ سم ، ٢٠/٩ سم ٤/٥ سم ، برقم ٥٤ لغة .

وكان المجلد الثالث يوجد في مكتبة السماوي برقم ٧ لغة ، بخط المؤلف فرغ من تاليفه يوم الجمعة ٢١ رجب ١١١٧ هـ ببلدة أصبهان . ابتدأ به من حرف الراء الى آخر مادة (قنص) وبها ختم الكتاب حيث توفي ، وخطه رحمه الله من أجود الخطوط دقيق الحروف ، في ٥٩٢ ص ٣٤ س ، ٢٨/٦سم ، ١٨/٣ سم ، ٣/٢ سم . وهي من مخلفات مكتبة الصدر الاعظم التي نقلها الشاعر مرتضى قلي خان حفيده الى النجف ، وانتقلت الى مرزه محمد بن علي أغا . وتوجد منه نسخة بمكتبة المرحوم الحجة السيد حسن الصدر في الكاظمية ، وتوجد منه نسخة بدار كتب مدرسة الصدر الاعظم بطهران .

٦ ـ علم الاستقاق :

مجهول المؤلف ، كتب عليه هذا الاسم . يوجد برقم ٣٤ ضمن مجموع أوله كتاب منطق الفارابي ، بخط محمد بن فرج الله بن اسماعيل بن علي التقي التبريزي فرغ منه عام ١٣١٧ هـ غرة جمادى الآخرة في النجف الاشرف ، في ٢٠٨ ص ١٧ س ، ٢١/٩ سم ، ١٧ سم ، ١/٥ سم .

٧ ـ الفائق في تفسير الحديث ولغته :

تاليف أبي القاسم محمود بن عمرو بن محمد بن عمرو الخوارزمي المعروف بالزمخشري المتوفى ٥٣٨ هـ وقيل ٥٢٨هـ ، رتبه على اوائل الحروف وفرغ من تاليفه بمكة في أوائل ربيع الثاني عام ٥١٦هـ وهي

السنة الرابعة من عام المنذره ، ــ هكذا ذكر المؤلف ــ خط جيد متقسن مصحح ، نقص من أوله ديباجة الكتاب وقدرها نصف صفحة ، في ٥١٢ ص ٢٩ س ، ٢٤/٥ سم ، ١٨/٥ سم ، ٢/٥ سم برقم ١٣ لغة ٠ ط بمصر في ثلاث مجلدات ٠

٨ ــ فرهنگ جهانگيرى :

باللغة الفهلوية ٠ تاليف جمال‌الدين أنجو أحد امراء الهند ، ابتدأ بتاليفه عام ١٠٠٩ هـ واتمه عام ١٠١٤ هـ في ٧٧٢ ص ، وجعل له خاتمة تشتمل على خمسة فصول في ١٠٦ ص ٢١ س ، ٢٢ سم ، ١٧/٥ سم ، ٤/٥ سم برقم ٢٥ لغة ٠

٩ ــ الفصيح في اللغة :

تاليف ابي العباس أحمد بن يحيي المعروف بثعلب النحوي المتوفي يوجد ضمن مجموع برقم ٩٢ لغة ، بخط صاحب الحصون فرغ من كتابته ١٢ جمادى الاولى ١٣٠٦ هـ في ٥٤ ص ١٥ س ، ١٧ سم ، ١٠/٥ سم

١٠ ــ القاموس المحيط :

تاليف مجدالدين محمد بن يعقوب بن محمد بن ابراهيم بن عمر بن ابي بكر بن أحمد بن محمود بن ادريس بن فضـــــل الله الفيروزابادي الشيرازي المتوفي ٨١٧ هـ واسمه (القاموس المحيط ، والقاموس الوسيط ، الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط) رتبه على أواخر الحـــروف ، نسخة جميلة مذهبة برقم ٦ لغة ٠ ط على الحجر غير مرة في كل من الهند وايران ، وكذلك في مصر ٠

١١ ــ كفاية المتحفظ ، ونهاية المتلفظ :

تاليف أبي اسحاق ابراهيم بن اسماعيل بن أحمد بن عبدالله المعروف بابن الاحدابي الطرابلسي ، من مخطوطات القرن الثامن ، بحث فيه الصفات في كل من الانسان والحيوان والنبات ، والجماد ٠ نقص من آخره صفحة واكملها كاتب آخر بتاريخ ١٢٣٠ هـ ، في ١٠٢ ص ١١ س ، ١٨ سم ، ١٣ سم ط في القاهرة عام ١٣٢٣ هـ وفي بيروت ٠

١٢ ــ لغة الفرقان :

مجهول المؤلف ، رتبه مؤلفه على الحروف ، وتوسع في الاشـتقاق ٠ بخط جميل بديع ، في ٤٢٨ ص ٢١ س ، ٢٤/٥ سم ١٦ سم ، ٢/٩ سم ، برقم ٥٦ تفسير ٠

١٣ ـ مجمع البحرين :

تأليف العلامة الكبير الشيخ فخرالدين الطريحي النجفي ، يقع في مجلدين ، بحث فيه غريب القرآن وغريب الحديث ٠ برقم ٣١ و ٣٢ لغة وعليه حواشي وتعليقات بقلم العلامة السيد شبر الموسوي ٠ ط غير مرة على الحجر بايران ٠

١٤ ـ المحكم ، والمحيط الاعظم :

تأليف ابي الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيدة النحوي المتوفي ٤٥٨هـ ألفه اطاعة لامر الموفق الذي كان يريد أن يؤلف هو نفسه معجماً ، ورتبه على طريقة كتاب العين للخليل غير أنه زاد عليه بأن رتب المواد في داخل الابواب وفقا لما تتألف منه من حروف ، ووفقا لما تتصرف اليه ، وتتقلب فيه من وجوه أو تقاليب ، فمثلا بدأ الخليل كتاب العين بباب الثنائي المضاعف ، وبدأ ابن سيده بالعين حين تتصل بالحرف الذي يأتي بكلمة عربية ثنائية مضاعفة ، فاذا لم يجد ذلك ينتقل الى الحرف الذي يوصله الى الكلمة الصحيحة ٠

يوجد منه قطعة بخط قديم في القرن الثامن الهجري في ٢٦٤ ص ١٧ س ، ٢٥/٦ سم ، ١٧/٥ سم ، ٢/٣ سم ، برقم ١٠ لغة ٠

١٥ ـ مختار الصحاح :

الاصل للجوهري ، والاختيار للعلامة محمد الرازي ، بخط قديم ، يوجد برقم ٣ لغة ٠ ط غير مرة بمصر ٠

١٦ ـ المذكر والمؤنث :

تأليف محمد بن عبدالوهاب المعروف بأمين ، رتبه على حروف المعجم ، في ١٦٨ ص ١٤ س ، ١٦/٩ سم ، ١٠/٥ سم ، برقم ٩٢ لغة ٠

١٧ ـ المصباح المنير ، في غريب الشرح الكبير :

تأليف ابي العباس أحمد بن محمد بن علي الفيومي الحموي المتوفي بعد ٧٧٠هـ يوجد برقم ٤ لغة ، ط غير مرة بمصر ٠

١٨ ـ النهاية في غريب الحديث :

تأليف مجدالدين أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الاثير ، مخطوط في عهد المؤلف وعليه اجازة بخطه ، في اربع مجلدات ، برقم ٣ و ٧ و ١١ و ١٢ لغة ٠ ط بمصر ٠

ـ فن التفسير ـ

١ ـ الاتقان في معرفة القرآن :

تأليف جلال الدين السيوطي ، يوجد برقم ٥١ تفسير • ط غير مرة بمصر •

٢ ـ الاستشراف بين القاضي والكشاف :

واختبار الحق منهما ورد الاعتساف • مجهول المؤلف ، يوجد منه قطعة من أول سورة الفاتحة الى سورة يونس ، نقص من أوله الديباجة ، بخط قديم يرجع الى القرن التاسع الهجري ، حروفه غير منقطعة ، في ٤١٥ ص ٢٧ س ، ٢٢ سم ، ١٥ سم ٣/٥ سم وعلى هامشه تعليقات كثيرة •

٣ ـ بحر المحيط :

تأليف أبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان الغرناطي الاندلسي المتوفي ٧٤٥ هـ ، في ثماني مجلدات ، يوجد منه الجزء السابع من سورة الحجر الى سورة الانبياء بخط قديم ، من مخطوطات اوائل القرن التاسع الهجري ، في ٨٥٢ ص ٢٤ س ، ٢٠/٥ سم ، ١٥ سم ، ٥/٥ سم ، برقم ٢٦ تفسير • بحث فيه مفردات الآية فيما يحتاج اليه من اللغة والاحكام النحوية ، ثم يذكر سبب نزولها اذا كان لها سبب ونسخها ومناسبتها وارتباطها بما قبلها مع ذكر القراءات شاذها ومستعملها وتوجيه ذلك في علم العربية ناقلا اقاويل السلف والخلف في فهم معانيها • ط في ثماني اجزاء مط السعادة ١٣٢٨ هـ وبهامشه تفسيران (١) النهر الماد من البحر للمؤلف (٢) الدر اللقيط من البحر المحيط لابن مكتوم •

٤ ـ تفسير سورة العصر :

تأليف الفيلسوف نصير الدين الطوسي المتوفي ٦٧٣ هـ • أوله (الحمد لله على حسن جماله ، والصلاة والسلام على رسوله وآله) • يوجد برقم ٢٣ مجاميع •

٥ ـ تفسير القرآن :

مجهول المؤلف ، يوجد من أول سورة النساء الى اخر القرآن • رتبه على أساس المبادي الاخلاقية من وعظ وارشاد ، بخط قديم فرغ كاتبه منه في شعبان عام ٩٠١ هـ في ١٨٠ ص ٢١ س ، ٣٠ سم ، ٢١/٥ سم ، ٢ سم ، برقم ٢ تفسير •

٦ ـ تفسير القرآن :

مجهول المؤلف ، يوجد قسم منه من أول سورة الفتح الى سورة الكافرين • بخط قديم جدا يرجع الى القرن الخامس الهجري ، في ٢٦٠ ص ٢٣ س ، ٢٤ سم ، ١٧/٥ سم ، ٣/٥ سم ، برقم ٦٦ تفسير •

٧ ـ تفسير النيسابوري :

تأليف العلامة الحسن بن محمد النيسابوري الشهير بالواعظ المتوفى ٤٠٦هـ نقص أوله ، ويبدأ من سورة البقرة الى سورة طه ، بخط جميل كتب قبل قرنين ، في ٨٤٤ ص ٢٩ س ، ٣٠ سم ، ١٩/٥ سم ، ٥/٥ سم ، برقم ١٢٣ تفسير • وهو غير أحمد بن محمد النيسابوري المتوفى ٣٥٣هـ ، وغير محمد بن ابراهيم النيسابوري المتوفى ٣١٠هـ وكلاهما له تفسير •

٨ ـ تفسير البيضاوي :

واسمه انوار التنزيل واسرار التأويل ، تأليف أبي سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي المتوفى ٦٨٥هـ ، يوجد برقم ٤٧ وبرقم ١٣٢ تفسير بخط قديم • ويوجد بمكتبة المتحف العراقي ببغداد في مجلدين بخط الشاعر الشيخ محمد الهمداني الكاظمي المعروف بشيخ الحرمين • ط في ليبسك في مجلدين عام ١٨٤٤م • وط في بولاق عام ١٢٦٣هـ وط عام ١٢٨٢هـ ، وط عام ١٣٠٣هـ ، وط بهامشه حاشية أبي الفضل الكازروني في (٥) أجزاء عام ١٣٣٠هـ و ط في جزئين باستانبول عام ١٢٨٥هـ و ١٢٩٦هـ و١٣٠٥هـ و١٣١٤هـ ، وط في بومبي الهند عام ١٢٧٧هـ و١٢٨٢هـ ، وط بطهران ١٢٧٢هـ ، وط بمصر وبهامشه السراج المنير للشربيني عام ١٣١١هـ ، وط في بولاق عام ١٢٨٣هـ وعليه حاشية الشهاب الخفاجي •

٩ ـ تفسير علي ابراهيم الكوفي :

يوجد بخط جيد ، برقم ١ تفسير ، ويوجد بخط جيد أيضا بمكتبة المتحف العراقي وعليه تعليقات ثمينة • ط على الحجر بايران وفي النجف على الحروف •

١٠ ـ جامع الجوامع :

للشيخ الطبرسي ، يوجد برقم ١٤١ تفسير ، ط على الحجر بايران •

١١ ـ جواهر القرآن ودرره :

لحجة الاسلام ابى حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي المتوفى ٥٠٥هـ ، يوجد برقم ٣٠ تفسير • ط بمكة ١٣٠٢هـ ، وط في بومبي الهند ١٣١١هـ ، وط بمصر ١٣٢٠هـ و١٣٤٩هـ •

١٢ ـ حاشية على الكشاف :

الاصل لجار الله الزمخشري ، والحاشية لأبي الحسن علي الشهير بالشريف الجرجاني ، من مخطوطات القرن التاسع الهجري ، في ٢٧٨ ص ١٩ س ، ١٩/٥سم ، ١٣/٥سم ، ٢/٣سم ، برقم ٢٦ تفسير .

١٣ ـ العروة الوثقى

تاليف الشيخ بهاءالدين العاملي المتوفى ١٠٣١هـ ، في تفسير سورة الفاتحة وبعض آيات من سورة البقرة ، فرغ من تاليفه في بغداد ، في ١٠٦ ص ١٤ س ، برقم ٣١ مجاميع .

١٤ ـ قطعة من تفسير الكشاف :

لجار الله الزمخشري ، قديمة الخط ، توجد برقم ٣٣ تفسير .

١٥ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل :

أيضا لجار الله الزمخشري ، يوجد برقم ١٣٣ و ١٣٤ تفسير ، فرغ من تاليفه عام ٥٢٨هـ وتوفي بعده بعشر سنين ، ط في جزئين ببولاق عام ١٢٨١هـ وبمصر مط شرف عام ١٣٠٧هـ وبهامشه الانتصاف لابن المنير الاسكندري ، وط عام ١٣٠٨هـ وبهامشه الانتصاف وحاشية الشريف الجرجاني ، وط في بولاق عام ١٣١٨هـ ، وط في كلكته عام ١٨٥٦م باعتناء ويليام ليس والمولوي خادم حسين ، والمولوي عبدالحي .

١٦ ـ كنز العرفان في فقه القرآن :

تاليف المقداد بن عبدالله بن محمد بن الحسين بن محمد السيوري الحلي الأسدي المتوفى ٨٢٦هـ . رتبه على مقدمة وكتب وخاتمه ، ثم جعل لكل آية عدة فوائد مهمة اقلها أربعة وأكثرها تسعة . أوله (الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب لكل شيء تبيانا ، وجعل لتصديق نبوته وتأييد رسالته معجزاً وبرهانا) بخط مقيم بن محمد باقر بن كمال‌الدين كنكازي بتأريخ ١٥ جمادى الآخرة من عام ١٠٥٥هـ ، في ٤٥٦ ص ٢١ س ، وقد نقص من أوله ٦٦ ص اكملها صاحب الحصون ، ٢٤/٣سم ، ١٩/٦سم ، ٢/٩سم ، برقم ٨ تفسير . ط على الحجر بايران ، وط على هامش تفسير العسكري ، ولكنهما نقصا عن المخطوطة .

١٧ ـ متشابه القرآن :

أو كتاب ، أسباب النزول . تأليف الحافظ محمد بن علي بن شهراشوب السروي المازندراني المتوفى ٥٨٨هـ فرغ من تاليفه عام ٥٧٠هـ ،

رتبه على أبواب ، وكل باب اشتمل على فصول ، والكتاب جاء حاويا لمادة تفسيرية واسعة خالية من الحشو اللفظي ، في جزئين ومجموعه في ٥١٢ ص ٢١ س ، ٢١ سم ، ١٥ سم ، ٣/٥ سم ، برقم ٢٧ تفسير ٠

ويوجد الأصل بمكتبة الحجة السيد هبةالدين الشهرستاني ببغداد كتبت بعد وفاة المؤلف بقليل ٠ ويوجد بمكتبة الحسينية في النجف بتاريخ ١٠٧٩هـ في ٥٧٦ ص ٢١ س ، برقم ٦٥ تفسير ٠ وكان يوجد بمكتبة الشيخ محمد السماوي بخطه فرغ منه عام ١٣٣٦هـ برقم ١٦ تفسير ٠ ورأيت مخطوطة قبل الألف بتملك الحجة المرحوم الشيخ محمد حسين الأصفهاني وعليها نسخت مخطوطتي عام ١٣٥٢هـ ٠ ط بايران على مخطوطتي ٠

١٨ ــ مرآة الأنوار ، ومشكاة الأسرار :

للشيخ أبي الحسن الفتوني المتوفى ١١٣٩هـ ٠ من أول القرآن الى سورة النساء ، وفي أوله مقدمة كبيرة ، أوله (الحمد لله الذي كشف استار النبوة والرسالة بمعجزات القرآن ولو كره المشركون) في ٦٠٤ ص ٢٤ س ، ٣١ سم ، ٢١ سم ، ٤/٩ سم برقم ١٢٢ تفسير ، وقد انتحل هذه المقدمة وطبعها باسمه رجل ايراني يدعى عبداللطيف السكازروني عام ١٣٠٣هـ على الحجر بايران ٠ والتفسير لم يطبع ٠

١٩ ــ مشكلات القرآن :

تاليف أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري المتوفى ٢٧٦هـ ٠ يوجد برقم ١٨ تفسير ٠ ط أخيرا بمصر ٠

٢٠ ــ الوجيز في تفسير القرآن العزيز :

تاليف الشيخ علي بن الحسين بن أبي جامع العاملي الحارثي الهمداني ٠ أوله (الحمد لله الذي أنزل على عبده القرآن ، هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فتحدى به الفصحاء من أهل اللسان ، فعجزوا عن معارضة أقصر سورة في حسن نظمها والبيان) بخط السيد حسين بن زين‌العابدين الحسيني الموسوي ، فرغ من كتابته ــ كما رسم ــ في الساعة الرابعة من اليوم الاول من الاسبوع العاشر من العشر الثاني من الشهر الاول من السنة التاسعة من العشر الاول من المائة الثالثة من الألف الثاني من الهجرة ٠ من أجود الخطوط ، وقد جرى عليه تصحيح وضبط ، في ٦٩٢ ص ٢٣ س ، ٢٠/٥ سم ، ١٣/٥ سم ، ٣/٥ سم ، برقم ١٤٧ تفسير ٠ ط الجزء الاول منه في النجف واكمل في بغداد عام ١٣٧٣هـ باعتناء الدكتور عبدالرزاق محي‌الدين ووضع له مقدمة ضافية ٠

يوجد منه نسخة في مكتبة الحجة السيد حسن الصدر في الكاظمية ، ونسخة أخرى في النجف بمكتبة العلامة السيد أمين الصافي نزيل البحرين اليوم ٠

ـ الفنون المتنوعة ـ

١ ـ خواص الأحجار الكريمة :

مجهول المؤلف ، يبحث في خواص الأحجار وغيرها من نبات وحيوان ، وهو اشبه بكتاب الأحجار للبيروني ٠ يرجع عهد كتابته الى حدود القرن العاشر الهجري ٠ أوله (فصل في ذكر الأحجار وخواصها ومنافعها ، الاول الحجر الابيض) في ٣٢ ص بخط دقيق ، ونسخه جاء على كيفية خاصة ، بأن جعل أول سطوره احدى الزوايا الحادة من الصفحة ، برقم ١٨ مجاميع ٠

٢ ـ سمير الحاضر ومتاع المسافر :

تأليف الشيخ علي كاشف الغطاء صاحب الحصون المنيعة ٠ يقع في خمسة أجزاء ضخام ، اشتمل على مجموعة فنون وموضوعات من تاريخ وأدب ولغة وتفسير وأخلاق وشعر وفكاهة ومراسلات ومناظرات وتراجم من علماء وامراء وملوك وشعراء فجاء اسما على مسماه ، فرغ من تأليفه يوم ٢٩ شهر ربيع الاول ١٣٤٣هـ ، واليك مقاييس الاجزاء ٠

الاول : في ٦٣٦ ص ٣٣ س ، ٣٣ سم ٢٥/٦ سم ٣/٨ سم

الثاني : في ٥٢٨ ص ٢٩ س ، ٣١/٣ سم ، ٢٥/٥ سم ٢/٨ سم

الثالث : في ٥٠٤ ص ٣١ س ، ٣٢/٨ سم ، ٢٠/٩ سم ، ٢/٨ سم

الرابع : في ٥٧٦ ص ٢٩ س ، ٣١/٥ سم ، ٢١/٢ سم ، ٣/٣ سم

الخامس في ٤٩٠ ص ٢٨ س ، ٣٢/٥ سم ، ٢٥/٧ سم ، ٣/٣ سم

برقم ١٢ و١٣ و١٤ و١٥ و١٦ كشاكيل ٠

٣ ـ كشكول الفتوني :

تأليف أبي الحسن الشريف بن محمد طاهر بن عبدالحميد الفتوني المتوفى ١١٣٨هـ جمع فيه كثيرا من الشوارد والفوائد ، ويظهر أنه بخط المؤلف ، في ٥٤٠ ص ، ٢٢/٤ سم ، ١٧/٦ سم ، ٣ سم ، برقم ٣ كشاكيل ٠

٤ ـ كشكول المشعشعي :

تأليف السيد عبدالوهاب المشعشعي أحد امراء عربستان (الحويزه) جمع فيه مسموعاته وقراءاته من نوادر النظم القديم ، وتوسع في ذكر

الرجال وتأريخ العرب ، من مخطوطات القرن الحادي عشر الهجري ، في ٢٤٠ ص ، ٢٨/٨ سم ، ١٧/٢ سم ، ٣ سم برقم ١٠ كشاكيل .

٥ ـ المجموع الرائق من أزهار الحدائق :

تأليف السيد هبةالله أبي محمد الحسن الموسوي أحد رجال القرن الثامن الهجري ، اشتمل على الاخبار الغريبة والفوائد الكلامية والمسائل الفقهية والأدعية والأذكار وأمثال ذلك . رتبه على اثني عشر باباً . يقع في مجلدين ضخمين ، ضم كل جزء ستة أبواب :

الأول : في منافع القرآن الكريم وما ورد من طب الأئمة (ع) .

الثاني : في الاعتقاد وما يجب على المرء من معرفة الله عز وجل ، وأورد فيه تمام (اعتقادات الصدوق) على نسخة بخط السيد زين‌الدين علي بن أبي عبدالله الحسين الموسوي ابن عم والد المؤلف على ما صرح به في آخر الباب .

الثالث : أورد تمام كتاب (جمل العلم والعمل) للشريف المرتضى على نسخة بخط الحسن بن علي بن محمد بن علي الحسيني المعروف جده بصاحب الخاتم تأريخها عام ٦٠٠هـ كما صرح به في آخر الباب وتأريخ ذكر فراغه من هذا الباب كان نهار الجمعة من شهر صفر عام ٧٠٣هـ .

الرابع : فيما حصل من الأدعية المباركة عن النبي (ص) والأئمة وبعض احرازهم المجربة وحجبهم ، وفي أوائل الكتاب ذكر ادعية الايام السبعة المروية عن الامام موسى الكاظم (ع) نقلا عن خط جده لأمه السيد السعيد نجم‌الدين أبي نصر محمد الموسوي نقيب مدينة الكاظمية في عصره .

الخامس : اورد فيه تمام كتاب (المقنع) في الامامة تأليف الشيخ الرئيس عبيدالله بن عبدالله السعد آبادي .

السادس : في بعض ما ورد من أخبار ومناقب الأئمة ، وذكر كلام هشام بن الحكم ووصف الايام والدلايل عليه ، وفي آخره تنبيه يتلو هذه الاحاديث ألف كلمة ومائتي كلمة من كلام الرسول الاعظم (ص) .

يوجد المجلد الاول في ٣٩٦ ص ٢٤ س ، ٣٧/٢ سم ، ٢٤/٣ سم ، ٣/١ سم ، برقم ١٩ كشاكيل .

وقد شك بعضهم بنسبة هذا الكتاب للمؤلف المذكور ونسبه للشيخ المفيد ، كما نسبه البعض الآخر للشيخ الصدوق ، وذلك غير صحيح بناء على الملاحظات الآتية :

١ ـ لم يدرج اسم الكتاب في ذكر أسماء كتبهما ولم يذكر ذلك أحد من عشرات المترجمين ممن ترجم لهما .

٢ ـ ان المؤلف روى في كتابه عن أعلام تأخروا بالزمن عنهما ، كما اثبت بعضا من أقوالهما في سياق حديثه .

٣ ـ صرح المؤلف مرارا في خلال صفحات الكتاب ، ولـم تختلف النسخ التي توجد من المجلد الاول ٥

٤ ـ يظهر من مطاوي الكتاب ان أكثر من مكان أنه ألفه حسب تصريحه عام ٧٠٣هـ ومعلوم ان الشيخ المفيد توفي عام ٤١٣هـ وقبلـه الصدوق ٠

٥ ـ بناء على تأريخ التأليف نقطع ان المؤلف عاش في عصر العلامة الحلي وفيه ما يعطينا أكثر من حجة أنه تأخر أربعة قرون عنهما ٠ وممن نظر في هذا الكتاب ملياً وكتب عليه كثيراً من الملاحظات وتملكه سنين طويلة هو شيخ المحدثين الميرزا حسين النوري المتوفى ١٣٢٠هـ ٠

يوجد منه ببغداد نسخة بمكتبة الدكتور حسين محفوظ ، ونسخة بمكتبة الاستاذ رشيد الصفار ٠

ـ النقود والردود ـ

١ ـ بناء المقالة العلوية :

في نقض الرسالة العثمانية ٠ الاصل لابي عثمان عمر بن بحر الجاحظ المتوفى ٢٥٥هـ ، وبناء المقالة لابي الفضائل جمال الدين أحمد بن موسى بن جعفر بن محمد بن طاووس الحلي المتوفى ٦٧٣هـ في ٢٥٣ ص ١٨ س ٢٥/٦ سم ، ١٦ سم ، ٢ سم ، برقم ٢٨٤ النقود ٠ بخط صاحب الحصون فرغ من كتابتها يوم السبت ثامن شهر رجب عام ١٣٤٤هـ ٠

ونسخة الاصل توجد بمكتبة الامام علي (ع) في الصحن رأيتها عام ١٣٥٥هـ عندما زارها المرحوم السيد محسن الامين صاحب الاعيان ، وتأريخها عام ٦٦٥هـ ولا أدري هل هي باقية أم ذهبت مع غيرها من الآثار الثمينة ٠ وصاحب الحصون يشير في آخر مخطوطته أنه كتب عليها نسخته ٠ وتوجد نسخة منها ببغداد بمكتبة العلامة الكبير الشيخ محمد رضا الشبيبي بخط والده العلامة الجليل الشيخ جواد المتوفى ١٣٦٣هـ وقد فرغ من كتابتها عصر اليوم السابع عشر من جمادى الاولى عام ١٣٤٥هـ ٠

٢ ـ تجهيز الجيش :

بالمغة الفارسية ، مجهول المؤلف ، تأريخه ١١ جمادى الآخره عام ١٢٦٠هـ ، فتكت به الأرضه وعاثت ، ٢٤ سم ، ١٥/٤ سم ، ٦ سم برقم ٢٦٤ النقود ٠

٣ ـ الحق المبين ، في الرد على الاخباريين :

تأليف المجتهد الاكبر الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء ، بخط

المؤلف ، رتبه على مطالب في ١٥٥ ص ١٧ س ٢١/٥ سم ، ١٥ سم برقم ٢٨٣ كلام ، وبضمنه كتاب في تحقيق الولاية الشرعية للأب والجد على الطفل ، ط الاول على الحجر بايران باعتناء الشيخ موسى أحد أحفاد المؤلف .

٤ ـ الدفاع عن آل البيت :

تأليف العلامة محمد علي بن جعفر بن علي الهندي الفيض آبادي نزيل مكه ، فرغ من تأليفه ٢١ جمادي الآخره ١٣١٠هـ بخط المؤرخ السيد حسون البراقي فرغ من كتابته ٢٢ جمادى الاولى عام ١٣١١هـ في ٢١٢ ص ٢٣ س ، ٢٤/١ سم ، ١٨/٤ سم ٦/١ سم ، برقم ٧ كلام . وبضمنه :

٥ ـ الرمي الصائب للكبد العائب :

تأليف محمد علي بن جعفر الهندي . فرغ من تأليفه بمكة المكرمة ليلة الجمعة عاشر جمادى الاولى عام ١٢٩٩هـ بخط البراقي فرغ من كتابته تاسع ربيع الاول عام ١٣٠٩هـ في ٣٤ ص ٢٤ س . رد فيه على من انكر اسلام أبي طالب عم الرسول .

٦ ـ الرد على من يقول بزيغ الاحسائي :

تأليف السيد حيدر بن ابراهيم بن محمد الحسيني الشهير بالعطار ، ألفه في الرد على من يقول بزيغ العلامة المتبحر الشيخ أحمد الاحسائي عن طريق الحق . بخط الشيخ حبيب بن اسماعيل الخالصي في ٣٢ ص ٢٢ س ، برقم ٤٠ مجاميع .

٧ ـ الرد على من يقول بسهو النبي (ص) :

تأليف الشيخ المفيد محمد بن محمد العكبري المتوفى ٤١٣هـ رد بها على استاذه الشيخ الصدوق ، برقم ٤٢ مجاميع . ويوجد بخطي فرغت من كتابته عام ١٣٥٥هـ في ١٥ ص ١٤ س .

٨ ـ الرد على من يقول بالعدد :

تأليف الشيخ المفيد في ١٠ ص ، برقم ٤٢ مجاميع . ويوجد بخطي في ١٦ ص فرغت منه في النجف عام ١٣٥٥هـ . ويعني بالعدد شهر رمضان .

٩ ـ الرد على من يقول بالعدد :

تأليف السيد المرتضى المتوفى ٤٣٦هـ بخط صاحب الحصون فرغ من كتابته ١٨ ذي الحجة ١٣٤٠هـ في ٤٤ ص ، برقم ٦٧ أخبار .

١٠ - رد اليهود :

تأليف الحاج بابا بن محمد بن اسماعيل ، ألفه بالفارسية ثم نقله بعد ذلك الى العربية • رتبه على أبواب ، وكل باب على فصول ، فرغ كاتبه منه في رجب ١٢١٣هـ في ٦٦ ص ٢٣ س ، ١٩/٦ سم ، ١٣/٦ سم ، برقم ٢٨٤ ردود •

١١ - رد الوهابية :

تأليف الشيخ جعفر صاحب كشف الغطاء المتوفى ١٢٢٨هـ رتبه على مقدمة تشتمل على ثلاثة فصول ومقاصد وخاتمة ، وكل مقصد اشتمل على عدة فصول ، بخط محمد آل علي آل حنين الخاقاني ، في ٢٩٧ ص ٢١ س ، ١٧ سم ، ١٠/٥ سم ، ١/٨ سم برقم ٣٨٨ ردود •

١٢ - الشهاب الثاقب :

تأليف السيد دلدار علي بن محمد معين النقوي النصير آبادي الهندي المتوفى ١٢٣٥هـ رد فيه على المتصوفة وترجم لاعلامهم والقائلين بوحدة الوجود ، يوجد برقم ٣٠٦ ردود •

١٣ - لهب النيران :

تأليف المحدث الشيخ ميرزا حسين النوري ، رتبه على مقدمة وخاتمة ، بحث فيه تاريخ انتشار الدعوة الاسلامية والصراع بين الامويين والهاشميين في ١٩٨ ص ١٧ س ، ٢٥/٣ سم ، ١٧ سم ، ٢/١ سم برقم ٣٠٢ ردود •

١٤ - مقالة في الرد على البهشمية :

تأليف الشيخ المفيد • رد فيها على فرقة (البهشمية) التي اتخذت طريقة الجدل حجة على صحة مبدئهم ، بخط صاحب الحصون فرغ منه في النجف يوم الاحد ١٢ ذي الحجة ١٣٤٠هـ في ١٨ ص ٢١ س ، ٢١ سم ، ١٦/٥ سم برقم ٦٧ حديث •

١٥ - النخبة الجلية في أحوال الوهابية :

تأليف المؤرخ السيد حسون البراقي ، بحث فيه ظهور المذهب الوهابي وكيفية بث الدعوة له وتعريفه والرد عليه ، بخط المؤلف فرغ منه يوم الخميس ١٨ ذي القعدة عام ١٣١٤هـ وافرد في آخره بحثا مسهبا تضمن سرد الحوادث التي وقعت بينهم وبين الدولة العثمانية في العراق ، وبينهم وبين محمد علي باشا في مصر ، وهجومهم على النجف وخيبتهم فيها ، ونجاحهم في الهجوم على كربلا ، في ٢٦٦ ص ١٦ س ، ٢٢/٢ سم ، ١٦/٨ ، ٢/٢ سم ، برقم ٣٥٦ ردود •

١٦ ـ وحدة الوجود :

مجهول المؤلف ، رد فيه مؤلفه على القائلين بوحدة الوجود • اوله : (الحمد لله رافع درجات العالمين ، ومرجع خيراتهم على العالمين ، وصلواته على أشرف الاولين والآخرين محمد وعترته وصحبه الطاهرين) بخط محمد بن حمدي ، فرغ منه ليلة الثلاثاء ثاني ذي القعدة عام ١٢٩٨هـ في ٧٨ ص ١٤ س ، ١٧ سم ، ١٠/٥ سم ، ٢ سم ، برقم ٢٥٧ تراجم • وبضمنه . كتاب (ميزان السماء) للميرزا حسين النوري المطبوع على الحجر بايران •

ـ كتب الاخلاق ـ

١ ـ أبواب الجنان :

للواعظ القزويني ، باللغة الفارسية • يوجد برقم ٢٢٦ اخلاق ، ط على الحجر بايران •

٢ ـ الاخلاق :

تأليف الفيلسوف الخواجه نصيرالدين محمد الطوسي ، ألفه بالفارسية بعد تأليفه لكتاب (الاخلاق النصيريه) • بخط أبي الفضل بن محمد علي الاصفهاني فرغ منه ليلة الجمعة ٢٨ رمضان ١٣٢١هـ في ٤٠ ص ١٨ س ، ٢٠/٩ سم ، ١٥ سم ، برقم ١١ مجاميع •

٣ ـ الاخلاق :

تأليف الحسين بن علي بن صادق البحراني ، رتبه على أحد عشر بابا ، وكل باب اشتمل على مباحث ، بحث فيه من طريق الاخبار فاثبت كثيرا من النصائح والتوجيهات للائمة والاولياء ، في ٧٠ ص ٢٢ س ، ٢١ سم ، ١٢/٢ سم ، ١٥ سم ، برقم ٧٠ كلام •

٤ ـ الاخلاق :

تأليف السيد شبر بن محمد العلوي الحسيني الفخاري ، بخط المؤلف فرغ من تأليفه آخر شعبان ١١٧٨هـ في النجف • رتبه على مقدمة وأربعة أركان ، وكل ركن اشتمل على عدة فصول وأبواب ، برقم ٣٠ تراجم ، وبضمنه كتاب (أمل الآمل) للحر العاملي وأوراق في النسب والأدب •

ويوجد منه نسخة في النجف بمكتبة حفيد المؤلف الحجة السيد علي شبر نزيل الكويت اليوم ، وتاريخها ١٢٢٥هـ في ١٧٠ ص • ويوجد بمكتبة العلامة السيد عباس شبر في البصرة كتبت بالتاريخ نفسه في ٢٠٠ ص تقريبا •

٥ ـ الاخلاق والعقايد :

تأليف العلامة الكبير الشيخ محمد باقر بن محمد تقي الشهير بالمجلسي المتوفى ١١١١هـ صاحب (بحار الانوار) في ٣٨ ص فرغ ناسخه منه في ربيع الثاني ١٢٨٧هـ برقم ١٤ مجاميع ٠

٦ ـ اخلاق محسنين :

تأليف ملا حسين الكاشفي الاسفراييني ، وضعه باللغة الفارسية للملك محسن ميرزا بن سلطان حسين بايغو ، رتبه على أربعين بابا ، خص كل باب منه بصفة من الصفات الاخلاقية التي يجب ان تتبع ، بخط الآنسة الايرانية سلطان نجاة بنت السلطان محمود فرغت من نسخه في شهر المحرم عام ١٢٥٥هـ في ٢٠١ ص ١٤ س ، ٣٠/٢ سم ، ٢٠/٢ سم ٢ سم ، برقم ٢٤٤ كلام ٠

٧ ـ آداب البحث وطرق المناظرة :

تأليف شمس الدين محمد السمرقندي ، في ٦٤ ص ١٥ س ، برقم ٥٥ نحو ٠

٨ ـ آ داب المناظرة :

تأليف محمد بن الحسن الشهير بفخرالدين الحسيني ، فرغ كاتبه منه ليلة التاسع من شهر رمضان ١٠٢٠هـ في ١٥ ص غير منقوط ، برقم ٢٦ مجاميع ٠

٩ ـ بحر المعارف الرباني :

تأليف ملا عبدالصمد الهمداني ، باللغة الفارسية ٠ بحث فيه اثبات واجب الوجود عن طريق الفلسفة الاخلاقية ، وعن النبوة بطريق يشابهه ، بخط باقر بن محمد المراغي ، من أجود الخطوط مجدول بالذهب ، في ٦٧٥ ص ٢٣ س ، ٣٠/١ سم ، ١٨/٥ سم ، ٣ سم ، برقم ١٨٨ كلام ، وقد وضع في مقدمته فهرست في ١١ ص ٠ ط على الحجر بايران ٠

١٠ ـ التحصين وصفات العارفين :

تأليف الشيخ ابن فهد الحلي ، رتبه على ثلاثة أقطاب ، فرغ كاتبه منه ليلة السبت من جمادى الاولى عام ١٢١٧هـ في ٢٠ ص برقم ٢٣ مجاميع ٠

١١ ـ حق اليقين :

تأليف أمير الحويزه السيد خلف بن عبدالمطلب بن حيدر بن محسن بن محمد الملقب بالمهدي بن فلاح المشعشي الموسوي المتوفي ١٠٧٤هـ رتبه على ثمانية كتب ، وكل كتاب على عدة مسالك ، وكل مسلك على عدة

مقامات . مال ببحثه نحو جانب الاخبار أكثر من المنطق والكلام ، كتب في عصر المؤلف ، فقد تكرر على هوامشه كلمة (قوبل بتصحيحه على المؤلف) في ٥٣٨ ص ٢٥ س ، ٢٤/٢ سم ١٥/٥ سم ، ٣/٢ سم ، برقم ١٢٩ كلام .

١٢ ـ الدرة الفريدة :

في علم المناظرة وآداب المحاورة . مجهول المؤلف ، في ١٧ ص ١٧ س ، برقم ٩٠ منطق .

١٣ ـ الزهد والاخلاق :

تأليف الحسين بن سعيد بن حماد الاهوازي ، بخط صاحب الحصون فرغ من كتابتها عام ١٣٤٠هـ في ٦٤ ص برقم ٦٧ حديث .

١٤ ـ صحيفة الامام الرضا :

من املاء الامام علي بن موسى الرضا عليه السلام ، برواية أبي القاسم عبدالله بن أحمد بن عامر الطائي ، في ٦٠ ص ١٤ س ، برقم ٧٤ أخبار ، ويوجد بخطي كتبته عام ١٣٥٢هـ ، ط على الحجر في بومبي الهند .

١٥ ـ علم المناظرة والآداب :

مجهول المؤلف ، بخط دقيق في ست صفحات ٣٣ س ، ١٩ سم ، ٩/٥ سم ، برقم ٧٨ نحو .

١٦ ـ كليله ودمنه :

وضعه باللغة الهندية الفيلسوف بيدبا ، ونقل الى الفارسية ، ثم نقله الى العربية ابن المقفع . يوجد برقم ٢٢٥ أخلاق .

١٧ ـ لباب الاحباب :

تأليف ابي حامد بن محمد بن محمد بن محمد المعروف بالغزالي المتوفى ٥٠٥هـ انتخبه مؤلفه من كتابه الكبير (احياء علوم الدين) رتبه على أربعين بابا (١) في العلم (٢) في الاعتقاد (٣) في أسرار الطهارة (٤) في أسرار الصلاة (٥) في أسرار الزكاة (٦) في أسرار الصوم (٧) في أسرار الحج (٨) في تلاوة القرآن (٩) في الأذكار والدعوات (١٠) في الأوراد (١١) في الاكل والشرب (١٢) في النكاح (١٣) في الكسب (١٤) في الحلال والحرام (١٥) في النصيحة (١٦) في العزلة (١٧) في آداب السفر (١٨) في السماع (١٩) في الامر بالمعروف (٢٠) في أخلاق النبوة (٢١) في عجايب القلب (٢٢) في رياضة النفس (٢٣) في آفة الشهوتين (٢٤) في آفة اللسان (٢٥) في آفة الغضب (٢٦) في ذم الدنيا (٢٧) في ذم المال والبخل (٢٨) في ذم الجاه والرياء (٢٩) في ذم الكبر والعجب (٣٠) في الغرور (٣١) في التوبة (٣٢) في الصبر والفكر (٣٣) في الخوف والرجاء (٣٤) في الفقر والزهد (٣٥) في التوحيد والتوكل (٣٦) في المحبة والرضى (٣٧) في النية

والاخلاص (٣٨) في المراقبة (٣٩) في التفكر (٤٠) في الموت · وكل كتاب اشتمل على فصول ، فهو قيم أكثر عن الاصل لاداء القصد مع الايجاز · فرغ كاتبه منه عام ١٢٤٢هـ في ٢١٤ ص ٢١ س ، ٢٠/٣ سم ، ١٣/٤ سم ، ١/٤ سم ، برقم ٢١٦ كلام ·

١٨ ـ المحجة البيضاء :

تأليف ملا محسن الفيض الكاشاني ، في مجلدين برقم ٢٣٥ و٢٣٦ أخلاق · ط على الحجر بايران ·

١٩ ـ مصادقة الاخوان :

تأليف أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي الشهير بالصدوق المتوفى ٣٨١هـ ، رتبه على ٤٢ بابا (١) في حدود الاخوة (٢) في الشفقة (٣) في اتخاذ الاخوان (٤) في اجتماعهم (٥) في احياء ذكرى الائمة (٦) في المواساة (٧) في معرفة حقوق الاخوان (٨) في كون الاخ مرآة الاخ (٩) في الاطعام (١٠) في ملائمة الاخوان (١١) في منفعة الاخوان (١٢) في استفادتهم (١٣) في ان المؤمن أخو المؤمن (١٤) في افادتهم (١٥) في الهجر (١٦) في الاستيحاش (١٧) في المحبة (١٨) في التبسم وأهميته في وجه الاخوان (١٩) في قضاء حوائج الاخوان (٢٠) في النهي عن السؤال (٢١) في زيارتهم (٢٢) في مصافحتهم (٢٣) في ادخال السرور عليهم (٢٤) في ذم البخل (٢٥) في اباحة الشكوى اليهم (٢٦) في افراحهم (٢٧) في منع ملاقاتهم بما يسوءهم (٢٨) في بر الاخوان (٢٩) في السعي وراء قضاء حوائجهم (٣٠) في اقالتهم عن المهمات (٣١) في اختبارهم (٣٢) في استكشاف ثقتهم (٣٣) في صدق اخائهم (٣٤) في السعي وراء حوائجهم بغير نية (٣٥) في منع استذلالهم (٣٦) في تطييبهم (٣٧) في حبهم (٣٨) في الوقيعة وذمها (٣٩) في الدعاء لهم (٤٠) في ملاطفتهم (٤١) في كسوتهم (٤٢) فيمن يجب اجتناب تآخيه ·

بخط صاحب الحصون فرغ من كتابته يوم الجمعة ٢١ ذي القعدة ١٣٣٧هـ · ويوجد بخطي فرغت منه يوم الثلاثاء ثاني جمادي الاولى ١٣٥٣هـ في النجف ·

٢٠ ـ المقامات الادبية الاخلاقية :

تأليف السيد ماجد الجد حفصي البحراني ، اشتمل على عدة مقامات في الاخلاق ، بخط محمد باقر بن محمد رضا العاملي فرغ من كتابته خامس شهر صفر عام ١٢٨١هـ في ٦٤ ص ، برقم ١٤ أخلاق ·

٢١ ـ نيل المرام في بيان حكم السلام :

تأليف الشيخ محمد البقري ، فرغ من تأليفه يوم الجمعة تاسع شهر ذي الحجة ١١٤٩هـ بخط ياسين بن كنعان ، فرغ من كتابته يوم الاحد سابع ذي الحجة ١٢٦٩هـ في تسع صفحات كبار ، برقم ٢ مجاميع ·

أثر الشعر في إيقاظ الروح القومي

شاكر ابو مكي

نشأ الشعر مع الانسان وعاش معه على مر العصور والدهور ، يتغنى الانسان به معبرا عن مشاعره وعواطفه ، ينغمه مع الاهات ويرقص عليه مع النغمات ، يستميت في الحروب بدافع من قوافيه ويستلهم العزم والحزم من اوزانه ومعانيه ، وكلما صعد الانسان في اطوار حياته ، حلق الشعر معه في مجالاتها ، وصار اداة عظيمة الشأن في نشر أفكار الانسان وبث فلسفته وصقل عواطفه وتهذيب مشاعره ٠

والانسان العربي انسان شاعري بفطرته ، لصفاء روحه ورقة مشاعره وطبيعة بلاده واسلوب حياته ، وللشعر أثر عظيم على نفسية الانســان العربي ، يلهب عواطفه ، ويؤجج مشاعره ، لذلك كان للشعر أثر كبير في ايقاظ الروح القومي ، كما هز الضمير العربي بعنف ، وحلق به في اجواء دنيا العرب وسما به في أفق العروبة ، واستنهض الشعر الهمم لاعادة مجد العرب في البناء والحضارة والتقدم ، كما دعا للثورة على الظلم والاستعباد ، ونادى للتحرر والوحدة العربية ٠

ان الشعر العربي واكب الحركة القومية العربية داعيا لها موضحــا اهدافها مرسلا اشعاعاته على سبيلها ، هاديا روادها والعاملين لها ٠

ومن اوائل القرن العشرين تعالت صرخات مدويــة ايقظت النائمين واستنهضت الخاملين وشدت من عزائم الخائرين ، واول صرخة تعالت في سماء دنيا العرب ، صرخة الشاعر العــربي « الشيخ ابراهيــم ناصيف اليازجي » والتي يقول فيها :

تنبهوا واستفيقوا ايها العرب ... فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب

وفيها يقول :

الله أكبر ما هذا المنــــام فقــد ... شكاكم المهد ، واشتاقتكم الترب

وفيها يقول :

فشمروا وانهضوا للامر وابتــدروا ... من دهركم فرصة ضنت بها الحقب

وفيها يقول :

الله يا قومنا هبوا لشأنكم ... فكم تناديكم الاسفار والخطب

وفيها يقول :

فيا لقومي وما قومي سوى عرب ... ولن يضيع فيهم ذلك النسب

وفيها يقول :

لنطلبن بحد السيف مأربنا ... فلن يخيب لنا في جنبه أرب
ومن يعش ير والايام مقبلة ... يلوح للمرء في أحداثها العجب

كان لهذه الصرخة المؤمنة اصداء رددتها كل بقعة من بقاع الارض العربية بعد ان عبرت الحدود وتخطت السدود والقت باشعاعاتها في كل زاوية من زوايا دنيا العرب ، فتفتح على معانيها الوجدان العربي واستجاب لندائها .

وتعالت صيحة من طرابلس الشام صاحها الشاعر « تقي‌الدين عبد الحميد بن عبدالغني الرافعي » يخاطب قومه العرب :

هبو بني العرب الام الكرى ... وقد دها الآمال دهاسها
طلبتم الاصلاح من عصبة ... توتر بالافساد اقواسها
فكم تقيمون على ذلة ... وروضة الصبر ذوى أسها
ألستم نسل القروم الأل ... تنتعل الهامات افراسها
فجردوا العزم الذي طالما ... شق صدورا طال وسواسها

وتعالت الصيحات من كل مكان وتوالت الصرخات من كل جهة ، ونشرت الروائع الفذة من الشعر العربي والفرائد القومية على صفحات الصحف المجاهدة ، فتغنى المجاهدون بها في الفيافي والقفار وانشدوها في أعالي الجبال وفي بطون الوديان ، فانبتت الآمال واخضر عودها واستوت الاهداف على سيقانها . ومن هذه الاناشيد انشودة الشاعر الكبير المرحوم « عبد المحسن الكاظمي » التي يدعو فيها العرب الى الثورة على الظلم والاستبداد .

سيروا بنا عنقا وشدا ... سيروا بنا ممسى ومغدى
سيروا نذب عن الحمى ... ونرد عنه المستبدا
من لان للخطب الشديد ... توقع الخطب الاشدا
لما تزل عزماتنا ... قداحة زندا فزندا
ان كان حرب فابتنوا ... لي في بطون الطير لحدا
أو كان سلم فاجعلوا ... ذاك الثرى عينا وخدا

ونداء آخر يرسله الشاعر لينفذ الى العقل العربي لينيره ويهدي سبيله :

ايها القوم كلنا اليوم عرب ... والى العرب يطمح العالمونا
بعضنا في الخطوب عون لبعض ... ان اردنا على الخطوب معينا

فعراقينا متى اشــتد خطب   رد سورينا الشدائد لينـــا
ايها العرب بادروا واستردوا   مجدكم من مخالب الغاصبينا
لا يفرقكم اختلاف فأنتم   في سبيل الاوطان متفقــونا
انما الشام والعراق ومصر   اخوات وان تفرقنا حينـــا

ففي الصرخة الاولى والنداء الثاني يدعو الشاعر قومه الى التعانق والسير صفا واحدا في المسيرة الكبرى نحو مطلع فجر الامة على الطريق الطويل ، فاما حربا فالتضحية بالارواح والفداء بالانفس ولتتفجر الارض براكين تحرق المستعمر والظالم والمستبد ، واما سلما فلنتقدم بثبات نضع يدا بيد وقلبا بقلب وفي كلا الحالتين نملك الوسائل الناجعة ، فالايمان والعــزم والحزم والاخوة والدم والآمال والآلام تشدنا بعضنا لبعض فنصل الى نهاية الطريق ونبلغ اهدافنا .

ان الشرارات الاولى التي قدحتها ازندة الشعراء الرواد في الدعــوة الى النهوض واليقظة في الوجدان العربي ، ألهبت مشاعر وعواطف الشعراء الشباب ، فكانوا شعراء توربين الهبوا الحماس في الروح القومي واججوا أوار نار الثورة في نفوس العرب ووحدوا شعورهم وصهروا عواطفهم في بوتقة القومية العربية ، والقوا بجمراتهم على الرمال الملتهبة فاسعروها بوجه المستعمرين :

انني انذر باسم الارض أرضي العربيـــة
صرخك الهاوي ولو ظلت اله فينا بقيــه
في غد يمسي اسمك الدامي برأس البشريه
خاطر اسـود كالاثم بغيضـا كالدنيـه
ايها المستعمر الجاثي على عنق الضحيــة
في غد تطهر هذي الارض ارضي العربيــة

وشعلة أخرى يهزها بوجه المستعمر :

اروها لا تشح بوجهك يا سـفاح   جرح الشهيد لحن العصــور
اروها واستمع صداها جموعا   هادرات ، وثــورة كالسعير
استمع غضبة الجماهير تملـي   بدماها قصيــدة التحــرير
في حنايا الهضاب وفي الشــاطيء ....   الرجراج بركان وثبتي ونشــوري
هو منا ، ونحن منه الـدم المسـ ...   ـفوك فوق الثرى ثرانا الطهور
الاباة المصممـــون اباتـــي   والصقــور المزمجرون صقوري
دمنا تصرخ الملايين فيـــه   يا عصور الضياع والذل ثــوري
يا حماة الدجى تشـققت الارض   وهادتن عن الف فجر منير

الابيات الاولى هي ناقوس مزق الاجواء معلنا ازوف الوقت وبداية العمل ، وبوق نفير يستنفر الاحرار للتحشد والاستعداد ، وصوت نذير هز كيان المستعمرين وأشار الى النار التي تتخلل الرماد والتي ستضطرم فتحرق اليابس والاخضر .

أما الابيات الاخيرة فهي لواء خفق في الآفاق الرحبة يحكى قصة المارد العربي الذي فتح عينيه وجلس محتبيا ، ثم تمطى ليكسر الاغلال فينطلق من عقاله ، ليسير بخطى طولها ثلاثين ذراعا ، وليدبج بدماء الشهداء سطورا ذهبية ·

لقد ادى الشعر واجبه القومي على الوجه الاكمل في جميع الفترات التي مرت بها البلاد العربية وعالج شؤون الساعة فيها ، وكان القوة الدافعة للوجدان العربي في طلب المزيد من المكاسب القومية · وعرى التزييف والمزيفين وفضح التزوير والمزورين واشار الى موطن الداء وقدم الدواء الى الجسم المقطع والوطن المجزء والدونة التي أصبحت دويلات :

لو جمعت لم تك اوطاننا دويلة فكيف صارت دول
غدا اذا هددنا جارنا فكيف نلقاه بهذا الغلل
يكفى بان اصبح مزمارنا يصدح ان العربي استقل

والوحدة العربية هدف من أهداف الشعر العربي وغاية من غاياته الهامة ، لا سيما الشعر المعاصر منه ، وكما حلى الشعر الامل الكبير وأوضح الهدف السامي والقى بانواره على مفترقات دروبه فبدد الظلمة وأضاء العتمة وأنار السبيل سبيل الكفاح من أجل الوحدة العربية ·

تفجري يا ارض باللهب
واشرقي يا دولة العرب
الى تخوم الوحدة الكبرى ، الى الغد
لبيك كل بقعة من وطني المهدد
لبيك اقوى من طغاة الارض
زندي ويدي

ويقول الكاظمي :

انما الشام والعراق ومصر اخوات وان تفرقن حينا
سينال الجميع بعد قليل ما رجاه لغيره الراجونا
فتعود البشرى لنا تلو بشرى تتغنى بذكرها طربينا

ويقول الاستاذ خالد الشواف :

الى المجد ··· مجد الحياة نخوض لظى المعترك
الى الوحدة المبتغاة على دربنا المشترك
يوحد في نهجه السائرين هدى المصطفى وخلال العرب
وتسبق فيه خطى الثائرين امانيهم بالغد المرتقب
الى المجد ··· مجد الحياة نخوض لظى المعترك
الى الوحدة المبتغاة على دربنا المشترك

فالحق ان الشعر العربي ايقظ الروح القومي وتغلغل في الضمير العربي ، فشحنه بالطاقات القومية الهائلة ، فدفعت هذه الطاقات بالمد القومي في طريقه الى اهدافه الكبرى ·

من موشحات شكسبير

في غفوة إله الحب

الموشحة الرابعة والخمسون بعد المائة

ترجمة

الدكتور صفاء خلوصي

تعتبر الموشحة الرابعة والخمسون بعد المائة آخر موشحة نظمها شكسبير وختم بها مجموعته المشهورة التي تدور حول موضوعين أساسيين هما اللورد هنري والسمراء المجهولة ويبدو ان هذه الموشحة الاخيرة لم تشر الى اي من الموضوعين انما اكتفت بذكر لوعة الحب التي تدخل في صلب موشحاته جميعا ، ويلاحظ القارىء ان شكسبير قد راعى فكرة الموشحات الافرنجية بدقة فهي تبسط في الخمسة الابيات الاولى رأيا أو حكاية توجز أو تستخلص منها عبرة في « القفل » أو البيتين الاخيرين السادس والسابع ويجب أن يتذكر القارىء أن موشحات شكسبير كلها موزونة مقفاة على الطريقة العربية تماما وانه لم يحاول أن ينظم أي شيء بطريقة الشعر الحر اطلاقا ولكنه ادخل في مسرحياته الشعر المرسل وهو الشعر الموزون ذو القافية الطليقة وقد عالجه العرب القدامى في علم القافية في باب الاكفاء والاجازة (وهي اختلاف قافية القصيدة من أولها الى آخرها) اما في الموشحات فقد راعى الترتيب الذي اتبعناه وهو :

(أ ب أ ب ـ حـ د حـ د حـ د ـ أ ب أ ب)

ذات يوم إلهة الحب نامت وتناست مشاعل الهيمان
فتلظى الفضا بنار تسامت وتبدت بروعة المهرجان

* * *

فأتتها حور الجنان اللواتي نذرت نفسها لطهر العفاف
وتناولن أقدس الملهبات قاذفات بها بحوض سلاف
قلن : هذا الشراب خير الهبات لعلاج المتيمين الضعاف

* * *

فأتيناه اليه والروح هامت لخلاص وصحة وأمان
فاذا لوعة الفؤاد تنامت ثم حزت كمثل حد السنان !

دافيد هربرت لورنس

الروائي الشهير

بقـــلم

الاستاذ كينث يونج

ترجمـــة

عزيز يوسف المطلبي

يبدو لنا لورنس اليوم كما لو كان واحدا من ذلكم الضرب من الفنانين الذين هم في خلاف مستديم مع المجتمع • وفي هذا المضمار فان اســـلاف لورنس الحقيقيين هم (بليك) Blake و (وايت مان) Whitman وهم رجال كانوا يكرهون العقل mind ، بيد ان الافكار كانت تتزاحم لديهم • وقـــد استطاعوا من مكانهم المتطرف الذي اختاروه ان يدرسوا العالم بتبصر شديد وان يستكنهوا الحقائق المعقدة التي خفيت على الآخرين • وقد بدا لورنس للمعاصرين احيانا كمـــا لو كان فيلسوفا متســـيبا do-as-you-please philosophei ورسولا للحرية الجنسية • وآخرون حقا عرفوه ككاتب عظيم ، بيد ان قوته الحقيقية أو ضعفه لا يمكن رؤيتهما بوضوح خـــلال ستارة الدخان الكثيفة المتاثرة بهجومه أو دفاعه العاطفيين • ان عظمتـــه ومواطن فشله الان هما أكثر وضوحا من ذي قبل • ويستطيع المرء أن يدرك بأن كثيرا من شعره ان هو الا تخطيطات لقصائد وليست عملا متكاملا مع أن (سفينة الموت) (The ship of death وعددا من قصائده الاخر تستحق أن تقف الى جوار أفضل ما أنتجه هذا القرن • وواضـــح أيضـــا بأن كثيرا من حصيلة عمل دام خمسة وعشرين عاما من المقالات والكتب والروايات التي كتبها من غير المحتمل أن تقرأ بعد خمسين عاما من الان • ان قلة من قصصه القصيرة نسبيا ذات مستوى عال جـــدا مـــع أنه لا يخلو شيء مما كتب من ومضـــة حـــكمية أو رفع للمعنويات heart-lifting أو مقطـــع آخاذ بالالعـــاب breath-taking phrase ان الســـمو يكمن في رســـائله وكتب الاســـفار وقصصه الطويلة وان عظمته تتجســـد في رواياته كما أن سمعته الادبية يجب أن ترتكز عليها • وقد ضمن هذا المعنى عندما قال :

« باعتباري كاتب قصة فانني ارى نفسي أسمى من القديس أو العالم أو الفيلسوف أو الشاعر • ان القصة ان هي الا كتاب الحياة المتألق » •

ولقد حاول أن يضع في قصصه كل نفسه الخارقة في تعقيدها وحكمته المتألقة وادراكه المتميز للطبيعة غير البشرية واعتقاداته التي غالبا ما تتناقض مع حكمته ومع الصورة التي أرادها للحياة . ففي (نساء عاشقات) Women in love و (الافعى ذات الريش) Plumed Serpent وبدرجة أقل في (أبناء وعشاق) Sons and Lovers و (عشيق الليدي شساترلي) Lady Chatterley's Lover يكمن التوتر الحي والدلالة العميقة للعبقرية . فهو لا يطيع قاعدة ما ، وهو لا يميل الى التكلف المتقصد كما أن (الذروة) المتعمدة غريبة عليه . فقصصه تنساب طبيعية ، وبدلا من الحدائق المصممة بحذاقة ، تجد فيها مناظر عفوية . واذ يعيد المرء قراءتها اليوم فانه ليندهش بقوة وهو يقف على الوصف الساحر للطبيعة ، والاحساس بالمكان ، وجو العالم اللا انساني . سواء أكان ذلك في اعادة بناء re-creation (اتروريا) Etruria ووصف تلال ووديان موطنه نوتنكهام شاير Nottnig ham shire وسواء استراليا الغربية أو الارض المعذبة المتأججة التي أحرقتها الشمس في (المكسيك الجديدة) ومع أن المشهد يدعو الى الحزن والاسى (مثلا مشهد مناجم مدلاندز Midlands وهي قرية فقيرة في جنوب ايطاليا) فان طهارة ودقة الكلمات وايمان روحه بروح المشهد والتصاقها بجوه ، تبلغ درجة تسمو بالقلب والعقل معا تماما كما يفعل الشعر في المواضيع التراجيدية .

ومهما يكن من تعاظمه وادعاءاته الخاطئة في المواضيع الاخرى (كالحب والادب والسياسة) فان لورنس هنا بمثابة الاداة الطيعة التي تعكس الجوهر الصافي للعالم الخارجي .

ان الوصف المرح للظواهر الطبيعية والذي يفيض حركة ، يواكبه في كتبه التي ألفها في باكورة حياته الادبية مرح في اعادة احياء re-creation الطبيعة البشرية . وكثيرا ما غض النظر عن قدرة لورنس في رسم الشخصيات التي لا تنسى بالسهولة التي كان يرسمها بها دكنز (بالسهولة الديكنزية Dickensian facility)(١) . فالدكتور المولع بشرب الويسكي وزوجته والبنات (مادي) Madie و (ماري) Marie و (أليس) Alice في (الطاووس الابيض) White Peacock و (لوزيا) Lousia صديقة (هيلينا) Helena والالمان في عربة القطار في (الخاطىء) Tres passer وشخوص لا حصر لها في (أبناء وعشاق) والتي هي ، عدا كونها أي شيء اخر ، تمثل صورة لامعة للطبقة الوسطى ـ الدنيا Lower-middle Class للمجتمع الانكليزي في عهد الملك (ادوارد) Edwardian Era . كل هذه وأكثر منها توضع أمامنا بوضوح مثير .

بعد هذا ، على أية حال ، تميل الشخوص لتظهر بشكل هجائي ك (هاليدا) Halliday و (لبدنيكوف) Libidnikov في (نساء عاشقات) و (آرجيل) Argyle و (آلجي كونستابل) Algy Constable في (فلقة آرون) Aaron's Rod أو تظهر على اسوأ الفروض مجرد أبواق وعلى أحسن الفروض رجالا ونساء كعناصر من الطبيعة فقدت آدميتها . أشخاص مثل (وليم) William في (قوس قزح) Rainbow أو (دون رامون) Don Ramon في (الافعى ذات الريش) او حتى (ميلورز) Mellors حارس الصيد game-Keeper في (عشيق الليدي چاترلي) لدى هؤلاء جميعا عذاب ذهني لا صراع عقلي . فهم شديدو الحساسية بالحوادث الخارجية التي تؤذيهم والتي يتلوون تحتها بشقائهم بيد انهم يقبلونها على أساس انها تصيبهم في الحياة . فان السيدة (الليدي) شاترلي وهي تجابه بعجز زوجها تتردى في حمأة التجاوب مع حافز (ميلورز) القوي لان طوفان الحياة يشملهما معا . و (جيرالد) Gerald مثلا في (نساء عاشقات) في معرض ادراكه لطبيعة (انكست) Angst كان يعاني أكثر فأكثر من خوف الشعور بالافتضاح . فعندما يختلي بنفسه في المساء وليس له ما يشغله كان يقف فجأة فزعا لا يعرف كنه نفسه أو (سكر بنسكي) Skrebensky في (قوس قزح) الذي كان الفزع يأخذ بخناقه لشعوره بانه « ليس موجودا » . أو وليم William (في الكتاب ذاته) الذي كان يشعر بانه « شخص صغير يقف على سهل محاط بسماء هائلة تجأر » . هؤلاء قد يتمردون قليلا ، لكنهم أخيرا يستسلمون ويتجهون مباشرة الى مصائرهم الخاصة ، تماما كما تفعل الشخوص في المأساة الاغريقية . وهناك لكثير منهم لمسة من (الثور الاخرس) Dumb Ox (٢) تشبه لحد كبير ما كان لشخصيات (شيرود اندرسن) Sherood Anderson .

ان هذا النقص في الصراع العقلي يعني ان هناك اثارة (suspense) قليلة في الروايات . فمهما يكن من جودة (الافعى ذات الريش) ، غير انها كانت من الممكن ان تكون أفضل مما هي عليه لو ازداد الصراع العقلي لدى (كيت) Kate بين ما يتطلبه منها (دون سبريانو) Don Cipriano والدين الجديد ـ القديم New-Old Religion وبين ما يوحيه لها حسها الفطري . وهناك أيضا ، على أية حال ، (عدم توقع) معين وجو من الغموض عن حوافز بعض الشخوص والاسباب التي تقودهم لاعمالهم . وهذا جزئيا يعود الى طبيعة (التكنيك اللورنتي) Lawrentian Technique الذي هو طابع مميز hall-mark لكل رواياته . وهذا ما صرح به الاستاذ (ستيفن بوتر) Stephen Potter وهو لا يزال احد النقاد اللامعين الاوائل للورنس .. قال « ان لورنس أحيانا يشير الى داخلية الانسان كشيء متميز

تماما عن كلامه الخارجي والاتجاهات والحوادث الخارجية » وهنا ينطبق على (ارون) Aaron وعلى (سيسيو) Cicio في (الفتاة الضائعة) The lost Girl • لكن القارىء في اعماقه لا يكتنفه الغموض • فقد كانت للورنس موهبة لا تضارع في اظهار المشاعر شبه الدفينة التي يتبادلها الناس باستمرار وحتى ما بين الغرباء منهم » والحوافز التي يلتقطها الذهن والملحوظات التي ربما تسيره في أعماله دون ان يكون في الحقيقة شاعرا بذلك • فهناك حركة (مفصل الذراع) أو (غمزة الحاجب) التي تشير الى الاهتمام أو الفزع اللا شعوري أو الى أي شيء آخر ، ولو ان الشفاه تقول شيئا لا يمت لذلك بصلة irrelevant •

والحقيقة ان السعادة لا تبدو على احد من شخوص لورنس الرئيسة وحتى الشخوص التي ارفدت (بالحكمة) اللورنتيه Lawtentian wisdom والتي تعتبر دائما اقنعة لشخصية لورنس نفسه مثل (بركن) Birkin في (نساء عاشقات) و (للي) Lilly في (فلقه ارون) و (سومرز) Somers في (الكنغر) Kangaroo لا تعطي طابع الحكمة لان التأكيد في هذه الشخوص ينصرف الى شكوكها لا الى مسراتها • وقد كان لورنس يعتقد ، في الوقت الذي كتب فيه (نساء عاشقات) ، بان التعاسة الاساسية للانسان المتحضر تعود بالدرجة الاولى الى التطور الصناعي • فقد غيرت الماكنة الطبيعية البشرية ، وصرفتها عن مصادرها الاصلية في الطبيعة • وبالنسبة للورنس فانها مسألة « كل منظر في الطبيعة يبهج ولا شيء رديء غير الانسان » ومع ذلك ، فليس هناك شخص شرير حقا أو شخص قد اسره الشيطان بالنسبة للورنس كما هو الحال مثلا بالنسبة لجيمس (James) أو (هكسلي) Huxley أو (گراهام گرين) Graham Greene ان الشر في شخوص لورنس (الرديئة) ينفذ اليها من الخارج • وكما جاءت على لسان (بركن) « ان الماكنة هي التي تتحكم بالانسان بدلا من ان يتحكم هو فيها • » ان الآلية ، Mechanicalness وهي عنصر مخرب ، أصبحت تسيطر على أعمق الغرائز ، وهكذا يتنكر الانسان للحياة ويساق » كما هو الحال بالنسبة (لجيرالد) Gerald أو (سير كليفورد چاترلي) ومما يجدر ذكره هو ان الاثنين كانا ذوي سطوة في الصناعة » الى الموت أو الموت البطيء بسبب الشلل الجسماني • وفي كتاب (التحليل النفسي واللا شعور) Psychoanalysis and the Unconscions يشير لورنس الى ان العقل هو الذي انتج الالية والعقل (هو النهاية الميتة للحياة) ، لكنه يحتفظ بكل القوى الميكانيكية لعالم الجمادات Non-vital Universe فهو (دينامو) عظيم للقوة ما فوق الالية Super mechanical فاذا ما اعطي (الارادة) كشريك له ، فانه سينشر أفكاره الاليه و (اتوماتيكيته) على جميع مناحي الحياة ، الى ان تصبح كل شجرة وعاء شاي وكل انسان آلة

نافعة . فالدماغ يخضع كل شيء تلقائيا الى قواعد آلية معينة تسمى مثلا أو أفكارا . »

ان وراء هذا الخلط من المعنى واللغو شيئا حقيقيا ، فان الطبيعة الا بشرية تعيش حياة طبيعية تامة ، اما الانسان فلا . ان ما يتوق له لورنس من مثل حقيقي ليس هو الانسان الفظ (ميلورز) Mellors ولا الكسول lackadaisical (آرون) Aaron الذي يترك زوجته لانها مثالية Idealistic لكن (مثله) هو الارنب والديك الرومي Cock-phaesant والاشجار في الغابة السوداء Black Forst .

« لكأنني أكاد أسمع دماءها القوية وهي تضرب في اعراقها .. لكأنني أكاد أسمع هذه الدماء القوية ذات الاريج وهي تتصاعد الى فروعها . » ولكن أيستطيع الانسان ان يعيش في القرن العشرين (ما عدا الاجير المكسيكي أو الخادم الخيالي في (الرجل الذي مات) The man who died والذي « أخذ جسمه الغض يرتعش عاريا اعمى) أيستطيع مثل هذا الانسان ان يبلغ الكمال في عيشه . ان الكمال Wholeness شيء مقدس بالنسبة للورنس وانها لصبوة عاطفية أزاء البراءة التي فقدها العالم الى الابد ان كانت هناك براءة حقا . وتتمثل هذه الصبوة في الصرخة التي اطلقها حتى نهاية حياته :

« .. انني جزء من الشمس مثلما عيني جزء مني . وكوني جزءاً من الارض ذلك ما تعرفه قدماي تماما كما ان دمي جزء من البحر . فلزام علينا ان نرقص جذلين لاننا احياء وجزء من العالم الحسي . »

لقد كان للورنس ، في الحق ، عين بريئة ، وتعلق عميق بالارض وعجائبها والتي كانت مصدر قوته ككاتب . وكان شاعرا أيضا بضياع البراءة ويعتبر تحليله لها في الشخوص التي قدمها في رواياته عظيما : ابتداء من (بول موريل) Paul Morel وانتهاء بـ (ليدي كونستانس) Lady Constance . لكن حساسيته المفرطة في هذا المجال تعتبر أيضا نقطة ضعفه . ان فزعه ليس فقط من قساوة الاخرين لكن من قسوته هو يكاد يظهر في جميع مؤلفاته ، وبشكل أكثر وضوحا عندما يكتب عن الحيوانات . فالحصان النطيح Cored في (الافعى ذات الريش) يثير الاشمئزاز . كما ان موت الارنب في (نساء عاشقات) وفي (الطاووس الابيض) مثير للمشاعر . ومع ان هذه الحوادث لم ترد باسهاب ، لكنها تحمل نغمات هستيرية تقريبا hysterical over tunes . لكن هذه الحساسية المتزايدة ، ممتزجة ، وهذا ما يجب الاعتراف به ، بميل معين نحو الوعظ والارشاد ، قد قادت لورنس لان يبحث بجنون عن (دواء) يشفي تعاسة العالم . اما في الحياة الواقعية فقد اتخذ دور (النبي) وكان في كل أدوار حياته يضع الخطط ليؤسس مجتمعا جديدا في أنحاء مختلفة

من العالم مع وجود اتباع قلائل ، حتى أنه انشأ هذا المجتمع كما فعل في مزرعته في (نيو مكسيكو) • ان هذا لا يهم كثيرا ، فحينما يبدأ الوعظ في الروايات (novels) فان القصة تكون قد بلغت نقطة خطيرة •

ان الوعظ ، على أية حال ، يصبح ممتزجا أشد الامتزاج ، بأعمق الادراكات • ان (المرأة التي رحلت) The Woman who Rode Away تعتبر قصة قصيرة وجميلة لحد ما ، لكننا لا نكاد نصدق خضوع المرأة الى آلهة الهنود وللمسكين ونحن نشعر ان الامر كذلك بالنسبة للورنس • ان زوجات عمال المناجم اللائي يشبههن الوحش المجنح في (نساء عاشقات) يظهرن متألقات ، لكننا لا نعتقد ان (مشكلتهن) هي نقص في المعرفة • ونحن قد نرجيء اعتقادنا هذا ونحن نقرأ (عشيق الليدي چاترلي) ، لكننا ، بعدئذ ، نعرف ان لورنس يحاول ان يروض نفسه لاعتقاد يرى انه الجواب لكل المشكلات •

يجب ان يقال بان القصصي العظيم يؤثر في المجتمع عن طريق الاشعاع • ولقد اضاء لورنس امامنا مساحات واسعة من التجربة الانسانية • ويجب ان يقال أيضا بان افكاره اللورنتيه في أرقى ما وصل اليه (نساء عاشقات) والتي تجيء على لسان الشخوص ، تعارض ويهزأ بها ، بل انها تهدم من قبل الشخوص الآخرين • ان القصة تفقد بهاءها عندما يريد لورنس ان يفرض على القاريء وعلى نفسه تصميما معينا فيظهر ، نتيجة لذلك ، توتر غير مريح بين الخيال والوعظ • واذا ما ركبه الشيطان ، فان شكل القصة يلتوي بوحشية فتتحطم الرؤيا بتأثير عدم الترابط ولا يبقى غير اللفظ العذب وهو يلح متظاهرا بان البحث عن الايمان كان ناجحا وان كمال « الانسان حقيقة واقعة •

* * *

في مقالة نشرت في المجموعة المسماة (موت قنفذ) Death of Porcupine قال لورنس : « تستطيع ان تضع اي شيء في القصة فلم اذن درج الناس على ان يضعوا دائما نفس الشيء ••• »

وانني أعتقد ان لورنس نفسه قد حاول ان يضع فيها أكثر مما ينبغي ونفخ القصة في أشكال غريبة كما لو كان نافخ زجاج قد جن • ان عناده بهذا الصدد ، واصراره على معالجة المواضيع المعاصرة بصورة كاملة وبطريقته الخاصة اثر تأثيرا عميقا على معاصريه الشبان • ان لورنس بتجرده التام من عنان الشكل ليس فقط اثر على المجربين من الادباء لعام ١٩٢٠ لكنه حرر جيلا من الروائيين • ان واقعية لورنس كانت ، في الحق بعيدة عن النمط الحزين الذي كان يمارسه (موم) Maugham الشاب أو (آرثر موريسن Arthur Morrison أو (آرنولد بينت) Arnold Bennett لانها كانت واقعية شاعر • لكننا نعجب اذ نجد ان أكثر النقاد دقة والروائي القدير (فورد مادوكس فورد) Ford Madox Ford يرى ان

(الخاطيء) Trespasser مثيرة جنسيا • وقد لا تكون هذه القصة قصة جيدة لكن كلمة (الجنس) لا تنطبق عليها •

ومع ان الانطباع الذي اعطاه لورنس ككاتب كان عظيما فان الانطباع الذي تركه لورنس (الرجل) قد فاق ذلك • ان اولئك الذين كانوا يعرفونه لا يزالون يكتبون عنه حتى هذا اليوم ، كما ان الكتب التي تناولته لا تحصى • ان هذا ، لحد ما ، تبرره حقيقة كون لورنس كاتب سير لا ينكر ، وكونه امرءا لا يتردد في ان يقحم صورة متميزة ، دونما محاباة ، لاصدقائه في رواياته ، الى درجة انها كان يهدد أحيانا بالفضيحة • بيد ان أهم شيء هو **ان لورنس الرجل جزء لا يتجزأ من لورنس الكاتب** • فلا يستطيع أحد ان يقول عنه انه من الصعب ان يتصور لورنس يكتب هكذا أو هكذا كتابا • بل انه غدا يشبه الشخصية المحببة لديه شخصية (النبي الفنان ذي اللحية) •

ولد لورنس عام ١٨٨٧ في ايست ود ، نوتنكهام شاير Estwood, Nottinghamshire وكان في ايست ود منجم فحم جديد في حالة توسع آنذاك • وفي كل عام كانت مئات من الافدنة من ريفها الجميل يمتد اليها الدمار على شكل أكواخ رثة وأكوام للمعادن يتعالى منها الدخان • ان المقارنة بين جمال الطبيعة وبين ما تكون عليه حالتها عندما يجهز عليها (التصنيع) تكاد تطارد كتاباته • وكان والده عامل منجم بمقدوره ان يقرأ لكنه لا يكاد يعرف الكتابة • كان مجدا ، شريبا في نفس الوقت وعلى جانب من المرح ، بيد ان امه كانت أحسن حالا من ابيه • فقد كانت معلمة ، تقول الشعر ، وكانت بالتدريج تبتعد عن زوجها أكثر فأكثر • اما جدها فكان عاملا في صناعة اشرطة الاحذية (القياطين) Lace Industry في نوتنكهام وكان موسيقارا وكاتب تراتيل ، كما ان بعضا مما ألف لا يزال يرتل في الكنائس • وكحفيده العظيم ، فقد كان رشيقا وضعيف البنية علما بانه عاش حتى بلغ الرابعة والثمانين • وكان لورنس الذي عمد باسم (دافيد هربرت) والذي كان عموما يسمى (برتي) Bertie في البيت ، الابن الرابع • كان على الدوام ضعيفا نوعا ما • وبعد موت أخ أكبر له ، كانت أمه قد بنت عليه آمالا كبارا ، أصبح لورنس عزيزها وموئل ثقتها ومصدر رغبتها في التقدم والتحسن Letterment • لقد كان لورنس ، طوال حياته ، تدفعه رغبة ليست غير طبيعية (لتحسين) نفسه ليلج طبقة جديدة مبتعدا بها عن صفوف الطبقة العاملة التي نشأ بين احضانها • كان من رواد العلى يغذ السير ، موليا ظهره لوضاعة نشأته ، نحو حياة أكثر حرية واسمى شأنا وعذا ، وايم الحق ، ما توصل اليه •

اما امه فلم تكن تطابق في معتقداتها معتقدات طبقتها وعصرها • فقد كانت تصر في اعتقادها على ان هناك طريقا ضيقة واحدة (للخلاص) وان

مجرد زنة بسيطة فان النار هي المأوى . ومع ان آراء لورنس كانت أوسع من هذه ، بيد انها كانت ترتكز في أساسها على ذلك التركيب ذاته . لقد انتمى لورنس الى كلية نوتنكهام وقد كان اطلاعه خلال حياته كلها واسعا . فأنت تجد في كتاباته ملامح لمختلف الكتاب : (لمدام بلافا تسكى) Madame Blavatsky ، ل (كيردجيف) Gurdjieff ل (سير جيمس فريزر) Sir James Frazer ، للروائيين الروس Russian Novelists بيد ان اصراره على انه وحده كان يمتلك الحقيقة عن الكون يدل على شعوره بانه رجل مغموط . وانه لمن المؤكد ان المدرسة والثقافة الجامعية قد منحتا معاصريه من الكتاب معرفة أوسع وثقة أعظم مما كان لورنس ، غير انه كان للورنس معرفة طبيعية ، تلك التي لا يمكن تعلمها في الجامعة ، لكنها قد تكون في حوزة ما يدعى « بالانسان الشعبي » Aman of the people

بيد أن تبصره الحاد والعميق بالكائنات البشرية ، واحساسه بتعاسة الرجل المتمدن الذي مات فيه كل الايمان وانعطافه الحار نحو الطبيعة تعد بحق « زهرة عبقريته » ولم يضف تجواله في ايطاليا وسيسلي وسيلان واستراليا وامريكا الجنوبية سوى اللون الى لوحته . وكان أحيانا يشكو وضاعة نشأته ومن حين لآخر كان يهاجم انكلترا بسلسلة من التعميمات ، فقد كان كالفتاة الضائعة (انفينا) Alvina يرى موطنه ك « تابوت رمادي طويل يغرق ببطء .. » غير انه كان يعرف ان تجواله ان هو الا شكل من اشكال الهروب من نفسه والمشاكل الكبيرة التي كانت تجابهه

وفي عام ١٩٢٢ اجمل لورنس آراءه في رسالة خاصة ، غير انه عاد فغير فكرته مرة أخرى لان شخصيته ونظرته الى الحياة الواقعية كانت أشبه ما تكون بالارجوحة كما هي الحال في رواياته . **لقد كان لورنس خليطا غريبا من العذوبة والمرارة** . كتب احدهم في التايمس يقول « ان لورنس هو أحب شخص تعرفت عليه في حياتي .. » .

وكتبت الآنسة ربيكا ويست (Miss Rebecca West) عن الالم الخارق والشعور بالخسارة الشخصية اللذين سببهما موته لكثيرين ممن كانوا مجرد معارفه . ونحن نعرف كثيرا عن جاذبيته الشخصية الكبيرة ، عن مرحه وسروره في التفاصيل الدقيقة للحياة وطيبة قلبه . الا ان آخرين قد اغاظهم منه محاولاته لتغيير حياتهم بفرض مبادئه ومن ثم تحديهم دونما هوادة ان هم اظهروا علامة على المقاومة . وهو لو وجد الراحة في الخضوع العذب للطبيعة وذلك التبرم بالانسان لكان عظيما . لكن ما يعرفه في التاريخ (بقرن الدعاية) قد بدت بشائره يومذاك . (فبرناردشو) و (ويلز) كانا قد شمرا عن ساعديهما في الوعظ والارشاد . وكان لورنس سباقا الى ذلك . وان المرء ليعتقد بان شعور لورنس بانه ولد (ليصحح الزمن) لا يعدو ان يكون مأساة بحد ذاته .

جوانب انسانية في شعر المهجر الجنوبي

عزيزه مريدن

ليس من السهل التوصل أو الركون الى تعريف واحد للانسانية ، أو مفهوم دقيق ثابت يجمع صفاتها كلها ، ويحيط بمضمونها الواسع ، وجوانبها المتعددة . والبحث في الانسانية شائك محفوف بالصعوبات بقدر ما هو شيق وطريف ، لان هذه الكلمة مشتقة في الاصل من الانسان ، ومفهوم ذلك المجهول - كما يقول اليكسي كاريل - واسع شامل يصعب تحديده . فحين نتكلم على الانسانية ، فانما نتكلم على كل ما يمت بصلة الى الانسان . هذا ما يبدو للباحث من النظرة الاولى حسب المفهوم العام لهذه اللفظة ، ولكن المدقق فيها يدرك أنها مصدر صناعي اصطلح عليـــه حديثا للدلالة على ما يقابله عند الغربيين من لفظة Humanite ، وتجــدر الاشارة بنا هنا الى ان معاجمنا القديمة من الصحاح الى لسان العـــرب وأساس البلاغة ، والقاموس المحيط ، وغيرها لم تذكر في موادها التـي تقرب من الثمانين الفا لفظ الانسانية واكثر من هذا فقد اختلف اصحابها في شرح كلمة الانسان وأصل اشتقاقها ، ويخيل الينا أن المعجم الاول الذي ادخل هذه اللفظة في لغتنا ، وفسرها هو (محيط المحيط) للمعلم بطرس البستاني ، وهذا يعني أن عمر اللفظة في لغتنا لا يزيد على مئة وخمسين سنة . وتلته بعض القواميس الاخرى التي لم تزد على ما قاله البستاني في تفسير هذه الكلمة ، فهي تدل على (ما اختص به الانسان ، واكثــر استعمالها لمحامد الاخلاق ومحاسن النفس من نحو الجود وكرم الاخلاق) .

اما كتب الادب العربي القديمة ، فلا نظن انها عرضت لهذه الكلمة ، لكن (أبا حيان التوحيدي) أتى على ذكرها في احدى مقابساته ، كما أن شغله ببعض الامور الفكرية والفلسفية جعله يوجه (لابي علي مسكويه) سؤالا يستفهم فيه عن حقيقة النفس والانسان وعلاقتهما ببعضهما فيقول « ما ملتمس النفس في هذا العالم ؟ ما نسبتها الى الانسان ؟ وهل لهابه

قوام ؟ أو له بها قوام ؟ وان كان هذا فعلى أى وجه هو ؟ وأوسع من هذا الفضاء حديث الانسان ، فان الانسان قد أشكل عليه الانسان » •

وقد جاء في رد (مسكويه) قوله : « فاما حديث الانسان الذي شكوت طوله ، وحكيت من الكلام المتردد الذي لم يفدك طائلا ، فالذي ينبغي أن تعتمد عليه هو أن هذه اللفظة موضوعة على الشيء المركب من نفس ناطقه وجسم طبيعي » ويستطرد مسكويه بعد ذلك ليضرب أمثلة حية ، مقربا بها معنى الشيء المركب ، ولكنه يعود الى تعريف صفات الانسان في موضع آخر فيقول « ان الانسان من حيث هو حيوان ، قد شارك البهائم في غرض الحيوانية وكمالها •• الا ان الحيوانية لما لم تكن صورته الخاصة به ، المميزة له عن غيره ، لم تصدر هذه الاشياء منه على أتم أحوالها » •

وندرك من عبارة مسكويه هذه أنه يجعل الانسان يشارك الحيوان في صفات الحيوانية ، ولكن له صفات خاصة به تميزه عن الحيوان ، يكون جديرا معها بصفة الانسانية ، اذ يقول بعد قليل : « ••• ولما كانت صورته الخاصة به التي ميزته عن غيره هو العقل وخصائصه من التمييز والروية ، وجب أن تكون انسانيته في هذه الاشياء ، فكل من كان حظه في هذه الخصائص اكثر ، كان اكثر انسانية ، كما ان الاشياء التي عددناها كلما كان منها حظه من صورته الخاصة به اكثر ، كان فضله في أشكاله اظهر » •

نفهم من هذا ان الصفات المميزة للانسانية والتي يستحق معها أن ينعت بلفظة الانسانية تتلخص في العقل وخصائصه من الروية والتمييز ، وان انسانية الانسان تتحقق به وبخصائصه ، ويتبع ذلك تزويد العقل بخصائص العلوم والمعارف ، واحالة الروية ، واعمال الفكرة فيها ، واختيار الافضل والامثل ، حتى يصل الانسان الى أعلى مرتبة في سلم الانسانية •

ولابد للانسان كذلك من صفات نفسية أخرى تتبع هذه وتكملها ، وقد جاء في دائرة معارف القرن العشرين ان لفظ الانسان « يطلق على معنيين : عام وخاص ، والاول منهما يقال لمن عرف الحق فاعتقده ، والخير فعمله بحسب وسعه ، وهذا معنى يتفاضل فيه الناس ويتفاوتون فيه تفاوتا بعيدا ، وبحسب تحصيله يستحق الانسانية ، وهي تعاطي الفعل المختص بالانسان فيقال : فلان أكثر انسانية •• » •

بهذين المعنيين العقلي والنفسي اللذين يكمل أحدهما الاخر ، نكون قد وضعنا يدنا على الاسس العامة التي جعلها بعض كتابنا ومفكرينا قديما وحديثا قواما للانسانية ، أو هي قوام الانسان الكامل السامي •

ومما لا ريب فيه ان كلمة الانسانية لم تنتشر الا في عصرنا الحديث حين بدأ اتصالنا بالغرب ، فاقتبسنا منه ، وترجمنا علومه وفنونه ، فكان أن وقعنا في اللغة الفرنسية على لفظتين تمتان الى الانسانية بصلة وثيقة هما Humanisme, Humanité ، وكان اللاتينيون أول من استعمل

هذه الكلمة للدلالة على الدراسات التي تدور حول الانسان ، وكانت كلمة الانسانيين تعني في القرن السادس عشر : الادباء الذين يقفون أنفسهم على دراسة حضارة العصور القديمة ، والعناية بالثقافة والمؤلفات اليونانية اللاتينية وكانوا مولعين باللغة الجميلة ، والتأنق في الصياغة والتعبير .

ومن بين المعاني الكثيرة التي أشار اليها (لالاند) في معجمه ، حول كلمة الانسانية ، أنها (الشفقة ، أو احساس الانسان العفوي تجـــاه الاخرين المشابهين له) . فهل هذه المعاني التي عرضنا لها كانت مدار الشعر الانساني ، أم ان الى جانبها معاني انسانية أخرى ؟

لو تطلعنا بابصارنا الى ما وراء البحار ، لرأينا أوتارا انسانية في المهجر الشمالي ، تنبعث منها الحان تعزف لنا موسيقى المحبة والحنان ، والرحمة والسلام ، واذا بتعاليم الانجيل تسري في ثناياها متأثرة بالسيد المسيح الذي يقول في بعض نصائحه : (أحبوا ، ارحموا ، من يحب بعطف ويرحم من أعماق قلبه ، ويندفع ليضمد جراح الانسانية الدامية . من يحب يبذل بسخاء ، ولو كان انبذل من ذات روحه ، من يحب يصبح أكثر من انسان ، يصبح ملك الرحمة ...) ، لقد سمعنا هذه التعاليـم وغيرها تتردد على اقلام (جبران ونعيمة وأبي ماضي وعريضه وغيرهم) ، ولعل للمحيط المادي الآلي الصاخب الذي عاشوا فيه شأنا كثـيرا في اتجاههم الانساني هذا وبما حملوه من مآثر روحية معنوية . وخير ما يمثل لنـــا انسانية المهجريين الشماليين مناجاة (ايليا ابي ماضي) لرفيقه الانسان بقوله :

يا رفيقي أنا لولا أنت ما وقعت لحنـــا
كنت في ســري لما كنت وحدي اتغنى ..

وحتى في القفر حين هام على وجهه تخلصا من أوزار الناس ، وتوقا الى حياة الغاب الحرة النائية ، كان يحس بوجود البشر جميعهم معــه يعايشونه ويسايرونه :

خلت أني في القفر أصبحت وحدي   فاذا الناس كلهم في ثيابـــي

أما شعراء المهجر الجنوبي فلقد عبروا عن نزعتهم الانسانية ، حينما استولى على نفوسهم الشعور بالسأم القاتل ، والقنوط المحطم ، وأخنت على نفوسهم منه أزمة روحية ما لبثت ان امتلأت بالحقد والثورة على القـــوة المادية التي تهدد بالحرب ، وتلوح بها كلما هددت مصـــالح أصحابها في البلاد الأخرى . ووجد هؤلاء الشعراء – بما انطوت عليه تقاليدهم الشرقية ، وتراثهم العربي من مبادىء روحية سامية ، أن بوسعهم حل مغاليق هـــذه الازمة ، فراحوا يبشرون بالسعادة في العالم المادي ، ويعملون على اشاعة المحبة في النفوس ، ويبذرون فيها المثل الانسانية الداعية الى العدل والحق والخير والسلام

ولقد قام بين من كتبوا عن ادب المهجر شبه اجماع على ان الشاعر (شفيق معلوف) من أبرز الشعراء في المهجر الجنوبي ، فلابد اذن من أن نبدأ بتحديد مفهوم الانسانية عنده • ولقد ذكر في احدى رسائله أن مفهومه لها يتلخص في « شعور الانسان مع الانسان ، بكل ما في هذا التعبير من شمول » ويذهب الى أبعد من ذلك فيقول : (هو أيضا شعور الانسان مع الحيوان والنبات ، واحيانا شعوره بدافع الالفة مع الجماد ، فهذا العطف الذي يدفع الجنس الى الحدب على جنسه ، يتعذر خلقه غالبا الا فى الانسان) •

وشبيه بهذا المعنى ما ذكره الشاعر (جورج صيدح) عن الانسانية فقال : « لقد عرفتها عن طريق ضميري ووجداني ، واكتفيت بذلك ، انها في البدء شعور غريزي بقرابة تربطني ببني الانسان ، وبتضامن مع جميع خلق الله •• وهي بعد ذلك عمل ايجابي ، وسعي صادق لخدمة البشرية في حدود مواهبي وامكانياتي » •

وهو اذن يضيف الى الشعور بالتعاطف العفوي بين ابناء البشرية عملا اراديا ايجابيا يسهم فيه كل امرىء بخدمة الآخرين قدر استطاعته •

وثمة مفهوم آخر للانسانية ينبثق عند الشاعر (نعمة قازان) من مفهومه للادب عامة فهو يرى ان الادب (رسالة قبل كل شيء تطهر النفوس من أوضارها ، وتوجهها نحو انسانية مثلى ، لتصل الى غايتها من الكمال حين تتصل بمصدرها الاعظم (الله) ، وعلى هذا فالادب هو كل ما يخفف من لوعة ويجفف من دمعة ويشدد من همة ، ويولد من بهجة ، وكل ما عداه ليس أدبا ولا قيمة له •

هو في النفس أن تضحى كثيرا وكثيرا حتى تصير الها
كاملا في محبة الابعدينا

واخيرا فان للاستاذ (نظير زيتون) مفهوما جامعا لكل عناصر الانسانية اذ يقول : « فالانسانية عندي هي الشعور الكلي العميق المطلق بأن الانسان واحد على اختلاف الالوان والسلالات والاوطان ، وبانه أكرم المخلوقات وأشرفها وأعظمها وأسماها ، وبأن أعماله واقواله واهدافه ، يجب أن تنبع من كرامته وشرفه وعظمته وسموه ، وهي الصفات التي تتمثل في العطاء يدا وقلبا وفكرا ، والاصلاح بناء وتنويرا وتحريرا ، والابداع روحا وخلقا وعملا ، والبطولة مروءة واحسانا وتساميا ، الى جانب الحب المطلق مطلبا ومذهبا ومأربا ، والجمال نفسا وموردا ومنهجا ، ونشدان الكمال والاعتصام بالحق الذي هو قبس من نور الله ، وهذا يعني ان الانسانية بجوهرها وهدفها هي اسعاد ذاتية النفس ، وتلبية ندائها باسعاد (الاخرين) •

ولا ريب في ان هذا التعريف الجامع المانع لمفهوم الانسانية يجب ما قبله من المفاهيم اذ يشملها كلها ، ويفضلها شرحا وتفصيلا •

ولو القينا بسمعنا قليلا الى ما يدور في لهجتنا العامية من الفاظ تدل على معنى الانسانية لاسترعى انتباهنا ان العامة استعملوا لفظة (الآدمية) فقالوا : فلان آدمي . وجمعوها على أوادم ، للدلالة على محامد الاخلاق ، ومحاسن النفس ، وآدم يمثل الانسان الاول الذى سجد له الملائكة بأمر ربهم ، وهذا يعني ان العامة استدركوا ما فات لغويينا القدامى فأصابوا .

ونحب أن نضيف هنا أن نظرة حانية على حيوان أعجم يعتدى عليه ، أو طائر يسقط برصاص صياد ، أو وردة ذابلة ألقي بها على قارعة الطريق ، أو على حشرة محتقرة ، كنظرة (ابي ماضي) الى (الفراشة المحتضرة) ، ان نظرة كهذه هي انسانية ، وانسانية عميقة ، والذى يعمق معناهـــا ــ بالطبع ــ انما هو قلم الفنان الاصيل الذى يستطيع أن يسبغ عليهــا الحياة والجمال ، فيوحي الينا بمعانيها الانسانية النبيلة .

على ضوء هذه المفاهيم الانسانية المختلفة نقلب دواوين شعراء المهجر الجنوبي ، فتطالعنا من ثناياها أبيات متفرقات ، ان لم تحو تعريفا جامعا للانسانية ، فان كلا منها يلقي الينا بشعاع من طيفها ، فمن قلب الشاعر (القروي) المحب للعالم كله ، كما هو محب لوطنه وأمته ، ينبعث الينــا هذا الشعاع عن المحبة اذ يقول :

لي قلب يســـع الكون فلا تسألوني ما الذي تهـوى ومن
كـل شيء فيه شيء حســن وانا أهوى من الشيء الحســن

ومن وجدان الشاعر (شفيق معلوف) ينساب الينا شعاع آخر هو شعاع الاخوة والحنان والتعاطف مع جميع افراد البشرية اذ يقول :

كن بسمة بفم الضعيف ولا تـزد تالله اتراحا على اتراحـــــه
ما ضر أن يحظى أخوك بحقه فترى فلاحك ناجزا بفلاحـــه
الحق بطلان الوجـود ولا ترى أشباهه تحنو على اشباهـــه
ضرب الشعوب قويها بضعيفهـــا كالطير تذبحه بريش جناحـــه

ولون آخر يشرق علينا من قول الشاعر (نصر سمعان) فيضيء لنا الطريق الى البذل ، والاحسان :

لما رأيت يد الاحسان تمسحها أيقنت اني رأيت الله انســـانا

ويضيء في طيف الانسانية شعاع جديد حينما يعلو صوت الشـاعر (جورج صوايا) صارخا بالناس ، منبها للعدل والحق والعلم قائلا :

حققوا العدل أيها الناس في الناس وبثوا العفاف في كل لب
علموا الحق انشروه رفيعـــا للسبيل السوي يهدى الجموعا
عمموا العلم واركبوه جناح الصدق يجتث من الانام الرذيلة

وهكذا كما تجتمع ألوان الطيف وتتحد ، فتكون قبسا واحدا من النور ، كذلك فان الالوان المتعددة ، والاشعة المختلفة قد ضمت الى بعضها ، فكونت لنا طيفا انسانيا واحدا ، فما هي اذن موضوعات هذه النزعـــة

الانسانية ؟ وهل كان لها من التعدد والتنوع ما يجعلها جديرة بأن تضم الى بعضها فتؤلف اتجاها واضحا ؟

مما لا ريب فيه أن هناك قيما انسانية مشتركة ، وفضائل عامة ، يؤمن بها البشر على اختلاف الوانهم ومذاهبهم وأجناسهم ، تشيع في نفوسهم شعورا بالتوافق والتعاطف بين افراد العالم كله ، كالمحبة والاخاء ، والخير ، والبذل ، والوفاء ، وعواطف الامومة والابوة ، والثورة على التكبر والظلم ، والمطالبة بالحق والعدل وما الى ذلك من فضائل نفسية واجتماعية • ونحن على شبه اليقين انه ما من شاعر من شعراء المهجر الجنوبي لم تدفعه ربة شعره الى التغني ببعض هذه القيم الانسانية أو بمعظمها هذا بالاضافة الى ان بعضهم صور أصحاب المهن الصغيرة التي تبدو محتقرة لدى بعض الناس ، ولكنها تعتبر في نظرهم هم مهنا انسانية نافعة ، لا تقل قيمة عن المهن الكبيرة ، وعرض بعضهم آراءه في فلسفة الحياة ، وأطلق لتأملاته العنان ، فيها ، فرأى ان الحياة مملوءة بالشرور والآثام ، وان الانسان فيها شرير بطبعه ، ودعا آخرون الى الاقبال على الحياة والاستمتاع بها • والمدقق في هذه الموضوعات كلها يستطيع أن يردها الى اتجاهين اثنين :

اولاهما : تصوير الفضائل الانسانية ، والتغني بها تغنيا يصح أن نسميه رومانسيا لانهم لم يتحدثوا عنها على انها مذهب من المذاهب الممكنة ، أو عقيدة من العقائد المتبلورة ، وانما صوروها تصويرا عاطفيا مؤثرا ، وحببوا الناس بها لانها غاية انسانية ، ومطلب عام ، ولانها في ذاتها تمثل قيمة جمالية يسعد بها البشر جميعا

وثانيهما : دعوة شبه عقائدية ، مبنية على أسس انسانية ، وحقوق بشرية عامة لابد للناس كلهم من التمتع بها على اختلاف أوطانهم ، ومذاهبهم : كالحق والحرية والعدالة والمساواة والسلام • ويضاف الى هذه الدعوة تمجيد القيمة الانسانية ، وتقويم الانسان على قدر ما تتمثل فيه هذه الفضائل بصرف النظر عن وضعه الاجتماعي •

وأقتصر هنا على التنويه بالاتجاه الاول فقط •

* * *

كانت المحبة في الاتجاه الاول الرومانسي ، أولى الفضائل الانسانية التي نادى بها شعراء المهجر الجنوبي ، المحبة بمعناها الواسع الشامل ، المحبة للناس اجمعين ، فيها وحدها سيقضي على الجريمة في الارض ، وسينقلب الشقاء سعادة ، ويعم الخير والفضيلة العالم بأسره • يقول الشاعر القروي :

هو الحب حتى ليس في الارض مجرم ... ولا مدمع يجري عليها ولا دم
وحتى كأن القلب في خفقانــــه ... يود به نطقا كما نطق الفم
فقل للذي لم يعرف الحب قلبــه ... ولم يلف الا شاكيا يتـــألم
أيا صاحبي ان العـلاء جهنـــم ... وما فيه من عز لتحلو جهنم
ويا صاحبي ان التجهم يقتضـــي ... من الجهد ما لا يقتضيه التبسم

وهذا هو الشاعر (نعمة قازان) الذي وقف معظم شعره على النزعة الانسانية : وعلى الدعوة الى المحبة ، خاصة ، اذ لا يؤمن الا بالحب دينـــا يقـــول :

الا كل دين ما خلا الحب بدعـــة … وكل اجتهاد ما عداه ظنـــون

وأكثر من هذا انه يدعو الى دين الحب الذي يبارك اللاعنين المبغضين ، ويتسع للاعداء والمسيئين ـ كما جاء في الانجيل ـ الحب الذي هو خبـز الانسان وخمره :

على رسلكم يا قوم ما أنا مؤمن … بغير انفجار الحب بين الجوانب
فلو لم تقم فينا المحبـــة لم نمت … وهيهات أن نحيا بغير التحابب
لقد قام بالحب المسيح من الـردى … ومتم على دين المسيح العجائبي
هو الخبز لا يحيا به غير آكـــل … هو الخمر لم يسكر بها غير شارب

ويتلفت الشاعر (القروي) حوله ، فلا يرى في الناس الا وجوهـــا كالحة عابسة دأبها الظلم ، فيخاطب أصحابها ويدعوهم الى الحب قائلا :

يا كل من فوق سطح الارض قاطبة … لولاكم لم يكن في ارضكـــم باس
لا تظلموا تسعدوا فالظلم تجربــة … يدعو اليها عدو النـــاس خنـاس
ان السعادة لو سويتها بشـــرا … فالحب والعدل منها القلب والرأس
شريعة الحب في الدنيا توحدكـــم … مهما تعدد أديـــان وأجنـــاس

وتقتضي هذه الشريعة اسعاد الآخرين ، وتضميد جراح البائسين ، والاخذ بيد الضعفاء ، والاحسان للمعوزين ، والبعد عن الشرور ، واشاعة التفاؤل والرضا في نفوس المحزونين والمتشائمين ، وهذا كله لا ينبع الا من صدر حنون أشرب معنى العاطفة والرحمة ومن قلب عطوف كبير ، لذلك يقول الشاعر القروي :

اجعل الارض حيث كنت جنـــانا … ان تكن قد هجرت منهـــا جنـانا
صغرت نفس حاصـــر النفـــس في … أشبار ارض يعـــدها اوطـــانا
بسمة تظهر الفقير غنيـــــا … دمعة تمســـخ الشجاع جبانا
فتلـــق الحياة بالبشـــر فالعيش … نعيم ان لم تكـــن شيطانا

ويلخص لنا قيمة الانسان التي تتجلى في انسانيته حين يقول :

كن اله النضار انك عنـدي … لست شيئا ما لم تكن انسانا
اشبع العقل حكمة واختبـارا … واملأ القلب رحمة وحنـــانا
ولك الارض والسماء وهل يدعى … فقيرا من يملك الاكـوانا ؟

وليس يخاف ما في هذه القصيدة من دعوة الى بث التفاؤل في النفوس تشبه الى حد كبير ما بثه (ايليا ابو ماضي) في قصائده العديدة ، مثـــل (ابتسم ، وكم تشتكي ، كن بلسما ، عش للجمال ، المساء) وغيرها .

واجمل دعوة للبذل والجود والسخاء صاغ كلماتها كذلك الشـــاعر (القروي) متخذا من حبة القمح الصغيرة مثلا رائعا يقتدي به الانسان ، فأبدع معنى قلما يخطر على بال :

من حبة القمح اتخذ مثل الندى   يا من قبضت عن الندى يمناكا
هي حبة أعطتك عشر سنابل   لتجود أنت بحبة لسواكا
حلمت بأن ستعيش في خبز القرى   فتراقصت للموت نحو رحاكا
وكانما الشق الذي في وسطها   لك قائل : نصفي يخص أخاكا

ولقد ذاق معظم شعراء المهجر مرارة الفقر والحرمان ، وعانوا من ألوان المشقة والجوع ما عانوا ، فجعلهم هذا يدعون الى البذل ، حتى اصبح مادة غزيرة في شعرهم الانساني ، تنوعت أساليب الدعوة اليه ، واختلفت طرائق التعبير عنه ، فهذا الشاعر (نصر سمعان) يصور شعوره في قصيدة ألقاها في اليوبيل الفضي (لليتيم السوري) :

قل للمدل بجاه لا تزخرفه   الا الاباطيل اشكالا والوانا
الفقر في أن تراك العين مرتديا   ثوب الغنى ويراك القلب عريانا
ان الفضيلة لا غاضت مناهلها   تفيض بالحب انهارا وغدرانا
في وسع كل امرىء ارواء غلته   منها فكيف تعيش العمر ظمآنا

ومن القصائد التي تستحق منا وقفة متانية في هذا الباب ، قصيدة شاعر العاصي (ميشيل مغربي) التي يخاطب فيها الانسان المتباهي بجوده، المزدهي بكرمه ، مقارنا احسانه هذا باحسان الطبيعة الخيرة فيقول :

ان رأيت الشمس قد ألقت على الارض شعاعا
تبعث الدفء فتحييها بقاعا فبقاعا
وتبث النور في الكون فتجلوه شعاعا
ان رأيت الشمس لا تفخر بما أنت تجود
ان احسانك لا يبلغ احسان الوجود

وهاك مثلا آخر ، الغيث ، انه يروي الزرع والضرع ، فيمنح الخيرات ، وينشر الخصب فيحيي الارض الموات :

ان رأيت الغيث يروى الارض في تهاطله
وحياة الزرع والضرع على أذياله
والربيع الغض والصيف جنى أفضاله
ان رأيت الغيث لا تفخر بما أنت تجود
ان احسانك لا يبلغ احسان الوجود

وأمنا الارض ، انها تبدى لنا في كل حين ألوانا من الجمال ، واى فضل يعدل فضلها حينما تتلقى الجيفة العفنة ، فتردها زهرا وثمرا وانتاجا طيبا :

ان رأيت الارض تبدى من جمال صورا
تاخذ الاقذار والنتن وتعطي الزهرا
وترد الجيفة العمياء حيا مبصرا
ان رأيت الارض لا تفخر بما أنت تجود
ان احسانك قد قارب احسان الوجود

تلك هي بعض الفضائل الرئيسية . والمثل الانسانية التي تغنى بها شعراء المهجر الجنوبي ، ودعوا الى التحلي بها ليسود المجتمع الانساني الخير واليمن والسعادة ، بيد أن الى جانبها فضائل أخرى متفرقة ، لم يكن الحاح الشعراء عليها كالحاحهم على ما سبقها ففي قصيدة (المتكبرون) يرى الشاعر (القروي) أن الناس متساوون في خلقهم لم تكشف لبعضهم حجب الغيب وأسرار الكون دون غيرهم ، وقد تساووا كذلك في الحياة والموت ، وان قيمة الانسان بما يقدمه من نفع لابناء البشرية كلها ، والا فعلام يصعر المتكبرون خدودهم للناس ؟ هل عرفوا حقيقة ما :

وهل كشفوا من الاكوان سرا — وهل عرفوا البداءة والختاما
وهل جبلوا جسومهم بخمر — وهل نحتوا من العاج العظاما
وهل يغذون تحت الارض تبرا — ويمسي غيرهم فيها رغاما
أليس قوامهم ماء وطينا — كما خلق الاله لنا قواما
فان كانوا كغيرهم أناما — علام اذن قد احتقروا الاناما
وان لم ينفعوا الدنيا بشيء — اذن فعلام منتهم علاما ؟

أسئلة تخطر ببال الشاعر ، يهدف من ورائها الى تحطيم كبرياء المتغطرسين ونزع أقنعة المتعالين المتكبرين ، ليضع حدا لانانيتهم وتعاليهم .

* * *

ومن الشعر الانساني العميق الذي يصور جانبا من العواطف الانسانية النبيلة ، ويتغنى بها غناء رومانسيا ، تلك القصائد التي قيلت في (الامهات والابناء) وقديما لم يعرف الادب العربي شعرا في تقدير الامومة الا في القليل النادر ، وان كانت بعض القصائد التي صورت عاطفة الاباء نحو أبنائهم ، أو الابناء نحو أمهاتهم عن طريق الرثاء فحسب .

أما في عصرنا الحاضر ، فقد دخلت أدبنا العربي موضوعات جديدة ، تنبهنا الى قسم كبير منها عن طريق اطلاعنا المباشر على الادب الغربي ، أو التأثر بمن تأثر به ونقل عنه . ولعل منها تلك الموضوعات التي تصور العواطف الانسانية الاجتماعية ، أو التي يصح أن نسميها (العلاقات الانسانية العاطفية) .

وتطالعنا عند شعراء المهجر الجنوبي قصائد كثيرة قيلت في تمجيد (الام) والاشادة بما لها من فضل على أبنائها خاصة ، وعلى الانسانية عامة ، فالام تبذل من عطفها وحنانها لابنائها دون أن تترقب عوضا ، أو تنتظر أجرا ، وهي تشقى لشقائهم وتسعد لسعادتهم ، وتسهر على راحتهم ، فهي ملاك الطهر والرحمة ، ومهما يذل الابناء من أجلها ، فلن يوفوا معشار ما لها في أعناقهم من دين .

ويلاحظ الباحث أن معظم هذه القصائد قيلت في أمهات الشعراء بالذات ولكن بعضهم سمت عاطفته وتجردت ، فاستطاع أن يصور الام ، كل أم

على وجه الارض فيبلغ بذلك مرتبة انسانية رفيعة . ويروقنا هنا أن نعرض الى قصيدة (الشلال) للشاعر (توفيق بربر) التي أهداها الى الام في كل زمان ومكان ، وهي رائعة في معانيها ، وخاصة حينما يقارن بين الشلال المتدفق من أعالي الجبال ، وبين شلال الامومة والمحبة ، والعطف والحنان ، فيقول :

الا أيها الشلال ينصب من علـى — فينساب في عزم الشباب تمهل
فلست على هذى الغزارة كلهـا — وأنت الذى يزجي الجزيل بأجزل
كأم اذا انكبت على نحر طفلهـا — ترويه من ثغر الحنان بسلسل
هنالك شلال من الحب ناطـق — بأروع آيات الوجود واكمل
على وجهها تطفو البشاشة والرضا — كأن الضحى في وجههـا المتهلل

انه تصوير جميل لعاطفة الحنان التي تعمر قلب كل أم ، ولكن الاجمل منه وقوف الشاعر عند صورة أخرى رائعة تمثل الامومة ذاتها ، صورة شدته وسمرته في مكانه ، فراح يرسمها لنا بقلمه الفني ، انها صورة الرضيع يمتص ثدي أمه ، فينهل منه الحنان ، وهي تبتسم له من النشوة والغبطة :

ولله منها وهو يمتص ثديهـا — كما يحتسي العصفور من ماء منهل
تهش له عن غبطة في كيانهـا — تدب دبيب الخمر في كل مفصل
اذا وسدته صدرها يا رؤى اخشعي — وغضي وقارا يا قرائح واخجلي
ويا زهر خري من سمائك واسجدي — وذوبي التياعا يا عواطف واشعلي

الى أن يقول :

الا ان قلب الام ينبـوع رحمـة — يلين له الجلمود والليل ينجلي
وهل غير قلب الام يعطيك شاكرا — ويزجي عطاياه بروح التوسل

ثم يلفت نظر الناس حوله الى واجب الاحتفاء بالام والاشادة بفضلها ومكانتها :

فلو زينوا الجدران طرا برسمها — وأحيوا لها الاعياد في كل محفل
وشادوا لها الانصاب في كل ساحة — وصلوا لها كالله في كل هيكـل
يمينا لما وفي الامومـة حقهـا — عليهم ومن يبذل لها النفس ينجل
فان لها دينا على النـاس كلهـم — وليس الذي يرعى الجميل كمهمـل
فلا حب الا حبهـا فهـو ثابـت — فلم ينحرف يوما ولـم يتحـول

* * *

ونتقل الآن الى لون جديد من العواطف الانسانية ، تلك التي تصور مشاعر الاباء نحو الابناء ، وأية عاطفة أكثر انسانية من عاطفة الابوة ؟ ان الاب ليرى أبناءه زهرة حياته ، وثمرة حبه ، وقرة عينه ونفسه ، اذا مرضوا ود لو يفتدي حياتهم بحياته ، واذا حزنوا حاول بشتى الطرائق أن يبدد

أحزانهم ويدخل السرور على قلوبهم ، واذا حلا النوم في حينه ، فلأبنائه ألذ وأحلى ، وقديما قال الشاعر :

وانما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الارض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عيني عن الغمض

ومن أجمل القصائد التي تصور هذه العاطفة الانسانية تصويرا رومانسيا دقيقا تلك التي نظمها الشاعر (توفيق بربر) في صغيرته (زيزا) وهو اسم تصغير (جيزالا) تلطفا وتحببا ، يقول فيها :

صغيرة بيتي وحبة قلبي وزهرة عيشي وثمرة حبي
وغرة وجهي ، وقرة عيني وخمرة روحي وسكرة لبي
ومعنى وجودي وكنه خلودي وبيت قصيدي وآية ربي

انها أنغام موسيقية حنون تنبعث من قلب مفعم بالعاطفة الابوية الصادقة ، والمحبة العميقة تعبر أدق تعبير عما يكنه هذا الاب العاطفي والشاعر الرومانسي لابنته (زيزا) فيجعل القارىء ينفعل معه ، ويشاركه احساسه • ولم يقف الشاعر عند هذا الحد ، بل راح يصور لنا قسماتها الدقيقة ، وصوتها البلبلي الرنان ، وما يشعر به من سعادة حينما تحوم حولــه :

كأن النسيم الحنون حباها أدق المعاني لتسبي وتصبي
تزقزق حولي فتشرق شمسي ويزهر ثغري وتورق دربي
وتغدو الحياة سلاما وبردا وان الحياة لحرب بحرب

وعند ذاك لا يتمالك هذا الاب العطوف الا ان يعانق ابنته ويضمها الى صدره فيتراءى له أنه يعانق بلاده وشعبه ، ثم تنام في حضنه ، فتهيم به الاحلام في اجواء فواحة بالعطور ، وعوالم زاخرة بالاماني ، فيرى نفسه أميرا يتسنم العرش ، وحوله الجواري رهن اشارته :

أشد عليها لصدري كأني أعانق فيها بلادي وشعبي
تنام بحضني فاحلم أني نشرت لوائي بشرق وغرب
واني أمير وتحتي سرير وحولي اماء تنفذ رغبي
واني استعدت شبابي وأني اجتمعت بشملي وأهلي وصحبي
فيا طيب أنفاس ريحانة ترف بقلبي وعيني وهدبي

وللشاعر (عقل الجر) قصيدة مشابهة لهذه في بعض معانيها ، وفي جوها العاطفي العام يصور فيها عاطفة الام المفتونة بابنها ، المطلة من خلاله على الغد الباسم ، يقول فيها :

أعطيته كالصبح غرته ملكا تقمص صورة الولد
أزهو بطلعته وأحسبه الكون جمع كله بيدي
وأطل منه على غد لمعت آماله في مفرق الأبد

ثم يرسم لنا صورة عفوية ، اذ يطيف الولد بأمه ويشدو حولها تارة ، ويداعبها تارة أخرى منشبا يده في عينها ونحرها ، والام مستسلمة سعيدة ، تقبل ابنها ، وتضمه بحنان الى صدرها حتى لتكاد ترجعه الى كبدها :

تهاجني من فيه زقزقـــة تزري بصوت البلبل الغــرد
ويهف نحـوي منشبا يــده في العين أو في النحر والعضـــد
فأزقـــه قبلي وأرهقـــه وأكاد أرجعه الى كبـــدي

واذا عرفنا ان هذه القصيدة صدرت كلها عن خيال الشاعر اذ لم يجرب الابوة قط فقد عاش عزبا طوال حياته ، أكبرنا فيه دقة التصوير ، وازددنا اعجابا بقدرته على التخيل والتمثيل

وللشاعر (جورج صيدح) عدة قصائد تصور عواطف الابوة الصادقة ، نجدها في قسم خاص من ديوانه ، أطلق عليه اسم (أكبادنا) ليدل بذلك على مشاعره نحو وحيدته وأبنائها · ومنها قصيدة نظمها في عيد ميلاد (جاكلين) التي ولدت في (فنزويلا) من أم فرنسية ، وأب عربي دمشقي ، يقول فيها :

نشأت بين جفـون الياسمين زهرة في الروض تسبي الناظرين
عبقت بأريز في أكمامهـــا ودمشق الشام في العـرق الوثين
فلـذة للشرق والغرب سرت (للفنزويلا) بها الـروح الامين

ثم صور لنا نظرة الاب الراضية التي تأبى الا ان تجعلها ممتازة عن سائر بنات جنسها بالجمال الكامل :

أتراها خيرت في خلقهـــا فاتت كاملـة الحسن المبين
أم براها الله من ذوب السنا وبنات الناس من ماء وطـين
قد عبدت الله في صورتهـــا وارتضيت الكفر كفر المؤمنين

وتشاء الاقدار ان تصاب ابنته في صغرها بمرض تدخـل على أثره المستشفى لتجري لها عملية جراحية ، وعند ذاك يتحطم قلب الوالد هلعا وجزعا ، ويتجلى شعوره الانساني العميق في قصيدة افرغ فيها ذوب عواطفه الابوية وقلقه وحزنه فقال :

رفقا بها يا مبضـع الجـراح شرحت قلب الوالد الملتـــاح
والله لو أطلقت روحي لارتمت تحت النصال تصدها بجراحي
ماذا جنت وهي الفطيمة في الربى حتى تسام خثارة الاقـــداح
بالامس مدت عنقها من وكنهـــا واليوم تشهد مدية الذبـــاح
الياســمين الغض في أكمامـــه غبن النضـارة أخذه بالـراح
أنا لا أخشــه بغير نواظــري وبغير شم عبيره الفـــواح
ما لي أراه على الخوان ممددا وأكاد ألثم أنمـل الجـراح
ويحي دفعت الى المشـارط فلـذة كنت الضنين بها على الارياح

ولا ريب ان الصور الفنية الحية ، هي التي أضفت على القصيدة الرونق والعذوبة وعمقت احساسنا بالنبرة الرومانسية الانسانية ٠

ويمكننا ان نلحق بهذا القسم من العواطف ، الشعور بالتوامق والتعاطف مع بعض أفراد الناس ، شعورا لا يرقى الى دعوة اجتماعية محددة ، ولكنه مجرد شعور عاطفي رومانسي ، فللشاعر (الياس فرحات) قصيدة انسانية فريدة من نوعها ، تقرأها فتحس بالشعور الانساني يملأ أرجاءها ، وتدقق في معانيها ، فيضوع كل معنى فيها بنفحة انسانية ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع ان نضع اصبعنا على بيت معين أو مقطع محدد تركزت فيه هذه العاطفة ٠

وتدور القصيدة حول قصة (الراهبة) احدى الراهبات ، أطلت من الدير في ضحى يوم مشرق ، وقد بدت على وجهها علائم اليأس ، انها فتاة يخلب حسنها الالباب ، وان علا وجهها شحوب ظاهر ، رغم أنها ما تزال في ربيع العمر ٠ ويحاول الشاعر أن ينفذ ببصيرته الى أعماق نفسها ، ويخترق حجب الغيب ليعرف علة وجودها ، في ذلك الدير ، فتراءى له أن وراءها حبيبا قد غدر بها ، فلم تجد دواء لصدمتها العاطفية هذه سوى ان تهب نفسها لربها ٠ وبينما كانت تسير على مهلها لتجمع ضمة من الزهر تهديها للسيد المسيح ٠

رأت زهرة في أعالي الجدار تداعبها نسمات الصبا
فأعجبها شكلها المستطيل ولون كقوس السحاب زها
وقد زاد في حسنها أنها تعز على من يريد الجنى
فحرك منظرها نفسها وقالت بملء حنان لها :
أخية يهنيك هذا السمو وهذا البهاء وهذا الرضا
ولكن أما كان أشهى لديك جوار الازاهر بين الربى
تحوم عليك بنات القفير وتسعى اليك صبايا القرى
وتسمعك الطير انشادها ودنه الحجاز ومنه الصبا
لانت تعيشين في عزلة فلا في السماء ولا في الثرى
لمن خلق الله هذا الجمال ومن يتنشق هذا الشذا ؟

ثم غامت الدنيا في عيني الراهبة ، فقفلت راجعة الى الدير وقد ملأت نفسها الهواجس ، وحرك قلبها لهيب الذكريات ، وكأنها تمثلت في هذه الزهرة النائية السامقة صورة لنفسها ٠٠٠ وأرخى الليل سدوله على هذه الراهبة :

ولما نضت ثوبها لتنام تبين من حسنها ما اختفى
فمدت الى صدرها كفها وقد فتح الورد تحت الندى
وقال لها قائل صامت وكان الذي قيل رجع الصدى

وأنت تعيشـــين في عزلـــة فلا في السماء ولا في الثرى
لمن خلق الله هــذا الجمـــال ومن يتنشق هذا الشـــذا ؟

بهذا التحليل النفسي العميق ، أضفى (الياس فرحات) نفسـية الراهبة على هذه الزهرة التي شابهتها في جمالها ورفعتها وامتناعها على من يريد اقتطافها ، وهذا التحليل الانساني الرفيع زاد القصيدة رونقا وبهاء لما أشاع فيها من أجواء رومانسية عميقة ، وتصوير عاطفي جميل ..

* * *

تلك هي جوانب متفرقة من النزعة الانسانية في شعر المهجر الجنوبي ، تجلت لنا في قصائد متعددة ، زاخرة ببعض العواطف الانسانية السامية يجمع بينها كلها فكرة التعاطف والتوافق مع بني البشرية . ولقد حاول بعض شعراء المهجر الجنوبي أن يعالجوا قضايا الانسان عامة ، فتساءلوا عن كنهـه : من هو ؟ من أين جاء ؟ الى أين سينتهي ؟ ما غايتـه من الـكون ؟ الى غير ذلك من الاسئلة الـكثيرة .

وصفوة القول : لقد تجلت هذه الجوانب الانسانية الرومانسية في الدعوة الى المحبة الخالصة لـكل الناس ، ولـكل ما في الوجود ، دعوة عميقة اتخذت غاية لذاتها وهدفا ، وكذلك كانت الدعوة الى الوجود والبذل والاحسان ، لانها فضيلة من الفضائل النفسية الانسانية ، وقد اصطنعوا لهذه الدعوة أساليب متعددة ـ كما رأينا ـ منها التقريري المباشر ، ومنها القصصي ومنهـا التصويري . ولجأ بعضهم الى المقارنة بين الطبيعـة والانسان والجدير بالذكر أنهم في معظم قصائدهم هذه بدا تأثرهم واضحا بتعاليم الانجيل ، وبروح العقيدة المسيحية . أما تصوير المشاعر والعواطف نحو الامهات والابناء أو ما سميناه (العلاقات الانسانية العاطفية) فقد سلـكوا في التعبير عنها كذلك مسالك متعددة ، ولـكنهم جميعا استطاعوا برهافة مشاعرهم ، وبأسلوبهم الفني الرفيع أن يصوروا هـذه العواطف المقدسة تصويرا جميلا مؤثرا ، وظلوا يعبرون بطريقة عاطفية ، ويدورون في فلك الرومانسية الغالبـة التي كانت نواة صالحة لـكل ما زرعوه في الحقل الانساني الخصيب .

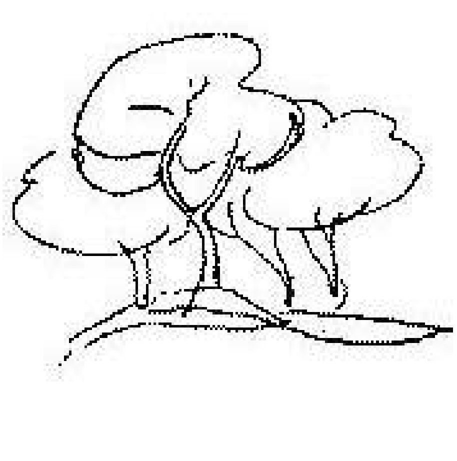


ضباب

صالح الظالمي

خطرت امس ليلتي وتوارت ... وعلى كفها عصارة عمري
غشتها للظلام يمضغ عيني ... وللنجم يستحم بفكري
انثوى على الهجير وقد شد ... فؤادي بأضلع من جمر
واحس الدماء بين عروقي ... كشواظ اللهيب أيان تجري
وانفعالا مفاجئا بين عيني ... على اثره ابتسامة ثغر
ثم اعدو على رفيف من الضوء ... جناحاي من نفور وذعر
وانا ذاهل ... اتمتم .. اهتاج .. أغني .. نشوان من غير خمر
قد نسيت الاشواق والامل الحلو ودمع الاسى وقسوة فقري
وخفوق الهوى بجنبي ... واسرارا ثقالا يضيق فيهن صدري
وابتسامات طفلتي من حوالي ... جمال الربيع دفقة سحر
كل شيء امام عيني تلاشى ... وتلاشى حتى انطلاقي وأسري
هكذا كنت في دروب ضباب ... غاص في عمقه فؤادي وفكري
ثم خب الضباب وانطلق الصحو أمامي وفي يدي بيت شعر

(النجف)



لقاء مع الفنان



محمد الحسني

كان لقاء هذا الجزء من الاقلام مع النحات المعروف الاستاذ محمد الحسني وقد ناقشت الاقلام مع الفنان تطور حركة النحت العراقي ومكانته عربيا وعالميا والوسائل الكفيلة بتحقيق مستواه الافضل ورأيه في نتاج النحاتين الشباب .

ـــ قلنا للفنان :

هل لكم ان تستعرضوا لقراء الاقلام حركة فن النحت في العـراق حتى الفترة المعاصرة ؟

فأجاب يقـــول :

العراق مهد الحضارات ، بابل ، آشور ، سومر وغيرها من الحضارات التي اندثرت ولم يبق منها سوى آثارها من تماثيل خالدة الى الابد · اندثرت هذه الحضارات وخيم على أهل الرافدين سكون مظلم رهيب حتى جاء الاسلام دين التوحيد فلا غرابة ان يحرم الاسلام التماثيل ورسوم الاشـــخاص خوفا من رجـوع اهل الجاهليـة الى الردة وعباد الاصنـام · وحينمـا نضجت عقلية المسلم وتفتحت عيناه الى النور وعرف جوهر الديـن وادرك انه لا خوف عليه من الرجوع الى عبادة الاوثان اذا مارس النحت ورسم الاشخاص أيقن حينذاك بان الفن ليس لهوا ولا شركا بالله بل انه خدمـة ورسالة لها مسؤولية كبرى تجاه المجتمع ·

وعراقنا اليوم يمر بهذه التجربة الجديدة بعد نوم عميق دام آلاف السنين · وبعد قيام الحكم الوطني في العراق والضرورة ماسة لتأسيس



الينبوع ـ خشب ١٩٦٢

معهد للفنون الجميلة · وقد تأسس هذا المعهد بعد الحرب العالمية الثانية حينما رجع بعض الاساتذة أو الطلاب الذين لم يكملوا دراساتهم الفنية بسبب اندلاع الحرب آنذاك · لقد تأسس فرع الرسم برئاسة الاستاذ فائق حسن وفرع النحت برئاسة جواد سليم وفرع التمثيل برئاسة الاستاذ حقي الشبلي وفرع الموسيقى وهو أول فرع تأسس في المعهد برئاسة حنا بطرس ·

ولو استعرضنا هذه الفترة القصيرة من تاريخ العراق الفني لوجدنا ان فن النحت خطا خطوات بعيدة يحمد عليها وبعد ان ادرك المسؤولون بأن النحات العراقي لا يقل أهمية عن النحات الاجنبي وبعد ان كانت الدولة تكلف بعض النحاتين الاوربيين في صنع النصب التذكارية كما في تمثال عبدالمحسن السعدون وغيره من التماثيل أخذت الآن تسند هذه المهام الى النحات العراقي كما في نصب ١٤ تموز لجواد سليم وتمثال امرأة وطفلها في حديقة الامة لخالد الرحال والنصب العسكري الذي سيزاح الستار عنه في ١٤ تموز ١٩٦٥ لميران السعدي والتماثيل الخمسة المزمع اقامتها في حديقة الاوبرا · وهنا يجب ان اقول وبصورة عامة وهي حقيقة واقعة في جميع العالم بان النصب التذكارية ليست هي الوجه الحقيقي لحركة الفن في البلد وهذه طبيعة النصب التذكارية ذلك ان الفنان لا يستطيع أن يتصرف فيها كما تشاء مخيلته الفنية ·

وسألناه : أين تضعون نتاج النحات العراقي بين النتاجات العربية والعالمية ؟

فأجاب : من الصعب ان نحكم على الانتاج الفني وهو في دور النمو وفي مثل هذا العمر القصير ولكن الواضح هو ان الفن العراقي استكمل شخصيته وسار مع ركب الفنون العالمية · نعم لنا ماضينا الفني الجبار ولكن الحبل انقطع والفجوة واسعة بيننا وبين ذلك التراث الفني الاصيل · وجميع فنانينا درسوا في الخارج وتأثروا بالمدارس الاوربية وهذا التأثير نلمسه بصورة مباشرة أو غير مباشرة في نتاج فنانينا وهذا لا ينفي بأن بعضهم استقل بشخصيته وسار الى الامام · وهذه المشكلة الموجودة عندنا هي نفس المشكلة الموجودة عند شقيقاتنا في البلاد العربية فهي أيضا مرت بنفس الظروف وتعاني نفس النتائج · واما عن نتاج النحات العراقي ومكانته بين النتاجات العربية فلا يمكنني ان اعطي رأيا قاطعا بذلك لاننا لا نعرف على الاطلاق انتاج اخواننا في البلاد العربية ·

وعلى سؤال عن رأيه في الوسائل الكفيلة بالنهوض بمستوى الفن العراقي أجاب يقول :

الحياة الفنية عندنا لا وجود لها مطلقا فالفنان يعاني عزلة تامة عن

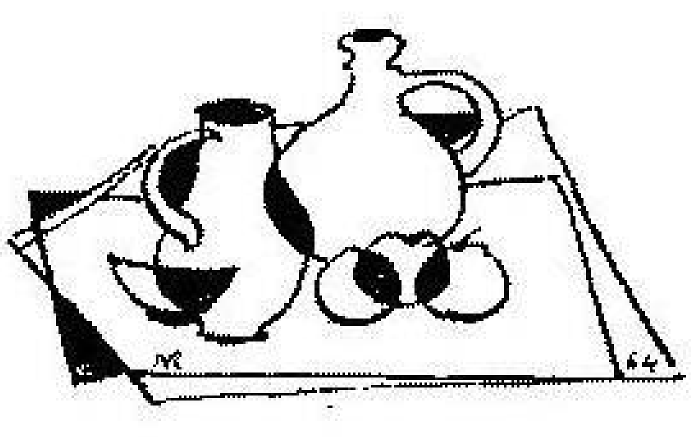
المجتمع والمجتمع بعيد كل البعد عن الفنان فالدولة هي المسؤولة عن نشر انتاج الفنان ان كان في المجال العالمي أو المحلي • ففي المجال المحلي يجب ان تنشر الثقافة الفنية وتعرف الفنان للجمهور بأوسع نطاق والدول هي التي تنشىء المتنزهات وتخطط المدن والساحات وتضع النصب والتماثيل فيها •

وأما المجال العالمي فيجب على الدولة أن تتبناه بأقصى ما تتمكن من وسائل نشر الدعاية والاعلام •

وباعتباره استاذا للنحت في معهد الفنون الجميلة لخص رأيـــه في نتاجات النحاتين الشباب بقوله :

واما عن فنانينا الشباب فيجب أن لا يأخذهم الغرور ، وأن يضعوا الواقع أمام اعينهم • فحصيلة التجارب الفنية هي من مقومات الفن الرفيع ، والشباب تعوزهم الخبرة والتجارب الفنية فعليهم الصبر الطويل والعمل الدائم والمثابرة في الانتاج كل هذا مما سيجعلهم يسلكون الطريق الصحيح دون الاتجاه نحو طريق البهرجة الزائل •

- ولد في بغداد عام ١٩٣٠
- تخرج من معهد الفنون الجميلة في بغداد فرع الرسم عام ١٩٤٩ •
- عين مدرسا للرسم بوزارة المعارف •
- ساهم بتأسيس جماعة بغداد للفن الحديث مع الاستاذ جواد سليم عام ١٩٥٠ •
- سافر الى باريس لدراسة النحت والتحق في المعهد الوطني للفنون الجميلة بباريس (البوزار) من ٥٣ — ١٩٥٨ •
- عين مدرسا للنحت في معهد الفنون الجميلة في بغداد عام ١٩٥٩ •



مرفأ الذكريات

ديوان شعر - لهلال ناجي -
نشر دار الاندلس ببيروت
عام ١٩٦٤ - ٦٤ صفحة ..

دراسة بقلم

محمد عبد المنعم خفاجي

- ١ -

ديوان جديد ، للشاعر هلال ناجي ، يكمل الصورة الفنية التي عرفناها له ، من دواوينه : ساق على الدانوب ، الفجر آت يا عراق ، أغنية حزن الى كركوك ويحدد لنا معالم شخصيته ، وسمات شاعريته .

وقد عرفنا هلال ناجي شاعراً أنيق الاسلوب ، عميق الفكرة ، رمزي الصورة غالبا ، يسير في اتجاه قومي عربي واضح ، تتضح الرؤية الشعرية في أغلب قصائده ، ويضع يده على موضوعه الفني ، وعلى عناصر هذا الموضوع الذاتية ، دون لبس أو عناء .

وفي هذا الديوان اضافات كثيرة على هذه الصورة فقد أصبحت الفضيلة عند هلال ناجي ، مكتملة البناء الفني واضحة الشخصية الذاتية ، ظاهرة التعبير عن ملامح الشاعر الداخلية ، وتفكيره الوجداني . وصارت تجربة القصيدة ، ووحدتها العضوية ، والهامها الشعري ، وأداؤها الفكري والتعبيري وكل قيمها الفنية ، أقرب الى الاكتمال ، وأوفى بمطالب القصيدة ، وضروراتها ، ونمنمات وشيها وكل مقوماتها الشخصية .

- ٢ -

وعندما نريد أن نحدد الاضافات الجديدة لشاعرية هلال ناجي ، التي يعطينا اياها هذا الديوان الجديد ، نرجع الى قصيدة مثل قصيدته « وعاء الزهر » التي نظمها الشاعر في استكهولم ، وكان قد زار المتحف الوطني في هذه العاصمة الجميلة ، فشاهد وعاء زهر عربي ، أضخم من حجم الرجل ،

يشمخ بردائه المصفر عند باب قاعة من قاعات المتحف ، وهو من صنع فنان أندلسي في القرن الثاني عشر الميلادي ، ووقع في أيدي أسرة أسبانية بعد محنة الاندلس ، ثم انتقل بعد قرون الى بروسيا ، وامتلكته أميرة بروسية ، تزوجها ملك السويد ، وحملته معها فيما حملت من هدايا زواجها ، وآلت هذه القطعة الفنية النادرة أخيرا الى المتحف الوطني في استكهولم واسترعت انتباه الشاعر هلال ناجي ، وهو يقف أمامهـــا ، ويتأملهـــا ، في صمت وخشوع ، في تموز عام ١٩٦٣ ، وكان بينها وبين الشاعر حديث صامت طويل تسجله هذه القصيدة :

وفي مطلعها يتحدث الشاعر عن رحلته خارج وطنه وزيارته للسويد :

عندما لفت القلـــوع ركابي
وطوتني البحـــار عن أحبـــابي
ومضت بي الايام في كل درب
نضحتـــه السمـــاء بالاطيـــاب
في جنان السويد طاب شرابي
ورشفت الرحيق دون حساب

ثم ينتقل مباشرة ، الى المتحف وتفكيره في زيارته ، فيقول

قلت أمضي الى المتاحف ألقي
ما حوته من الفنون العجـــاب

وهو في كل ذلك يقتضب ويفاجيء ويقص ويسجل ، وذلك مغفـــور للشاعر ما دام في مقدمة قصيدته . ثم يبدأ في التأني وينظر في عمق ، وتأخذ شاعريته في الانطلاق والانصقال ، فيقول في وصف الطبيعة المجلوة في صباح ذلك اليوم الذي سار فيه الى المتحف الوطني :

كان صبحا موشحـــا بغيـــوم
كوشـــاح الحسناء دون اجتلاب
طرزتـــه من الالـــه أكف
معجـــزات في فنهـــا الخـــلاب
مـــد فوق الخليج معطف نور
زركشـــته نواســـم من غـــاب
وتراءى الجمال في كل ركن
فقباب تدور حـــول قبـــاب
ورفوف الطيور تشمـــخ حينـــا
ثم تهوى من حالق كالشـــهاب
وقلـــوع تجيء خلف قلـــوع
في اقتران الطبيعـــة الخـــلاب

والصورة هنا واضحة في رؤيتها الشعرية ، صورة صباح ذلك اليوم الموشح بالغيوم ، الغيوم الجميلة ، التي تشبه وشاح الحسناء ، وصورة الافق المدبج بهذا التطريز العجيب الذي نسجته أكف الاله ، في اعجاز فني خلاب ، والخليج الذي كأنما مد الله فوقه معطف نوز زركشته نواسم الغاب ، والجمال يتراءى في كل ركن ، فقباب تدور حول قباب ، والطير يرف ويشمخ محلقا او هاويا من الافق كالشهاب ، وقلوع السفن تجيء الخليج خلف قلوع وترسم منظرا فريدا باسما ٠٠ كل ذلك في شاعرية متألقة ونسيج أخاذ ، وخيال شرود ، ووعى وتسجيل كاملين لكل روائع المنظر العجيب لصباح ذلك اليوم ، ولمناظره الفريدة في رؤيا البصر ؛ وهي صورة متألقة بهيجة لا مثيل لها في اشعاعها وجمالها ٠٠

وقادت الشاعر خطواته الى المتحف ، ودلفه ، وتنقل بين قاعاته ، وهنا يحدث الحدث الفني ، وتجيء المفاجأة الرائعة ، ويدوي في سمع الشاعر همس وعاء الزهر العربي له ، ومناجاته اياه :

وانتهى بي المسير في خير دار
زخرت بالفنون والآداب
كان صبحا موشحا بغيوم
كوشاح الحسناء دون اجتلاب
حين دوى في مسمعي حفيف
من وعاء شهدته في الباب

والشاعر يصور المفاجأة هنا في ذروة وقعها ، وشدة تأثيرها ٠ وذلك بدء العمل الفني الحقيقي ٠ ويأخذ الشاعر في تصوير لقائه لهذا الوعاء الاندلسي ، وشوقه اليه ، وحنانه به ، وصدى ذلك العميق في نفسه :

الوعاء العجيب كان شموخا
رغم يتم وصفرة في الثياب
كلقاء الاعراب للاعراب
في صحاري شديدة الاجداب
كان شوقي اليه ، كان خشوعي
كان توقي لصوته الجذاب
وأتاني كلامه مثل وحي
حملته الاحقاب للاعقاب

ويقف هنا عند أبعاد الصوت : الشموخ والصفرة في الثياب واليتم ، وشوق الشاعر الى هذا الوعاء الزهري ، وخشوعه أمامه ، وصمته حيال صوته الجذاب ، وفرحه به فرحة لا تعادلها الا فرحة العربي بلقاء العربي ، في صحراء شديدة الاجداب ، وانصاته لحديثه الرائع كأنما هو وحي حملته الاحقاب للاعقاب ٠٠ وهي كلها لقطات فنية نادرة ٠

وكان لابد للشاعر بعد ذلك من أن يسجل حديث وعاء الزهر ، فماذا همس به في اذن الشاعر ، وماذا قصه عليه .. يقول هلال ناجي يكمل الصورة الشعرية لهذا الحدث الكبير ، والتجربة الطريفة :

أيها ذا الحفيد ، يا بلبل الشعر
أتاني وقد سئمت اغترابي
لا تذرني ظمآن كالكأس للخمر
كشوق السقاة للاعناب
كحنين الفراش للاطياب
وكحلم الرعاة بالاعشاب
حملتني الاكف في شبه قهر
لملوك الافرنج في الاحقاب
وأراني من بعد عز وحيدا
كالبعير المفرود بين الروابي
أتقرى الخطى ، ففي كل قرن
عربي أشيمه في الركاب
هو عندي كالحلم كالامل الحلو
كفيض من الاماني العذاب
ثم يمضي عجلان في شبه سهو
عن همومي وغربتي ومصابي
ضاع عمري قبل الصباح وعادت
كالحات الهموم تطرق بابي

والحديث هنا عن الغربة والوحدة والضياع والفراغ والحنين ، وعن الاحقاب التي طواها وعاء الزهر في شبه قهر ، والاكف تحمله ، متنقلا بين ملوك الافرنج ، وعن فرح الوعاء بلقاء عربي ، وقد لا يتسنى له هذا اللقاء الا كل قرن من الزمان ، وكيف يخلفه الزائر العربي في شبه سهو عن همومه وغربته ومصابه ، وعن شباب الوعاء الذي ضاع قبل الصباح ، وعادت الهموم تطرق بابه .. وهو حديث في صميم العمل الفني ، وكله جدة والهام نادر .

ويتابع الشاعر الحديث مأخوذا مبهورا ، فيقول :

يا سميري وصاحبي وخليلي
ونجي من بعد طول اغتراب
أين قومي هل مزقتهم صروف
داميات بأشرس الانياب
أم تراني شطحت فالقوم قومي
في شموخ وعزة وجناب

فلمــاذا اذن يعيشــون همــلا
دون رأي أو ســطوة أو جــواب
ولمــاذا اذن أضــاعوا عـزيزا
دون درء لاوهــن الاســباب
ضــاع قومي في الداجيات وعادت
كالحــات الاعوام تطـرق بابي

والسؤال هنـا عن التـاريخ ، تاريخ قومه العرب في الاندلس ، وأين هـم ، وماذا صنعت بهم السنون ، وكيف يعيشـون ، وكيف ضـاعوا في الداجيات ؟ سؤال مثير عن عرب الاندلس ، وكيف بددتهم صروف الليالي، وذهبوا مع الايام وكالحات الاحداث • وكان لابد من هذا السؤال ، بعد أن تحدث الوعاء عن نفسه ، عن وحدته وغربته وكآبته ، وهو في ضميم العمل الفني الذي تناوله الشاعر •

وينتقل الشاعر اثر ذلك الى تسجيل صدى هذا الحديث الدامي في نفسه ، فيقول :

في رفيف الضحــى طويت كتــابي
وهـرقت النبيــذ من أكــوابي
عـاد صبحي دجى ، وعـاد نهاري
نابغيــا بشير بالهـم مـا بي
(أين قـومي ؟) تـدق كالهـم بابي
فــي مقــلي وفـرحتي واكتئابي
يـا وعـاء الزهـور ، هـاك جوابي :
بـات قومي في فرقـة واحتراب
مزقتهـم مـن الخـلاف نيـوب
وتوارت أمجــادهم فــي الضباب

وبذلك تنتهي القصيدة ، التي ضمت تجارب شعرية عميقة ، تدور حول وحدة الشاعر في رحلته الى اوربا ، وقطعـه لهـذه الوحـدة برشف الرحيق دون حساب ، وبتفكيره في زيارة المتحف الوطني ، ،وحول وصفه لصباح ذلك اليوم الجميل ، ووقوفه أمام وعاء الزهر وجها لوجه في متحف استكهولم ، وحول حديث الوعاء الى الشاعر ، وصدى ذلك الحديث العميق في نفسه •• وذلك كله من صميم البنية الفنية للتجربة التي عاناها وعاشها واستلهمها •

والقصيدة في رأيي قمة من قمم الشعر المعاصر ، وفيها صدى عميق للشعور القومي العربي في نفس الشاعر ، وتماثل سينية البحتري في وصف ايوان كسرى ، وقصيدة الشاعر في ديوانه (ساق على الدانوب) في جمل عربي رآه في حديقة الحيوان بفينا •

واذا كنا نريد تمييز هلال ناجي بشيء فاننا نؤثر أن نميزه بقصيدته (وعاء الزهر) ، فهي وشي من عبقرية ، ونسج من شاعرية محلقة مبدعة صناع • بالفكر الشعري ، والتجربة والصورة الشعرية بأدواتها ، موسيقى وخيال وألفاظ وتعابير فنية ، والعاطفة ، وروح الشعر وجوهره ولبه وخالصه متميزة فيها كل التمييز ، مصورة فيها بوضوح شديد •

وهو من الشعر العمودي الذي يجمع بينه وبين الشعر الحر قصائد هذا الديوان •

- ٣ -

واذا وقفنا عند قصيدته (ثلاث رسائل الى شهيد) ، التي أهداها الى شقيقه وجدي ناجي ، الذي استشهد صباح ١٤ من رمضان ، وهو يدك بنيران دبابته قلعة الطاغية عبد الكريم قاسم ، وجدنا فيها هذه الادوات كلها من الرمز والتخير لادوات البناء الفني للقصيدة ، والبدء حيث يحسن البدء ، وبلوغ القمة حيث يحسن بلوغها ، والخاتمة حين تطيب الخاتمة ، ومن الوحدة العضوية ، والتجربة الشعرية المتغلغلة في أعماق الشاعر ، والموسيقى القوية الموحية ، والفكرة الجديدة الحريصة على تسجيل أدق التفاصيل ، والرؤية الشعرية الواضحة •

وقصيدته (سلبي) التي يقول فيها :

هيه يا شاعر ، هل غنيت للثورة شيئا
أنت سلبي ، والا فيم جافيت الرؤيا
أنا يا سائل أرخصت الى الثورة روحي
نبتت أزهارها عبر جروحي وقروحي
غير اني
أكره النهاز في النصر العظيم
والذين
حسبوا الثورة بستان قريش
والذين
خلق الزهو بهم بعض اله
والذين
نسوا الرفقة في ليل الكفاح
انه الليل العظيم

تمثل الجانب القومي الواضح للشاعر الثائر الوطني الذي يعمل في صمت للوطن ، للعروبة ، للوحدة ، دون زهو أو أنانية أو راحة •

٤

وتأتي بعد ذلك قصائده : لقاء في الغرب ، نيكول كاستان ، وندي جرجل ، حكاية من لندن ، انجن جوهانسن ، يوهنا الهولندية ، ماري شرمان ، الى امرأة مجهولة ، الليلة الاخيرة ، أغنيتان نرويجيتان ، عاشقة الاخوين ، الانكليزي المستانث ، كل ثغر ٠٠ وهي قصائد تمثل لقاءات جنسية صارخة حيناً ، ومعتدلة حيناً اخر ، واذا تركنا النظر الى موضوعها بدت لنا صور فريدة لشاعرية الديوان وخصائصه الفنية الفريدة ، وتعابيره المذبة الجديدة ، وموسيقاه الهادئة اللطيفة ، وأخيلته العالية الجميلة ، كقوله :

دارت الكأس فهشمنا التخوما
ومضينا نزرع الافق نجوما

وقوله :

نصف الليل مضى من ساعات
والساعة باتت سكرانة
حتى الساعة

وقوله :

لم تجيء يا جميل فالزهر باك
وكذاك النبيذ والابريق

ولا ينسى الشاعر في هذه القصائد الحديث عن قومه وعروبته وحضارة بلاده كقوله في قصيدته (نيكول كاستان) :

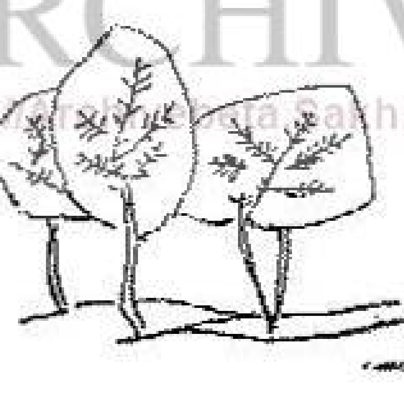
اسمي نيكول
وأبي كستان
وأجبت بهمس وحنان :
ما أروع أن تهمس عينان
يا نجما من جبل المرجان
يا كستان
ومضينا للمشرب وغرقنا
في حديث عن موطن الاحباب
سألتني عن قمة الفكر في قومي
ذكرت الكندي والفارابي
والغزالي والرئيس ابن سينا
وابن خلدون قمة الاعراب
والمعري الذي تحدث جهرا
قبل دانتي عن ثورة الاقطاب

في جحيم معفر بلهيب
ونعيم مزخرف الاكواب
فتراءت جذلى وذابت يداها
بين كفي كنغمة الاطياب

ونراه في هذه القصيدة يمزج بين البناء الحر والبناء العمودي في قصيدته ، وهي تجربة جديدة من تجارب التجديد في الشعر المعاصر ، وهذه القصيدة يندر أن نعثر على شبيه لها من تجارب الشعر العربي الراهن .

ولا أستطيع أن أفيض في القول ،ولا أن أترك أيضا الحديث عن هذا الديوان ، دون ان أقول ان هذه الصفحات القليلة الاربع والستين ، تمثل عملا فنيا جديدا ، لا يدانيه عمل اخر في روعته وجدته وطرافته .

ان هلال ناجي ليكفيه ان يكون له ديوان (مرفأ الذكريات) .



آراء وتعقيبات

حول الحياة الجديدة لدانتي

بقلم : صلاح عبدالصبور

تحدثت منذ أسابيع في مقال لي بالاهرام القاهرية عن ترجمة الدكتور حسن عثمان لرائعة الشاعر الاعظم دانتي « الكوميديا الالهية » وعن المجلدين اللذين اقترحت عليه في ثنايا المقال ان يفسح من وقته لترجمة أحد آثار دانتي المهمة ، وهي « الحياة الجديدة » الذي يتفق النقاد على ان فيه بذور الكوميديا الالهية • وعاقني عندئذ ضيق الحيز عن أن اتحدث عن أثر كتاب « الحياة الجديدة » في نفسي وفي نفس كل من يقرؤه ، ولابادر الى القول اني قرأته في ترجمته الانكليزية لوليم اندرس •

والحياة الجديدة أو (Lavita Nuova) تعني الصورة الجديدة للاحساس بالحياة والقصة التي يعيد الديوان حكايتها لنا قصة بسيطة ساذجة ، فقد التقى دانتي وهو طفل بباتريس الصغيرة ، او بياتريتش كما يقول الايطاليون ، ووقع أسير غرامها ، وظل هذا الحب يعيش في نفسه مختفيا مكتفيا ببهجته الداخلية حتى ماتت بياتريس في سن الرابعة والعشرين ، واستبد بدانتي الحزن ، فحاول أن يجد عزاءه في عشق امرأة أخرى ، ولكنه ثاب الى حبه الصادق حين رأى في حلمه بياتريس وهي في مجد السموات • وقد ثارت حول الكتاب على مدى القرون زعازع من النقد ابرزت جوانب العمق فيه • فلم يعد الكتاب ساذجا بسيطا كما يبدو لاول وهلة • فالقارىء قد يقرأ الكتاب للقصة الرقيقة التي يحتويها ، ولكنه بعد استيعاب القصة لابد أن يفكر فيما وراءها ، ويحاول أن يكشف اسرارها العميقة •

وبياتريس هي الشخصية التي تدور حولها القصة ، ودانتي يقدم لنا مظهرها الخارجي في النشيد الاول حين يقول :ـ

يقول عنها الحب ، كيف ان شيئا فانيا
عليك هذه الوفرة من الجمال والنقاء
ينظر اليها ، ثم يقسم لنفسه
ان الله ابتغاها نمطا جديدا من الخلق

هي اذن نمط جديد من الخلق ، ولكن هل باتريس امرأة حقيقية ، ان بوكاتشيو يحدثنا في سيرة حياة دانتي ان اول لقاء بين باتريس ودانتي كان في منزل فولكو بورتيناري والد بياتريس في مايو ١٢٨٤ ، حين دعى والد دانتي لاحدى الحفلات وصحب ابنه معه • ووقعت عينا الابن بينما هو هو يلعب مع لداته على بياتريس الصغيرة ، ورغم انه كان طفلا فقد استقبل الجميلة في قلبه بحب عاش معه وله •

وقد تزوجت بياتريس بعد ذلك من سيمون دي باردي ، وتزوج دانتي من سيدة اخرى وماتت بياتريس ، لتعيش في أدب دانتي بعد أن رفعها الى مرتبة القيم العليا المقدسة •

ما نصيب الحقيقة وما نصيب الخيال من بياتريس ؟ وهل باتريس « الحياة الجديدة » و « الكوميديا الالهية » هي نفسها الطفلة بنت فولكو بورتيناري الفلورنسي ؟

ذلك هو محور فهم دانتي ، وهو شارة العمق في كتاباته • لقد أصبحت بياتريس مجرد رمز ليجمع دانتي حولها كل آرائه كمفكر ولاهوتي وفيلسوف وشاعر ، وليزين باسمها كل خبراته في مجال مزج التجربة الصوفية بالتجربة العاطفية ، ومن أهم هذه الخبرات ذلك التقليد الذي شاع قبل دانتي ، وهو تقليد « حب البلاط » (Courty Love) الذي عرفه جنوب فرنسا ، وهو تقديم العاطفة الى امرأة تكون عادة أرفع من الشاعر قدرا اجتماعيا وزوجة لرجل آخر ، دون طمع في وصل أو قربى • وذلك بعد أن يقف الشاعر موقف الحيرة بين نيل وصال محبوبته مع ما في ذلك من خطيئة ، وبين الخلاص الذي وعده به السيد المسيح ، وقد انتقل ذلك التقليد الى ايطاليا عن طريق البلاط الصقلي في عهد الملك فريدريك الثاني الذي كان هو نفسه شاعرا جمع حوله عديدا من الشعراء • وامتزج ذلك التيار بالتيار العربي المعروف للحب العذري ، فضاعت منه الانغماسات الجنسية ، وامحى وجوب أن تكون زوجة لرجل آخر قبل أن يوجه الشاعر اليها حبه •

ومن كبار الشعراء الايطاليين الذين تبنوا هذا التقليد كان الشاعر الايطالي جويدو كافالكانتي (Guido Cavalcanti) صديق دانتي • ومحبوبة كافالكانتي جيوفانا تظهر في الحياة الجديدة وهي تقود بياتريس كما تقدم يوحنا المعمدان المسيح •

وقد فهم دانتي عن سلفه الشاعر ان الحب هو التجربة التي لا يستطيعها الا الرجل النبيل المهذب الذكي ، وان الموت تتويج للحب ، ولكن دانتي اضاف ان بياتريس قد عادت من الموت لتقود شاعرها في حياته ثم في رحلته عبر السموات وهكذا استطاع دانتي أن يخرج بين تقاليد التروبادور وتعاليم المسيحية • وأضاف الى ذلك كله عمله الواسع بالفلسفة الارسطية كما نقلها المدرسيون ، فقد كان شديد الاعجاب بأرسطو واشار اليه في

الكوميديا بقوله انه سيد العارفين .

وبكل هذه الثقافة حاول دانتي أن يحقق في عمله المستويات الاربعة للمعنى التي أشار اليها في الكونفيفيو : وهي المستوى الحرفي والمجازي والاخلاقي والصوفي . فالمعنى الحرفي هو الذي يحتوي المعاني كلها ، ولابد أن يكون واضحا ، أما المعنى المجازي فهو الحقيقة المخبوءة تحت الخيال الجميل . ومثال ذلك اسطورة ارفيوس حين يبهج الوحوش بموسيقاه اذ تخفي تحتها معنى مجازيا وهو ان الرجل الحكيم يستطيع بالكلمات الحلوة أن يلين القلوب ، اما المعنى الثالث فهو المعنى الاخلاقي ويضرب دانتي له مثالا بان المسيح حين صعد الى جبل الزيتون أخذ معه ثلاثة من حوارييه دون بقية الاثني عشر . وذلك معناه الاخلاقي ان معظم الامور التي يلزم فيها السر يجب أن يقل شهودها . أما المعنى الرابع والاخير ، وهو الصوفي فهو يدرك بالروح وراء الحواس . وقد جهد دانتي أن يحقق كل هذه المعاني في الحياة الجديدة .

وتبدو بياتريس في الحياة الجديدة محاطة دائما بالرموز الصورية والعددية . واكثر تلك الرموز اثارة هو شبهها بالسيد المسيح . ففي الحلم الذي يصوره في النشيد الثاني والذي يسبق موتها ، نرى الزلزال واظلام السموات وغير ذلك من الشواهد التي لابد ان تعيد الى ذهن القارىء قصة اليوم الاخير للمسيح كما وردت في الاناجيل . وحين تقوم بياتريس تسبقها جيوفانا كأنها المعمدان ، لتتناثر الفاظ الرحمة والخلاص مصاحبة لوصف حضورها .

والتجربة الصوفية هي أوضح التجارب في الحياة الجديدة . وهي تنبع من منبعين أولهما هو تصوف الفرنسسكان . وهم اتباع الراهب يواقيم دي فوار . ويقسم هذا التصوف التاريخ الانساني الى ثلاث مراحل ، مرحلة الاب ومرحلة الابن ومرحلة الروح القدس .

أما المنبع الثاني فهو فكر الفلاسفة المسلمين وبخاصة شراح ارسطو كابن رشد وغيره .

وقد أثار هذه القضية للمرة الاولى المستشرق الاسباني ميجيويل اسين ى بلاثيوس الذي اكتشف لاول مرة والف دانتي للثقافة الاسلامية . وأول ما لحظه بلاثيوس هو التناظر بين رؤية الحب الثانية وبين حديث منسوب للطبراني من محدثي القرن التاسع الميلادي . ثم الصلة بين كتابين لابن عربي المتصوف الاندلسي وبين كتاب دانتي (Convivio) ، كما ان الحب الصوفي تقليد يتضح عند المتصوفة العرب وبخاصة ابن عربي . ومن أفكار ابن عربي ان الله هو الذي يظهر لكل محب حين يطالع صورة محبوبه . وتلك هي الفكرة التي تحولت بـ (بياتريس) الى السيد المسيح .

لقد انهى كتابه ، بعد السنة الخامسة والعشرين قائلا ..

« وبعد هذه السنة بدت في رؤية عجيبة ، طالعت فيها اشياء جعلتني

أصمم الا اتحدث عن هذه السيدة المباركة ، الى ان تواتيني القدرة ان أكتب عنها بما تستحق • ولكي أحوز تلك المنزلة أراني أدرس بقدر ما أستطيع ، وهي تعلم صدق ذلك • وعندئذ اذا شاء الله الذي تعيش في كنفـــه كل الأشياء ، وامتدت حياتي بضع سنوات قليلة ، فاني اؤمل أن أكتب عنهـا ما لم يقل قط عن أي امرأة •

ذلك كان عهد دانتي ، وقد وفي به لبياتريس ولله الذي تعيش في كنفه كل الاشياء ، ولنا وللانسانية حين كتب الكوميديا الالهية بعد ذلك • فخلع المجد على بياتريس الفلورنسية وامتع كل قلب يحس ويرى •

قضايا في الشحاذ ـ نجيب محفوظ

بقلم : عبد الرحمن طهمازي

تستمر رواية اليوم بتسجيل الانسان خلل توتره الحالي ، ولعل هذه العملية تتهم اليوم على صعيد المتخلفين باســم (ســوء الظن بالانسـان) أو (ابراز عنصر الشعر في الانسان) ، والاسمان يعبران عن شيء معين هو أن الانسان يمكن أن يساء الظن به •

وأعظم الروائيين هم الذين (سجلوا الانسان) أي بتعبير مضـــاد أساءوا الظن بالانسان أو أبرزوا الشر فيه •

وهذا البعد (تسجيل الانسان) يقتضي أولا قراء صحيحين يفهمون مهمة التعبير حتى يصلوا الى بساطة ظاهرة التسجيل والى عمق انطراح الانسان على الاستار عاريا أو ممسوخا •

وكل قاريء يستطيع أن يذكر أسماء كثيرة سجلت الانسان بدقة •• ولكنني لا أحتاج هنا أن أذكر واحدا من تلكم الاسماء •• فان أمامي روائيا عربيا هو الاستاذ نجيب محفوظ • حيث يمكن اعتباره ـ لاهم الاسباب ـ كاتبا حضاريا يؤمن بأن هناك أزمة تلصق الانسان بمسمار القلق الضـــاج وأمراض الاعصاب •• وضغط الدم • والرائع أيضا أن هذا الروائي كلما كتب رواية •• كتب التي تليها باسلوب متطور أيضا من ناحية تكتيكه •• خطف الصور •• روعة الحوار الخفيف الذي ينقله برشاقة وخفة وذوق • و (الشحاذ) رواية نجيب محفوظ الاخـيرة أقرب الى الانســان من كـل رواياته وفنها يتضمن منلوجا داخليا دافقا وحوارا دقيقا •

وتقوم دراستي عن الشحاذ على البطل عمر الحمزاوي الذي يقف مع شهود الانسان الغرباء في الحضارة الصناعية الهائلة التي تشهد أفضع

جريمة وهي تدمير الانسان • وعلى الفن الذي كتب نجيب محفوظ به الشحاذ •

●

يبدأ الحوار بعبارات الاصدقاء المألوفة :

ـ أهلا عمر ، تغيرت الحال .• ولكن الى أحسن

ويأتي الجواب عاديا جدا

ـ حسبتك لن تذكرني •

ويمر جواب الطبيب السلبي الذي يدافع عن نفسه :

ـ أنا لا أنسى أحدا فكيف أنساك أنت •

ولا أظنني أساير هذا المنهج في تتبع الحوار كله التتبع الاعشى ، وهنا الاحظ : ان في الحوار انطلاقات عظيمة قد لا يسجلها الا كبار الروائيين وهذه الانطلاقات تبدو لاول وهلة عادية جدا ولكي اوضح أكثر أن بعض انطلاقات الحوار تكون تسجيلا آليا لا يقدر عليه ـ كما يلوح ـ الا واحد من اثنين : الانسان الذي يتحدث بعفوية في الواقع •• والمراقب الذي يراقب مراقبة هائلة الدقة • خذ هذا المثال :

حينما يبدأ عمر الحمزاوي بحكاية مرضه الى الطبيب الصديق :

ـ لا أعتقد اني مريض بالمعنى المألوف •

فازداد اهتمام الطبيب وهو ينعم فيه النظر باستمرار •

ـ أعني انني لا أشكو عرضا من الاعراض المرضية المألوفة •

ـ نعـــم •

ـ ولكني أشعر بخمود غريب •

ـ أهذا كل ما هنالك ؟

ـ أظن هـــذا •

ـ لعله من الاجهاد المستمر •

ـ ربما ولكني غير مقتنـــع تماما •

ـ طبعـــا والا ما شرفتني •

ـ الحق انه نتيجة لذلك الخمود ماتت رغبتي في العمل بحال لاتصدق•

ـ استمر •

وهكذا يستمر هذا التسجيل الدقيق لحوار عادي بين صـــديقين قديمين .• محام وطبيب •• المحامي لا يعرف ما هو مرضه •• والطبيب في اخر أوقات المراجعة ولعلنا نجد طبيعة الحوار واللهجة العادية لطبيب ما في أجوبة الطبيب : نعم ، طبعا والا ما شرفتني ، استمر •

ثم يمضي الطبيب في عمله العادي وهو فحص المريض وتحليل بوله •• ويخرج من غرفة التحليل لكي يعلن أن النتيجة هي لا مرض ولـكن صاحبنا المريض يجيبه :

ـ أخشى أن يكون الأمر أخطر مما تتصور .
فقال الدكتور ضاحكا :
ـ ليست قضية أهولها لمضاعفة الاجر .
ثم نرى في الحوار الذي تتوسطه كلمة الطبيب ـ أنا لا أتفلسف طبعا ـ الحاح المريض في الحديث عن المرض والطبيب يود لو يختصر الموضوع .. ولكننا نرى أن الطبيب يصحو على نفسه فهو يريد من المريض الصديق أن يبقى معه لسبب اخر :
ـ مهلا أنت اخر زوار اليوم فلنجلس قليلا معا .
فلو لم يكن اخر زوار اليوم لما طلب منه الجلوس معه .
وهنا نرى الطبيب يحاول أن يمد الحديث الى أصدقاء الامس .. الى مصطفى .. وعثمان .. وأيام الدراسة لنجد المريض مع جوابه .. الا أنه غير منسجم .. والطبيب كذلك في هذه الجلسة المختصرة :
فقال بنبرة ختامية :
ـ فلتحب المستقبل .
ثم وهو ينظر الى ساعته :
ـ من الان فصاعدا أنت .. أنت الطبيب .
ثم نجد الحوار أبرع حيث أن ابنة عمر تحدثه ولم يذكر نجيب أن هذه ابنة عمر .. أو مهد لها بكلمة ما .. ولكننا مع ذلك فهمنا :
ـ بابا هل تستعد للسفر ؟..
ـ سنمرح كثيرا وسوف أعلم اختك السباحة كما علمتك فيما مضى .
اذن فعمر الحمزاوي قد ضجر وأفضل علاج له هو السفر .
ويبدأ العشاء .. ويتحدث مصطفى صديق عمر ـ فقد شارك بالعشاء ـ عن أفكار مستر تشرشل في قبرص ثم يعلق :
ـ الطعام أجدر من الجنس بتفسير السلوك البشري .
ثم يخلو الجو لمصطفى الميناوي وعمر الحمزاوي حيث ذهبت جميلة البنت الصغيرة للنوم وذهبت الزوجة زينب والبنت الكبرى بثينة بزيارة في نفس العمارة :
فاشعل عمر سيجارة وهو يقول :
ـ ما أفظع الجو ، لم أعد أحب شيئا حبا خالصا .
اذن فهو مرض الملل من كل شيء .. حتى انه يخشى أن يترك العمل الى النهاية .
ويمضي حديثهما عن الفن والضجر والعلاج .
فضحك مصطفى بصفاء مغسول بالويسكي وقال :
ـ لا تخلو حركة هروبية من فشل . ولكن صدقني أن العلم لم يبق شيئا للفن ، ستجد في العلم لذة الشعر ونشوة الدين وطموح الفلسفة ، صدقني اذن لم يبق للفن الا التسلية ، وسينتهي يوما بأن يعد حلية نسائية ،

مما يستعمل في شهر العسل ·
وبعـد هذه الحكمة التي أطلقها الفنان مصطفى ··
فيتثاءب عمر ثم قال :
ـ اللعنة ، اني أشم في الجو شيئا خطيرا ، ويرعبني احساس حركي داخلي بأن بناء قائما سينهدم ·
وهذا القول احساس قلق يمثل احساسات جيل الحضارة ·
ملأ مصطفى كاسا جديدة وقال :
ـ لن تترك بناء كي ينهـدم ·
ـ ماذا تظن بي ؟
ـ الاجهاد والتكرار والزمن ·
وهكذا نجد أن الحوار الذي دار بين مصطفى وعمر الحمزاوي يصور احساس عمر الرهيب بانهيـار البنـاء ·· ثم ظن مصـطفى بعمر التـكرار والاجهـاد والزمن ·
والمرض ليس عرض الحمزاوي فقط بل هو كـذلك مرض مصطفى أيضا هذا الشيخ الوجودي المتمرد كما يبدو من هذا الحوار ولهذه المدة التي استغرقها هذا الحوار ·
وحتى مصطفى انحط يوما على المقعـد الطويل مقوس الظهر كأنما أوغل في الكبر وقال :
ـ ما أضيـع الجهـد ·
وقلت له بانزعاج :
ـ ولكن الطليعة ترحب بمسرحياتك وهي فن جيد حقا ·
فلوح بيده بازدراء وقال :
ـ علي أن أعيد النظر في حياتي كما فعلت أنت ·
ـ طالما نصحت بالمثابرة والصبر ·
فبصـق ضحكة خشنة وقال :
ـ لا فائدة من تجاهل الجماهـير ·
ـ أتريد أن تبدأ من جديد محاميا ·
ـ مات القانون قبل الفن ، الحق أن مفهوم الفن قـد تغـير ونحن لا ندري ، عهد الفن قد مضى وانقضى وفن عصرنا هو التهريج ، هذا هو الفن الممكن في زمن العلم ، ويجب أن نتخلى للعلم عن جميع الميادين عدا السيرك ·
ـ الحقيقة اننا نتحطم واحدا بعد اخر ·
ـ بل قل اننا بلغنا سن الرشد انظر الى نجاحك في الحياة على سبيل المثال · وفي رأيي أن الترفيه غاية جليلة لمتعبي القرن العشرين ، وما تظن أنه الفن الحقيقي ليس الا الضوء القادم من نجم مات منذ ملايين السنين ، فعلينا أن نبلغ سن الرشد وأن نولى المهرجين ما يستحقون من احترام ·
ـ يخيل الي الى أن التفلسف قد قضى على الفن ·

- بل قضى العلم على الفلسفة والفن فالى مسرات التسلية بلا تحفظ ببراءة الاطفال وذكاء الرجال ، الى القصص الخفيفة والضحكات المجلجلة والصور الغريبة ولنتنازل نهائيا عن غرور الكبرياء وعرش العلماء ولنقنع بالاسم المحبوب والمال الوفير ٠

وهكذا نجد هذا الاحتجاج الصارخ الذي أطلقه مصطفى - على الاقل من جانب خاص هو مسالة عدم قبول الجمهور للفن الاصيل أي فن مصطفى ٠٠ أو ظن مصطفى بالفن ٠

ثم نستمر مع الشاهد عمر الحمزاوي الذي أعلن غير مرة أن الحضارة ترفض الشعر باعتبـــاره ممثلا لقيمة السروح والحلم والعلم يطعم الخبز والامر في الحياة التي يعتبرها زائلة - هو الخبز لذلك فالشعر عملية متبقية من العصر الحجري أو أنها ستكون في الايام القادمة من متبقيـــات القرون البـــائدة .

وعندما يجد أن ابنته بثينة تنظم الشعر وتعترف أنها قد عشـــقت سر الوجود بعد أسئلته الابوية الشاكة يعاوده الحنين الى كتابة الشعر الذي كان ينظمه أيام زمان ٠٠ ولا يفلح حيث أنه كتب كلمات غير ذات معنى مع العلم أنه نصح بثينة أن تترك الشعر وتنصرف الى المستقبل فهي متفوقة بدرس العلوم ويرجو لها أن تكون مهندسة ولا بأس ان هي جمعت بـــين الشعر والهندسة ٠ وهو لا يدري - لا فرق - ان هذه البنت قد تسأم من الهندسة كما سأم هو من المحاماة وتترك العمل لان السأم مرضه ولا غرابة أن ينتقل الى ابنته بواسطة الجينات مثلا ٠

وهكذا يبدو عمر الحمزاوي انسانا غـــــير منطقي بمعنى أنه انسان كالناس العاديين فهو يود لو يبقى ساعات يسمع الى مجنون ٠٠ ويضحي بحديثه من أجل كلمات المجنون وعندما تسأله زوجه عن سبب مرضـــه يذكر لها أن أحدهم قد قال أمامه وقد جاء ذكر تأميم الحكومة للممتلكات اننا نحيا ونعلم أن الله سيأخذ حياتنا وكذلك اذن تكون النتيجة غير محزنة فنحن نتعب ونمتلك وتأتي الحكومة تأخذ ممتلكاتنا ٠ وحينما تسأله هل هذا هو السبب ٠. يقول لها لا سبب ٠٠ وهو حينما ذهب الى الاسكندرية لينسى همومه يعود أكثر هموما ٠٠ فهو في البداية سأم عمله وتركه تقريبا ولكنه بعد العود يخاف أن يسأم زوجته ٠٠ التي يعتبر وجوده معها نوع من العمل الممل كذلك ٠

ثم تستدرجه رجله الى الحانات والملاهي وفي احدى الملاهي يكتشف ان صاحب هذا الملهى من الذين سوى له بعض القضايا لذلك يخدمه ثـم يقدم له فتاة ما ٠٠ ويظل على علاقته بها ٠. ثم يتركها ٠٠ وهكذا يظل على هذه العلاقات التي كثرت بحيث أنه أخذ يبدل كل يوم فتاة ٠٠ كأنما تسير المسألة طردا مع مرضه فكلما زاد مرضه زاد عدد المغنيات اللواتي يعقـــد علاقاته الجنسية معهن ٠ ونراه خلال هذه الفترة يستأجر شقة ما ويؤثثهـــا

لاحدى هؤلاء الفتيات ثم تهرب منه بعد أن تعلم أن له علاقة بفتاة غيرها ٠٠ وفي هذه الفترة نجد أن زوجته قد هددته بأن تذهب منه ٠٠ بعد تأخره في الليل ولكنه يتصرف تصرفا يتفق مع مرضه فهو يترك لها ولبناتها البيت ويرسل لها نفقاتها مع صديقه مصطفى ٠

وفي هذه المدة نراه يهتم بأسئلة يوجهها الى صاحب الملهى حول الايمان بالله ٠٠ ويلح في السؤال ثم تجده يسأل احدى فتياته العشيقات عن ايمانها بالرحمن فتجيبه بنعم ٠

ثم يرجع عمر الحمزاوي الى البيت بعد أن تلد زوجته ٠٠ ولكنه في الاخير يهجر البيت تماما ٠٠ وهكذا تنتهي الرواية بنشيد دامي وحكاية مريرة عن انقلاب القيم كتبه نجيب محفوظ بمنولوج داخلي رخيم ٠٠ حيث يعايش عمر الحمزاوي الاشباح والاحلام ثم الهذيان وأخيرا ينتهي الامر به الى رصاصة في جسده ٠٠ ولا يحس بنفسه الا في سيارة وبجنبه بعض الاهل ومصطفى الصديق ٠٠ ويأمرهم برجاء أن يذهبوا عنه لكي يرى النجوم ٠ وهكذا بغموض تام ٠٠ تنتهي الرواية ٠٠ بعد أن ترك عمر عمله تماما وسلمه للصديق الخارج من السجن عثمان ٠٠ !

وعمر الحمزاوي كبطل للشحاذ ٠٠ يمثل الانسان في هذا العصر ٠٠ كسجين للحضارة المعاصرة فهذا البطل المريض انسان الحضارة ٠٠

والشحاذ تؤكد لنا ان نجيب محفوظ يعاصر الحركة الروائية الحديثة بمعنى انه يتعاطف معها بصورة صحيحة جدا ٠

ثم انها ليست تشاؤمية بالدرجة التي تصورها البعض ٠٠ انها ليست كالعالم الطريف لا لدس هكسلي ولا (كالجزيرة) التي يعتبرها النقاد أخف من (العالم الطريف) ٠٠ بل انها تمثل مرضا نفسيا برجوازيا لانسان أدار ظهره للحركة الاشتراكية التي كان يؤمن بها مع صديقيه مصطفى وعثمان ٠٠ وهي تمثل كذلك انهيار اللامنتمي بعد الارتداد على الانتماء ٠٠ أي انهيار الغريب بعد حالته السوية وليس معنى ذلك ان الانهيار لا يلازم الانتماء ٠٠ وانما هو نتيجة طبيعية وليست حتمية لعدم الانتماء ٠

هذا من ناحية فلسفة القصة ٠٠ أما فلسفة الفن الذي كتبت به (الشحاذ) فهو يقوم على المنولوج الداخلي أو الحوار الداخلي ٠٠ أي عرض النفسية ٠٠ وكل الرواية يقوم عرضها على هذا الاساس ٠٠ كما انها تمتاز بتطويع اللغة وتداخل الحوار الذي أجراه نجيب محفوظ بدقة بحيث لم يخل أبدا بفنية القصة وسيرها المسترسل ٠

وقد كان بودي لو أنقل عبارات كبيرة من القصة للتمثيل على كل ذلك ولا سيما على مسألة « تداخل الحوار » ولكن المجال لا يسمح ٠٠

تصـــويب

قرأت شاكرة قصيدتي (أرض الميعاد) واذ ابعث اليكم بكلمة شكري وتحيتي انتهز الفرصة لأشير الى بعض الاخطاء المطبعية الصغيرة التي لاحظتها أثناء قراءتها ٠٠ ففي مطلع القصيدة وبالتحديد في الشطرة الاولى من البيت الاول سقطت الهاء من كلمة (سره) فكسر الوزن ، أي أن الذي نشر كان هكذا (أنصت معي ما سر هذا الانين ؟) والصواب هو (أنصت معي ماسره هذا الأنين ؟) وفي الشطرة الثانية من البيت الحادي عشر وهو كما كتب (وطوت بأعماق المدى شر السنين) والتصحيح هو (وطوت بأعماق المدى سر السنين) كذلك جاء في الشطرة الثانية من البيت الثلاثين (رغم صوت سافر عذب الرنين) والصواب (رغم صوت ساخر عذب الرنين) ٠ وأرجو الا أكون قد اثقلت عليكم بهذه الملاحظات ٠

شريفة فتحي

القاهرة



النتاج الجديد

فلسطين في شعر محمود الروسان (١)

بقلم
يوسف حسين بكار

محمود الروسان شاعر اردني يمكن اعتباره من شعراء الحماسة أو من الشعراء الفرسان كالشاعر المرحوم محمود سامي البارودي والامير عادل ارسلان ، وفي الاسواق الآن ديوان شعره الاول (على دروب الكفاح) وهو وان كرس اكثر من نصف الديوان لفلسطين ونكبة فلسطين الا أنه لم ينس كفاح العرب في شتى اقطارهم فلا عجب اذن ان يسير الشاعر على أكثر من درب ولا عجب ايضا ان تكون حماسة الشاعر متدفقة وعاطفته قوية جياشة تجاه فلسطين ونكبة أهلها بعد ان شارك بنفسه في الحرب الفلسطينية عام ١٩٤٨ في معارك (باب الواد واللطرون)(٢) التي كان لها اكبر الاثر في نفس الشاعر وهي نفسها التي أوحت له بهذا الشعر المتدفق وجعلته يشدو به . يقول :

« لطرون » اروع فتكة بل صرخة العزم المجلوب(٣)
لولاك أنت لما شدوت وجدت بالشعر الخصيب
فلأنت مفخرة الحروب ، وجذوة الثأر المصيب

والشاعر الى جانب هذا مؤمن بمبدأ وعقيدة يعمل بوحي منها ، اسمعه يقول :

ما العمر الا مبدأ وعقيدة من عند واح(٤)
والعمر لا يحلو اذا ما زانه طول الكفاح(٥)

واذا ما حاولنا أن نطبق ايمان الشاعر فيما يذهب اليه على قضية فلسطين نجد شعرا حيا ينبض بالصدق والعاطفة ويصور مختلف ابعاد القضية الفلسطينية . ينقلنا الشاعر في ديوانه من موضوع الى آخر يعبر في كل موضوع عن نفسية عاصرت النكبة وشهدت احداثها وشاركت فيها ،

واول ما نشير اليه منزلة فلسطين عند الشاعر فهي قلب العرب وهي أمه وأبـوه :

ما فلسطين سوى قلب العرب(٦)
وهي نجم وضياء ما احتجب
وهي عندي يا اخي أم وأب

ويذهب الى اكثر من هذا عندما يقول انها قسمه بعد قرآنه :

في فؤادي من فلسطين نغم(٧) ...
وهي عندي بعد « قرآني » قسم

واما أهل فلسطين فهم أهله وصحبه ورفاقه ، يقول :

انهم اهلي وصحبي والرفاق(٨)
في كهوف وخيام لا تطاق
انه الشعب وفي الشعب احتراق

وينتقل الشاعر الى موضوع آخر حيث يحدثنا عمن هم الصهاينة وعما فعلوه بفلسطين واهلها وما ارتكبوه من جرائم الاستباحة والافناء فيقول :

هم حثالات شعوب شردت وبقايا طغمة صارت ذئابا(٩)
سكنوا بيتي وبستاني الذي ضم امي وابي والجد شابا
واستباحوا حرمة الدار وفي ساحها افنوا بلا عطف رقابا
وأماطوا عن خفايا قصدهم حينما انقادوا ، لثاما ونقابا

ويقول في مكان آخر :

طغمة من قوم « صهيون » طغت وهي ضمت كل غدار عنيد(١٠)
وسبتنا موطنا عشنا له وتراثا صانه عزم الجدود
ورعيناه ، وفي احضانه كم تغنينا ، وجدنا بالقصيد

ويحدثنا الشاعر حديث الواثق المطمئن ان اسرائيل ليست وحدها في الميدان وانما الاستعمار كله من وراءها يساعدها ويساندها ويقف الى جانبها فيقـول :

ان كان صهيون في التاريخ محتقرا وضل في القفر في بيداء كفران(١١)
فتلك يا صاح امريكا له سند وتلك باريس في العدوان برهاني
وتلك لندن من احقادها هرعت في البر والبحر ، في اجواء شرياني

وفي قصيدة الشاعر (في ذكرى التقسيم) ما يثير حماسة القارىء ، ويؤجج نار الحقد في صدره ، ففي هذه الذكرى المشؤومة التي تحل في كل عام صور ومآس جمة من خزي وعار وجراح وخيام ، يقول الروسان :

قيل ذكرى ، قلت في الذكرى البلاء(١٢)
وبها خزي ، وعار واعتداء

واقتطـــاع من تراث الانبيـــــاء
وحطـــام وخيــــام واســتياه
وشـــجون وتأســـي وفنـــاء ....

غير ان هذه الذكرى - على ما فيها من ألم ولوعة - دعوة نداء مجلجلة وحافز ثار قوي وصوت هادر يدعو الاوفياء لطرد الدخلاء ويستصرخ الامة لبذل الغالي والنفيس وتقديم الارواح قرابين فداء لفلسطين :

قيل ذكرى ، قلت في الذكرى النداء(١٣) ...
وهي صوت الحق يدعـو الاوفيـــاء
انهـا تدعـو لطـرد الدخـلاء
وتنـادي أمـة تهوى الفـداء

ولا ينسى الشاعر في هذه القصيدة وعد « بلفور » المشؤوم فيقول فيه :

ايـه « بلفـور » يـا وعـد العـداء
يـا رحى الشـؤم بارضي والسـماء

وتقود الحماسة واللوعة الشاعر الى أن يعبر عما في هذه الذكرى من الم واعتداء منددا بموقف « هيئة الامم المتحدة » من قضية فلسطين ، فيقول :

عـادت الذكـرى وفي الذكـرى ألم(١٤)
وانتهـاك للأمـاني ... للقيــم
واعتــداء صــارخ مر ودم
وانتقـام انطق الصخر الاصم
صاغـه الغـدر وغنتـه الامـم
قررتـه هيئـة منـذ القـدم ...
هيئـة قد أجرت فيهـا الذمـم
هيئـة الوهـم وبرهـان النقـم
خيـم الحقـد عليها ... واحتـدم
وبهـا العـدل تلاشـى وانعـدم
وشـكا الحـق واغضى وانهـزم

ولكن هل نسى الشاعر « مجلس الامن » ؟ انه لم ينساه ، فنعته بما يستحق ووصفه بما يستأهل ولنترك الشاعر نفسه يقول له :

مجلس الامن دع الشكوى ونـم(١٥)
وتـأدب .... أو تراجع فـي نـدم
أنت حكمـت ويـا بئـس الحكـم
أنت اجحـاف .. ومسـخ ونهـم
أنت فأس بيد الباغي .. القـزم
وسـلاح في ميـادين التهـم

كل هذه المآسي والذكريات التي رددها الشاعر بنغم حزين مؤثر وبنفس ثائرة مؤمنة تجعله يضيق ذرعا ويجأر بأعلى صوته قائلا :

وضاق الكون من سقمي وحـــزني وجرحي ليس ينفعه الضمـــاد(١٦)
فـــلا هنـــد المليحـــة لي دواء ولا ليلى الحســـان ولا ســـعاد
سباني المجرمـــون حصاد زرعـــي وفردوســـا يحـــررها الجهـــاد
فلا الهيئـــات تحفظ لي حقوقـــا ولا الانـــات يبرئهـــا الرقـــاد

ويتساءل الشاعر بغضب ونقمة ولسان حاله يقول : الام هذا الهوان ؟ والى متى نبقى مشردين تظللنا الخيام ؟! أما لهذا الليل من آخر ؟ أما آن لليل ان ينجلي وللقيد أن ينكسر ؟ اسمعه يقول :

فهـــل نبقـــى تظللنـــا خيـــام وفي « يافا » قصورهم تشـــاد
و « حيفا » اصبحت للغدر بيتـــا واعدانا على المنيـــاء ســـادوا
ونحن الكهـــف مسكننا وفيـــه ينهبنا بمسكننا الحيـــاد
ومليـــون مـــن الارواح منـــا على جمر الغضـــا نزلوا وشـــادوا

وعلى هذا فان الشاعر الروسان ـ كما يبدو من شعره ـ من الدعاة الاوائل لتحرير فلسطين وصوته لا ينفك يرتفع عاليا في كل قصيدة يذكر بدنو موعد الثأر ويدعو الى تجديد العزم لتخليص فلسطين · فيقول :

يا رجـــالات اعملـــوا واســـتعدوا بشمم(١٧)
واجعلوا العليـــا لكـــم كلمـــا الخطـــب ألـــم
ها هـــو النـــور بـــدا وبـــه خـــاق الحـــكم
موعـــد الثـــأر دنـــا وتهاوى من ظلـــم ···
يا اخـــي يا ابـــن الفـــدى يا رفيقـــي لا تنـــم

ويقول من قصيدة أخرى :

يا بني العـــرب وآســـاد البطـــاح(١٨)
يا حمـــاة الدار ، والحق الصـــراح
هتـــف الـــداعي وناداـــنا الســـلاح

ويقول ايضا :

جـــددوا العـــزم علـــى مـــر الدهـــور(١٩)
واستمدوا الحـــزم من ماضـــي العصور
وادفعـــوا للثـــأر فرســـانا تثـــور

ويرحب الشاعر في قصيدته (كيف ننسى) بالموت من أجل الوطن ما دامت العلياء فيه السببا فيقول :

مرحبـــا بالموت من أجـــل الوطن(٢٠)
عنـــد خـــط النـــار في احـــلى سكن

كما ان الشاعر مؤمن بالجولة الثانية على وهاد فلسطين في موعد قريب يكون فيه النصر المؤزر الاكيد وانتصار الحق على الباطل فهو مؤمن بأن :

لابد من نار ونـــور(٢١)
لابـــد من اسد تثور ···
لابد من نـــار ونـــور

تجتث فلســفة الغــرور
وتفت مـا ارتكـب الفجور
وغـدا ستنطلق النســور
لتحقق الامــل الكبــير

هذه هي الجوانب البارزة فيما يتعلق بفلسطين والتي عالجها السيد الروسان في ديوانه « على دروب الكفاح » والامثلة عليها كثيرة في شعره غير انني آثرت ان لا اورد منها الا ما يفي بالغرض من جهة ويتناسب مع طبيعة المجلة وامكانياتها من جهة أخرى ، ولا يفوتني أن أشير الى ان في الديوان قصيدة طويلة(٢٢) يمكن ادخالها في باب المطولات عنوانها (اعوام النكبة) حيث استعرض فيها الشاعر اعوام نكبة فلسطين السبعة عشر (١٩٤٨ـ١٩٦٤) واحدا واحدا وهي وحدها جديرة بالدرس والتحليل ولكن ليس في المجـال اتساع ، ومهما يكن فان القصيدة في مضمونها العام لاتخرج عما أسلفنا اليه من شعر الرجل في فلسطين ٠

---

(١) محمود الروسان شاعر أردني معاصر ٠ ولد في قرية (سما الروسان) من لواء اربد عام ١٩٣٢ ، انهى دراسته الثانوية في بلاد الاردن ثم سافر الى الولايات المتحدة الامريكية حيث اتم تحصيله العالي متخصصا بالعلاقات والمنظمات الدولية بالاضافة الى انه يحمل شهادة (ركن) من انكلترا - انخرط في سلك الجندية وتدرج بالرتب العسكرية حتى بلغ فيها شأوا بعيدا وشغل عدة مناصب عسكرية داخل الاردن وخارجه كما انه شغل وظائف مدنية ايضا وهو الان مدير لاحدى الشركات الاردنية ٠ شارك الشاعر في مؤتمر الادباء العرب الخامس ومهرجان الشعر السادس اللذين عقدا في بغداد في شهر شباط المنصرم لعام ١٩٦٥ ٠

للشاعر مؤلفات مطبوعة واخرى معدة للطبع اما المطبوعة غير ديوانه « على دروب الكفاح » فهي : أ ـ معارك باب الواد واللطرون ٠ ب ـ تدويل القدس (بالانكليزية) ٠
اما المؤلفات المعدة للطبع فهي :
أ ـ افكار في التربية القومية ٠ ب ـ عصارة روح (ديوان شعر) ٠

(٢) سلسلة من المعارك خاض غمارها الجيش العربي الاردني عام ١٩٤٨ وقد اشترك فيها الشاعر نفسه ٠ و « لطرون » موقع تاريخي قديم هام يقع على الطريق المؤدية الى القدس ٠

(٣) الديوان « على دروب الكفاح » طبعة دار الايتام الاسلامية الصناعية ٠ القدس ، ١٩٦٤ ، ص ٤٤ ٠ (٤) اي الله سبحانه وتعالى ٠

(٥) الديوان ص ٥١ ٠ (٦) الديوان ص ٩٢ من قصيدة (كيف ننسى) ٠

(٧) الديوان ص ٩٦ ٠ (٨) الديوان ص ٩٣ ٠ (٩) الديوان ص ٨٠ ٠

(١٠) الديوان ص ١١٧ ٠ (١١) الديوان ص ١٠٢ ٠ (١٢) الديوان ص ١٧٦ ٠

(١٣) من القصيدة نفسها ص ١٧٧ ٠ (١٤) الديوان ص ١٨١ ٠

(١٥) الديوان ص ١٨٣ ٠ (١٦) الديوان ص ١٩٤ ٠ (١٧) الديوان ص ٣ ٠

(١٨) الديوان ص ٩١ ٠ (١٩) الديوان ص ٩١ ٠ (٢٠) الديوان ص ٩٢ ٠

(٢١) الديوان ص ٢٦ من قصيدة (لابد من نار ونور)

(٢٢) تراجع القصيدة في ديوانه ص ١٣٤ ـ ١٥٠ ٠

حول ديوان « المثاني » لمحمد الهاشمي

بقلم : شريف الربيعي

اقطع رجاءك يوم الضيق من بشر　　فالله يمنعنا والله يعطينا
ان نسأل المرء خبزا يعطنا حجرا　　أو نسأل المرء ماء يعطنا طينا

يصح أن تكون دخولا لفلسفة أو موقف من الحياة فيه اعلاء لمثل دينيه وروحيه وفيه تجسيد لغايات طبعت تعاليم الدين الاسلامي العظيم • ومهدت لقيمه العظيمة اكتساح حماقات الجزيرة وتقاليدها الجاهلة • ها نحن نطل على تجربة شاعر ، نقف عند ايمان شاعر • البشر عنده غير قادر على العطاءاو هو يعطي غير ما يطلب اليه أن يعطيه أو هو يقدم اللانافع ويحتكر الانفع • ولعل تفضيل الجانب الديني من الديوان شعور بأنه الاحق بالتقديم والعرض والتحليل والديوان موضوعنا هو (المثاني) للشاعر محمد الهاشمي • (والديوان جمع مثانيات كان البدء بها في عام ١٩٣٠ والانتهاء منها في عام ١٩٥٥ لم يقصد بهذه المجموعة شخصا أو جماعة معينة انما قصد بها الاصلاح والتقويم في الجد والهزل والانتقاد والمصارحة في مبادىء نهضة كانت تبنى عليها أماني وآمال) مقدمة الآنسة ـ أميمة الهاشمي ـ ابنة الشاعر (أما ديوان المثاني هذا فقد ضمنه ٢٤١٧ مثناة أي ٤٨٣٤ بيتا ضمن كل بيتين منها غرضا مستقلا وقد نحا في ذلك منحى المعري حينا والخيام حينا فكأنه أراد أن يكون بذلك معريا آخر) مقدمة الدكتور مصطفى جواد ومحمد بهجت الاثري •

والهاشمي رجل اشتغل بالقضاء والتدريس • نشر ديوانا في شبابه وكتب عن المعري وسرق الناشر المخطوطة • وترجم رباعيات الخيام شعرا • وطبع مسرحية أسطورية شعرية (سميرأميس) وأصدر مجلة (اليقين) ببغداد وحقق ديوان عبدالله بن الدمنيه ونشره وهو برغم توديعه الستين من السنين ما ينفك دؤوبا على الكتابة والتاليف والترجمة من الفارسية وهو بصدد طبع كتاب جديد - قد يكون اسمه (اللغة في القرآن) وديوانه المثاني طبع بمبادرة ومساعدة من المجمع العلمي العراقي • ويقع في أربعمئة صفحة من القطع الكبير ومقسم الى أبواب كل باب يحمل عنوانا وتنضوي تحته مضامين موحدة • ومن بابه الاول بعنوان (الاله الذي لا ينسى) ثبتنا مفتتحا مثانيته التي تفصح عن يقين فلسفة الشاعر والتزامه الجانب الديني في الحياة • حتى أنني لا أبدأ تحليلا للشكل الشعري الذي أعتمده الشاعر في طرح قضاياه وكل قضية في مثانيه وكل مثانية شرح لقضية ولم يعتمد

بحرا واحدا وانما كان يتنقل بموسيقى ابياته بقدرة القادر على العطاء . ولا أحسبني محاولا الاطراء . وفي الباب الاول نسمع :

أرى لا شـيء يعلـم كل شـيء   سـوى الشيء الذي ابتكر الخليقـة
عليـه تدلني الاشـياء طـرا   ومنهـا النفس مني والسليقة

ثم أنه يستطيع بهدوء لا يفتعله أن يبرز حقيقة ايمانه بالخالق العظيم وهو من خلال الاشياء يستقطب اليقين والايمان وتدعم كل هذا نفسه والسليقة ان الاختزال الرائع الذي لجأ اليه الشاعر في شرح أغراضه لهو عن صدق يستقصي ادراك نفس شاعرة تعكس بناية ودراية ظرفا يعيشه واحساسا يحمله وأفكارا وقضايا تعتمل فيه ثم نفسا شعريا يحسد عليه .

الباب الثاني بعنوان (الرجل الذي لا عيب فيه) وفيه تعداد مزايا النبي العظيم (ص) صاحب الرسالة الانسانية والثورة الكبرى من أجل الانسان وتوثيق علاقته بخالقه ونقرأ :

لـك صـورة لو مثلت لتخاذلت   عنهـا الظنون وركت الاهـواء
عظمت فخلتنـا مـا أبوهـا آدم   لجلالهـا أو أمهـا حـواء

لا أحسبه شاكا أو في طريقه الى ذلك دفعه لهذا القول عظمة الشخصية وجلال جوانبها ودليلي البيت الاول ثم نقرأ أيضا :

هو الجبل الذي ما زال ثبتـا   على عصـف الزعـازع والرياح
وليس البدر يخسف من ضجيج   وليس الشمس تكسف من صياح

وفي الباب الثالث (الكتاب الفولاذي) حديث عن دستور الاسلام المقدس القرآن وما وجدت في التسمية كثير واقع . فالآية الكريمة تقول (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشـية الله) فهو اذن أعظم من الفولاذ والحديد لانه كلام الخالق . والفولاذ في عصر تفوق الانسان ونجاحه في الصناعة بدأ يحوله الى سائل وهو يصدأ . فالقرآن أكبر من هذه الصفة مع هذا فان ما يميز الشاعر كونه يقول ما يريد لا ما يراد له أن يقول لانه يرسم صورة للاشياء مثلما تنعكس في رؤياه وفي داخله ولانه ينفاعل عفويا وعن قصد مع الاشياء التي تنطبع في احساسه :

رحلت أطلب في الآفاق معرفـة   ان المعـارف فيهـا أرفع الرتب
تلوتهـا كتبـا شتى تلاوتهـا   ولم أجـد ككتاب الله في الكتب

ونقرأ بعد هذا :

أبدا جديد لا يغـير لونـه   دول تـدول وأزمن تنهـار
يغشاك في حلك الظـلام ضياؤه   ويزيح عنك الليـل وهو نهـار

تتجلى هنا روعة الصورة وتنطمس جوانب السطحية والسرد المغلف بالافتعال والتقريرية فكتاب الاسلام العظيم يقف شاهدا يثبت بطلان الدعاوى التي تقول بغزو فكري يشمل اللغة ومنه يخشى على القرآن فالخوف على اللغة من خلال هذا الغزو ترتد ناكصة بما جبلت به من زيف وما أجهضته من تغافل • فاللغة بخير وها نحن نكتب بها مواضيعنا وقصائدنا وقصصنا • والقرآن لم يغير لونه رغم تعاقب القرون وهذا دليل حيويته وعصريته ودليل معجزته ووثوبه الى مستوى القضية التي يعيشها المجتمع الاسلامي ••

يتنازع العالم ثلاث تيارات تطبع جبين الحضارة المعاصرة • والمرحلة التي نعيش وهي امتداد لعين الظروف التي عاشتها المجتمعات من قبل وحتى في بدء نشوئها وهي الدين وما يقدم من نصح وهداية وما يرسم طريقا للاصلاح ونظم العيش وما ينطلق حوله من شكوك وما تبتكره الفلسفة من حجج لدحض ما تريده عكسا لخط مغاير مما يعتمده والسياسة بجوانبها الكثيرة ومفاهيمها الاقتصادية ونظرتها للكون من خلال نظرتها للانسان وما يتحكم بهذا الانسان من استعباد عن طريق القوة وبدافع من منفعة والحرية والاستقلال وتراب الارض وسعادة الوطن في علم يحمل رموز وجوده ويحتضن أحقيته في هذا الوجود • والحب وما ينطوي عليه من غزل وجنس وجمال وشذوذ ومتعة وعذاب وحرمان وخوف مما لا يمكن تحقيقه بالبراءة وخوف مما يجره الانغماس في الشهوة من خطيئة وبحث عن محراب للاعتراف وتكفير الذنب وفي الديوان نجد هذه الخطوط الثلاثة واضحة وان تباعدت في الصفحات ونقرأ :

كل يريد من الحيـاة ارادة   فتناقضت في أنفس رغبات
لو يصدر الدوران عن آرائنا   فسد النظام وعمت النكبات

يستطيع في مثانية أن يغنينا عن كثير سرد وشرح ولكننا نقف عاجزين أيضا أن نوجه العالم لرغبة واحدة أن نقتل هذا التناقض فيه •• لماذا وكيف ؟ يتناقض الناس في مطاليبهم ورغباتهم • ولكن هل يصح أن نصرخ بوجوههم أغسلوا الطموح من رؤوسكم لاتخرجوا أرجلكم على مقياس غطائكم المسألة ذات أبعاد واني مع الشاعر • فلو كان نظام الدوران الارضي والفصول وتعاقبها يسير وفق ما نريد لعمت فيه ظواهر الفساد ولفسد لان لكل منا رغبة ورأيا وما قد ينفعني قد يكون سببا في الاضرار بغيري ــ ثم هو يصب لعنة غضبه على النظم الزائفة التي تحمي المتحكم وتسهم في تمكينه من بسط سلطانه :

لو أن مملكة الجحيم تكونت يوماً لكان لها العراق مكانا
نجد النظام صواعقا في أفقه وتشب فوق أديمه بركانا

ونسمع أيضا :

أعراق ان تنس الجميل فابننا لم ننس أنك لا تزال عراقا
حرمت ساكبة الدموع فلم أرق ولو أن ماءك في الموارد راقا

وأخرى فيها صفعة لبنيه وربما تساؤل عن عراق أصبح مجالا لينتفع به من هم غرباء عن أرضه وسمائه :

ابن العراق يضيع عند عراقه لعن العراق وأرضه وسماءه
بركاته ملك الاجانب حوزة ولو استطاعوا مانعوه ماءه

ويتابع الشاعر صب صروفه الملتهبة نقمة وثورة وغضبا على وضع كان يعيشه مع مجتمعه تحت أسوار الاضطهاد والتحكم .

وسأقدم نماذج أخرى من مواضيع السياسة والوطن لنلمح من خلالها . صدق الثورة في نفس شاعرنا :

لم يبق ما نخشى عليه مصيبة فعلام هذا اللغو والتهويل
لا أرضنا وطن ولا استقلالنا حق ولا ثقة ولا تحويل

صلاح الشرق في أيدي بنيه ذوي الرأي المسدد والكياسة
ولم يفسد نظام الشرق الا مجانين السياسة والرياسة

مرضى السياسة لا علا ج لعلة المرض السياسي
متم فكيف رأيتم ... موتى السياسة في القياس

يقول بجرأة المفصح الذي يبتعد عن الدوران خشية أن يتحمل تبعات قوله . حان وقت الغاء عبارة (المعنى في قلب الشاعر) فالشاعر والشعر في أيامنا هذه في قلب المعنى ووجها لوجه أمام تنين الحضارة حاملا أداة دفاعه قلمه من أجل أن يصمد ومن أجل ان يحيا كريما من خلال صموده وما قعس شعرنا العربي موقفا عن خوض المعركة مذ كان الحرف سيفا ولسان الشاعر جبهة وحتى في عصرنا وهو ما ينفك رافعا راية المروق والثورة على كل ما يراد فرضه عليه ومن خلال فرضه على أمة ومجتمع يعيش فيه . ان ما حدث فعلا هو ان الشاعر تلاقح فكريا وكليا مع أحداث بلاده وكاحساس مرهف ووعي للمسؤولية بحق . فانه أعطى صورة عن الاستقلال والاستعباد كشف فيها سوءة المستغل وألب فيها المستغل على الوثوب والتحفز لاستلاب حقه المستلب . والهاشمي كان في المعركة ولكن ما تهيأ للرصافي لم يتهيأ له . لم يستخدم من اللفظ ما هو مباشر لجأ الى القول المعكوس انه أراد شيئا آخر غير الذي نحسبه يريده . يضع النقيض ومناقضه ويظل رافعا

يبرق انتصاره على جبروت الحرف وسلطان اللغة ومن هنا فقد جاءت كل مثانيه .. بحدين وكل حد لاهب وفيها برهان قوله :

صلاح الشرق في أيدي بنيسه ... ذوي الرأي المسدد والكياسة
ولم يفسد نظام الشرق الا ... مجانين السياسة والرئاسة

النتيجة والسبب الغاية والوسيلة .. المريض ودواءه المعركة ونتائجها .. لا أترك باب السياسة في ديوان المثاني دون القول أن في الديوان ما هو دليل على أن الهاشمي لسان ثورة ويقظة فكرة استوعبت بعمق مهمة الشاعر كطرف في معركة بلاده ضد قوى السلطان وجبروت الحكم الغريب . فترك لقوافيه مجال تمدد ترك لها أن تكون سياطا تلهب وجه الاستعمار والملوك الخونة ولو قال بعد هذا لقال خيرا مما قال وأجرأ منه. وفي باب الغزل والحب والجمال يترصد الشاعر وجها جديدا للحرف .. فالحرف يقطر طهارة وشهوة وغزلا مفضوحا في حين لا يكون متبذلا ولا مسفا .. انه يلبس القافيه شكلا عاطفيا ينضح بالرغبة وأشياء أخرى :

هاجت حرارة راحتيك حرارة ... في القلب تسعر من وراء الأضلع
خجل صبابتها فحمرة خدها ... طلعت ولولا نارها لم تطلع

مشت صور الخيال بذات نفسي ... وفاضت في فيض دم الوريد
ولو حمل البريد فؤاد صب ... بعثت اليك قلبي في البريد

أحسست متعة في هذه المثانية وغرابة في الشوق واندفاعا في الحب . أما ان تكون الصورة عتيقة أو أنها مكرورة فهذا ما قد يجعلني أصدق بعدم تحمسي لمثل هذه المضامين في الشعر الرومانسي ... كما انني لا يمكن أن أقبل قوله :

لست السعيد مع السعيد ... أنا الشقي مع الشقي
وبي الشذوذ من الغرام ... عشقت من لم يعشق

واذا كان لابد له ان يقول غير ما قاله هنا فاننا نقرأ له :

ذاك برائحة الانوثة صدرها ... ملء المكان عبساقة وأريجا
اغنى شذا النهدين فوح عبيرها ... والوجنتين كفاهما تضريجا

وبعد فان في هذا الباب ما هو كثير وخطير أحجمت عن ايراد نماذج أخرى . بقي قول أصحاب المقدمة أن الشاعر ذا نهج صوفي فاني لا أقره ولا أجد فيه كثير صواب وعن كونه يقلد المعري أو الخيام فهو هجاء بلغة الاطراء فالشاعر له صورته . وهو يختلف عنهم جميعا ، له أغراضه ومراميه له تجربته فهو ان قلد المعري أو الخيام كان مقلدا انعدمت فيه الاصالة وهذا ما لا نرضى له أن يكون حقيقة . أقول هنا ان الدكتور يوسف عزالدين

كتب عن الديوان في مجلة المجمع غير الواسعة الانتشار ولم يتسن للكثير من القراء أن يقفوا عندما ورد في كتابة عزالدين وبعد هذا فان الديوان لم يجد من عناية النقد ما هو جدير به • وأنا بكلمتي البسيطة هذه مـا وجدت أني قد وفيت حقا تجاه الشاعر والديوان وثقتي أن أقلاما خيرة كثيرة ستكتب عن شاعر بعيد عن صخب الالقاب يكتب بدافع من ايمان بقضيته ولصالح ما هو منفتح عليه من عوالم التجربة وعذرا للشاعر ان كنت قد ابتعدت عن الاكثر في الصراحة والاجرا في النقد •

جولة في رياض الشعر بين دفتي ديوان

بقلم : صادق آل طعمة

صدر حديثا عن (دار مكتبة الحيـــاة ببيروت) ديوان قيم للشاعر الكبير العلامة الشيخ عبدالحسين الحويزي بتحقيق الشاب الفاضل الاديب (حميد مجيد هدو) وتصديره ، مع مقدمة ضافية للاديب البحاثة الـكبير الاستاذ علي الخاقاني •

كان الحويزي الى جانب كونه عالما دينيا •• يعتبر من أبرز أقطاب الفكر في العراق ، ويلتقي بألمعيته في القمة مع الطلائع النيرة من فطاحل الادب العربي ، وعباقرة شعرائنا العرب المعاصرين في خضم القرن العشرين ، وقد عاش زهاء ثمانين عاما خدم خلالها الادب خدمة صادقة وشارك المجتمع في آلامه وآماله مشاركة وجدانية منبعثة عن الشعور الانساني والضمير الحي وتفاخر بأمجاد أمته العربيـــة واعتز بتاريخها المجيد ، وتغنى بحضـارتها الزاهرة ، وقد ازدهرت الحركة الادبية في كربلاء بوجوده فترة طويلة من الزمن كنا خلالها نروي غليلنا من منهله الصافي ، ونرتشف من رحيق أدبه وشعره كؤوساً كانت تنتشي بها أرواحنا ، وما زالت تلك الذكريات الخالدة نصب أعيننا • وألحانا تنساب على شفاهنا •

ويمتاز شعر الحويزي برصانة الاسلوب وقوة البلاغة وعمق الفـكرة وجمال الديباجة وعذوبة البيان وحرارة العاطفة المتأججة ، ورقة الاحساس وسلامة الذوق ، والمعاني الرائعة رهن اختياره ، والقوافي والاوزان الموسيقية النغم طوع ارادته ورغبته ، وشعره كذلك انساني الطابع والهدف في مختلف أغراضه وأبوابه وآفاقه الرحبة التي يحلق فيها على متن شاعريته القوية في أقصى حدود القوة ، وينطق لك بقدراته الفنية ومهارته وحذقه وفرط ذكائه وموهبته التي لا تجارى ، وملكته التي لا تبارى ، وقريحته التي تشبه المعين الفياض بالسلسل العذب الرقراق •

وقد حفل الديوان فيما حفل بين دفتيه – من أبواب الشعر – بقصائد عدة استوحاها من قضية (فلسطين) التي أطال فيهـا الوقوف وكأن بين أضلعه (جمر الغضا) منها قصيدته (نهضا بني العرب) وهي تعبير صادق عن ألمه الممض وكآبته التي انطوت عليها نفسه من جراء هذه المأساة التي جرحت شعور العرب جميعا ، فتراه يستنهضهم للثأر من الصهاينة المجرمين واسترجاع الجزء السليب من الوطــــن العربي الكبير ولله دره فيما يقول مخاطبا أمته العربية مع فخره واعتزازه بها :

نهضا بني العرب للعلياء والشرف ... فانتم الخلف الباقي من السلـف
وانتم كبدور التم قد لبســـت ... برد السنا وغدت متروعة الكلـف
وانتم الجـــوهر الغالي بقيمتــه ... بالسوم يقصر عنه لؤلــؤ الصدف
ابناء يعرب هبــوا عن مضاجعكم ... من ركب صهــوة العليا ومرتـدف
هذي (فلسطين) لا طابت حياتكـم ... ان لم تسوقوا لها الارواح بالتلف

وقد خالف (الحويزي) معاصره نابغـــة العراق العّبقري (معروف الرصافي) في وجهـــة نظره في الحرية السياسية مع العلم أن له كناية من السخرية بالحكام المستبدين في تلك العهود البائدة هي أبلغ من التصريح في مقطوعته التي يقول فيها :

يا قوم لا تتكلمــــوا ... ان الكــلام محـــرم
ناموا ولا تستيقظـــوا ... ما فــاز الا النـــوم
وتأخروا عن كل مــا ... يقضي بأن تتقدمــــوا

فكانت وجهة نظر الحويزي صريحة حذر بها الشعب من السكوت بوجه اولئك الحكام ، وحثه على مطالبتهم بحقوقه المشروعة التي يجب أن يتنعم بها وان السكوت سبب لضياع تلك الحقوق ، فاستمع الى صرختــه الوطنية في حقل الحرية والسياسة ثم قارن بين الرأيين وفضل أيهما شئت :

يا قوم ان تتكلموا .. ... بحقوقكم تتنعمـــــوا
واری السکوت یضیعها ... أن الحقوق لها فــم
فتكلمـــــوا ببلاغـــة ... منهـا الصـــدور تكلم

وقال في قصيدته (عودة سعيدة) يمدح بها المرحوم السيد محمدحسن آل ضياء الدين سادن الروضـــة العباسية بمناسبة عودته من (ايران) الى أرض الوطن وكان من المـــع الشخصيات الكربلائية الفذة كريما مضيافا محبوبا ذا هيبة ووقار وقد تغنى الشاعر بصفاته النبيلة هـــذه على إيكة مديحه هذا :

تهلل الشعب بشرا وازدهى الوطن ... غداة وافى الزكـي المجتبى الحسن
والعصر راح لعصر الراح مرتشفــا ... وماس نشوان من افراحــه الزمــن

زمنه روح المعالي بالهدى نشأت. فظل منتعشاً من روحها البدن
جاء الذي ما رأت عين الوجود له مثلا ولا سمعت يوماً له أذن

وقال في رثاء المرحوم الشيخ عبدالكريم زعيم عشيرة (آل عواد) وكان من رجالات ثورة العشرين في كربلاء :

ان تقض يا عبدالكريم كريماً فلقد وردت الخلد و (التسنيما)
وحللت من غرف الجنان منازلا زهرت لاجلك نضــرة ونعيما
والشعب يشهد كان شخصك في الوغى بطــلا يعسه ببأسه معلوما

وكم أود لولا ضيق المجال أن أطوف في رياض شعره الغناء بين دفتي ديوانه لأقتطف لك متنوعات من ثمارها اليانعة ، وباقات خلابة من أزهارها العابقة لتنتشى بها روحك ، وحسبك هذه الخريدة المعطارة من الغزل الطافح بالحب والغرام وفيه لغة خاصة لا يفهمها الا القلب الواله ، وألغاز مطلسمة لا يستطيع حلها وتفسيرها الا الشعور التائه في فلسفة الجمال ومفاتنه ، فاقرأ معي :

بيــاض بخدك ذو حمــرة أمن فضة صيغ أم من ذهب
على صفحتي عارضيك الجمال من النور اسطر حسن كتب
نظرت اليــك فارديتنــي وعيني كانت لقتلي سبب

ثم انظر ... ألا يسر روحك وقلبك أن يطربا معا ويهتزا شوقا ، وأن يتراقصا لعــذوبة هذه الأغاريد ...؟ وكذلك تأمل معي : كيف يكاد جمال قول الشاعر هذا أن يسمو الى جمال الوجه الذي تغزل به حيث نسبه الى (يوسف) في حسنه البارع وجماله الفريد في دنيا البشرية ، فهيا نقف أمام هذه القطعة الفنية الزاخرة بروعــة التعبير ونردد معا : سبحان الذي يلهم الشعراء ويهبهم الملكات ويفجر فيهم الطاقات والعبقريات :

بشراً خلقت ونور وجهك لي ملك والحب في تسليم قلبي أملــك
شاهدت طرفك شاكيا بسلاحــه فعرفت انك قاتلي من غير شك
أفريد أهل الحسن (يوسف) نسبة آخاك من طرف المحاسن فاشترك
عشقت (زليخا) منه طلعــة نير ضاهي سنا الزهر الثوابت في الفلك

وختاما : لا شك أن ديوان الحويزي ـ وهو يطل اليوم على عالم الادب من افق الفكر العربي المشرق ـ قد لاقى في الاوساط الادبية في العراق وسائر الاقطار العربية من الاقبال والاعجاب ما ليس ثمة من شك في ذلك ، واننا نأمل أن تصدر بقية أجزائه الخطية وهي (١٥) جزءا التي تنتظر الجهود لتخرج الى عالم النور بمساعي صديقنا الاستاذ حميد مجيد هدو الذي لم يأل جهدا في هذا السبيل ومن الله التوفيق .

●

اضواء على السياسة العالمية

السياسة الداخلية

ليس من شك في أن الرغبة الاكيدة التي اظهرتها الحكومة الوطنية في احلال الامن في ربوع الوطن تقابل بارتياح بالغ من اخواننا الاكراد الذين قاسوا من العصابات المجرمة الوانا من الغدر والتعسف ، ومن هنا برزت الاعداد الكبيرة من المواطنين والتي كانت تخضع لنفوذ هذه العصابة فاعلن عدد كبير من المغرر بهم ندمهم حينما شعروا بالحماية الحقيقية التي اولتها الحكومة لهم وحينما شعروا ان الحكومة تسهر على مصالحهم ومصالح عيالهم دون انتقام .

والحكومة احسنت صنعا حين فتحت الباب امام هؤلاء ووضعت الضمانات لهم في عودتهم الى اعمالهم لتضمن لهم العيش الكريم ، عيش الطمأنينة والاستقرار لا عيش التشرد والنهب والسلب التي يمارسها نفر من الزمرة البارزانية بغير وازع من ضمير او دين .

ان القوائم التي نشرتها السلطة الوطنية باسماء هؤلاء تدل على الاستجابة التامة لنداءات الحكومة ورغبتها في عدم اراقة الدماء ، شعورا منها بأنهم مواطنون وقعوا تحت طائلة الاغراء والضغط .

وتدل هذه القوائم كذلك على ان الاستقرار يعود الى شمال الوطن سريعا بسبب وعي ابناء الشعب وكشفهم لألاعيب الاستعمار وخططه وتدل كذلك على ان الوحدة الوطنية امر لايمكن ان تنفذ منه الخطط الاستعمارية، ولا يمكن ان يكون على ارض الوطن مكان لانفصالي عميل او قاطع طريق

السياسة العربية

احداث الجزائر والمؤتمر الاسيوي الافريقي

بينما كانت الاستعدادات قائمة على قدم وساق في الجزائر تهيىء للمؤتمر الاسيوى الافريقي الذى كان من المقرر عقده في العاصمة الجزائرية في نهاية شهر حزيران واذا بالانباء تشير الى انقلاب يقع في القطر الشقيق استهدف الاطاحة بالرئيس احمد بن بله رئيس الجمهورية الجزائرية .

وقد اشارت الاخبار الاولية الى ان وحدات من الجيش الجزائرى احتلت

قبيل الفجر المباني الرئيسية في مدينة الجزائر بما فيها مقر رئيس الجمهورية والمطار ومحطتي الاذاعة والتلفزيون ودائرة البريد . ولم تشر الانباء الى مصير الرئيس ابن بله بل اكتفت بالقول ان بومدين هو الذي قاد الانقلاب ضد الرئيس الجزائري وترد اسم بوتفليقة وزير الخارجية كعضو فعال ومتحدث باسم الانقلاب الجديد .

لم يكن الحدث الذي وقع في الجزائر بالامر الهين بل استأثر ذلك باهتمام الاوساط السياسية في جميع انحاء العالم وبخاصة انحاء العالم العربي وعلى الاخص القاهرة وبغداد .

وكان من نتيجة ذلك ان ارسل الرئيس جمال عبدالناصر نائبه الاول المشير عبدالحكيم عامر الى الجزائر في اليوم الثاني ليطلع بنفسه على حقيقة الامر في القطر الشقيق وقد رافقه في زيارته السيد محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام القاهرية .

والذي رواه الاستاذ هيكل في حديثه عن الاحداث يتضح منه ان خلافا شخصيا وقع بين الرئيس ابن بله وبين بومدين وبوتفليقة وجماعتهما كما ذكر بوتفليقة نفسه حين قال موجها حديثه لهيكل :

« هل هناك خلاف بيننا في السياسة الافريقية .. في السياسة العربية .. في سياسة عدم الانحياز . اين الخلاف .

لم يكن هناك بالقطع خلاف في السياسة . ولكن الخلاف كامن بيننا . هو (يقصد ابن بلة) يريد الخلاص منا . ونحن اصحاب الحق في الثورة والمناضلين الحقيقيين للكفاح » .

ثم ذكر بوتفليقة كما روى هيكل بعض الامور التي لاتستحق ان تذكر على أنها اسباب حقيقية للانقلاب على الرئيس ابن بله والاطاحة به .

وعقب هيكل في آخر مقاله الذي سرد فيه الوقائع سردا بقوله : « ومهما قيل في أمر الانقلاب وفي اسبابه ونتائجه فلاشك ــ وهذه حقيقة لايمكن ان تغيب عن بومدين ــ في ان مغامرته سوف تكون هزة لهذه القوى كلها .

هزة للجماهير الجزائرية . وهزة للشعوب العربية وهزة على المستوى الاسيوى الافريقي قد تطيح بالمؤتمر كله » .

وفعلا فقد كانت المغامرة هزة للجماهير الجزائرية قسمت شعب الجزائر الى مؤيدين للنظام الجديد ومعارضين وفتحت بابا أمام خصوم ابن بلة للطعن والتشهير مما لايشرف العهد الجديد بأي حال من الاحوال وقد يعرض المكاسب الثورية في الجزائر الى الاخطار وبالتالي يعرض وضع الجزائر الى عدم الاستقرار ، والجزائر في حالة هي أشد ما تكون الى الاستقرار والبناء .

وكذلك كانت المغامرة هزة للشعوب العربية التي اقترن اسم ابن بلة لديها بكفاح طويل ضد الاستعمار واصبح الرئيس الجزائري رمزا للبطولة والتضحية لدى الاحرار في كل مكان ولا يمكن للشعب العربي ان يستسيغ ان خلافا شخصيا (كما يذكر بوتفليقة) يطيح بهذا الرمز الذي شهدت

اليه قلوب الملايين من ابناء الامة العربية في كل مكان ٠

وكذلك كانت المغامرة هزة على المستوى الآسيوى الافريقي فقدأطاحت بالمؤتمر الذي كان عليه ان ينعقد في القطر الجزائري فتأجل المؤتمر على الرغم من الحرص الشديد الذى ابدته الحكومة الجديدة لانعقاده وفي هذا خسارة كبيرة وصدمة للنظام الجديد على المستوى الاسيوى والافريقي ٠

الرئيس ابن بلة

على الرغم من التأكيدات التي قطعتها حكومة الانقلاب الجديد في الجزائر بأن الرئيس ابن بلة مايزال حيا وهو يتمتع بصحة جيدة ، فان كثيرا من الاوساط السياسية في العالم تشعر بالقلق على حياة ابن بلة ٠

ومما تذكره تلك الاوساط أنها لاتستطيع ان تجد تفسيرا لاصرار الحكومة الجديدة على اخفاء الرئيس ابن بلة ــ ان كان مايزال على قيد الحياة ــ لان الحكومة الجديدة من صالحها تماما ان تبرز المحافظة على ابن بلة مؤيدة بدليل مادي واقعي مادامت تدعي أنه موجود ، وكان بامكان هذه الحكومة ان تطلع المشير عامر او غيره من وزراء الخارجية مثلا على مكان الرئيس الجزائرى دون حاجة الى زرع الشك حول مصيره ٠

وبعض الناس يفسر ذلك بأن الحكومة الجزائرية ستتصرف بالرئيس ابن بلة بالشكل الذى تمليه الظروف والتطورات في الجزائر ، وعلى كل حال فالحكومة الجزائرية مطالبة الان بعد ان قطعت على نفسها ان ابن بلة مايزال حيا ــ مطالبة بالمحافظة على حياته والا فانها ستفقد كل ثقة من انصارها او اعدائها على السواء ٠

كلمة اخيرة

ان الثورة الجزائرية ثورة المليون شهيد ستعيش مهما بلغت الاختلافات بين الاشخاص والشعب الجزائرى الذى قدم الضحايا الكثيرة في سبيل العيش الكريم لايمكن ان تثنيه عن مسيرته خلافات شخصية وخصومات حول زعامة او منصب ٠

ان الشعب الجزائري اليوم مدعو للمحافظة على مكاسب الثورة واستمرارها وصيانتها من الانحراف عن الخط الاشتراكي العربي وليس مهماً عنده ــ ما دام الخط واضحا والهدف بينا ــ من الذي يقود الى هذا الهدف ، فان الخلافات الشخصية لابد ان تصفى بشكل يضمن للثورةقيادة حكيمة رشيدة وذلك ما ندعوه للجزائر ولشعبها الحر الثائر ٠

الوزارة المغربية

قبيل احداث الجزائر اعلن في المغرب ان الملك الحسن الثاني قدتسلم السلطة الكاملة والف وزارة برياسته بعد ان فشلت المحاولات التي قيل انه بذلها لتشكيل حكومة مؤتلفة ٠

ويبدو ان الملك الحسن يقلد في هذا الاجراء الجديد والده الملكمحمد الخامس اذ كان في اواخر ايامه قد اتبع نفس السياسة ٠ والمراقبون

السياسيون يلاحظون ان الفارق كبير بين الحسن الشاب ومحمد الخامس الشيخ الذي كان له من جهاده ضد الفرنسيين صفة تقرب ان تكون دينية في نفوس المغاربة ٠

كما ان الملك محمد الخامس لم يكن في زمانه الدستور الذى وضعه الملك الحسن والزم نفسه بالسير بموجبه وكان هو اول من مارس السلطات الاستثنائية فيه بتعطيله ٠

ان المغرب يجتاز فترة من فتراته العصيبة كما يبدو والا لما اشكل تاليف وزارة يرأسها شخص آخر غير الملك نفسه ٠

وقد ذكر الملك الحسن انه سعى الى التوفيق والتصالح بين احزاب المعارضة على أمل تشكيل حكومة ائتلافية تعالج المشاكل الاقتصادية التي يواجهها المغرب بيد ان هذه الاحزاب قدمت مطالب لم يستطع تلبيتها ووضعت شروطا لم يستطع قبولها ٠

ترى ماهي المطالب التي لم يستطع الملك تلبيتها وهل هي من الخطورة بحيث ألجأته الى اعلان حالة الطوارىء ٠

نرجو للشعب المغربي الشقيق حياة الاستقرار والهدوء في ظل حكم عادل مستقر وثابت ٠

مؤامرات الاستعمار في الخليج العربي

امارات الخليج العربي تعيش اليوم تحت ضغط استعماري رهيب ، هدفه ان تنعزل هذه المنطقة العربية عن بقية اجزاء العالم العربي المتحررة ، ومنذ ان بدأت اتصالات الجامعة العربية بالمنطقة ومنذ ان انشىء صندوق الجامعة لانعاش الامارات التي تحتاج الى المساعدة الاكيدة في مجالات الثقافة والصحة والاقتصاد منذ ذلك الحين والاستعمار يبيت لهذه الامارات وبخاصة الامارات التى يشعر الاستعمار أنها تحكم من امراء يشعرون بالشعور العربي الاصيل ويرحبون بالعون العربي ويؤمنون بقوميتهم ٠

ولعل المؤامرة التي دبرها الاستعمار للشيخ صقر بن سلطان القاسمي شيخ الشارقة هي حلقة في سلسلة طويلة من مؤامرات الاستعمار البريطاني البغيض ، فقد ذكرت الانباء ان الشيخ صقر تقرر عزله وابعاده ومعروف عن الشيخ صقر روحه العربية وترحيبه بوفد الجامعة مما اوغر عليه الصدور ٠ ومعروف كذلك عن هذا الامير الحر أنه من اعداء الاستعمار في المنطقة بل ومن اشد الاعداء ٠

ان اقصاء الشيخ صقر القاسمي أمر متوقع كان امير الشارقة نفسه يتوقعه وقد صرح بأن اقصاءه أمر لايهمه في شيء ولكن الذى يهمه ان يتنبه العرب لما يحاك ضدهم من مؤامرات وما يبيت لهم من مخططات ٠

ان العرب في كل مكان يشعرون بصورة أكيدة ان امير الشارقة الشرعي سيعود الى بلده بارادة شعبه وتأييد اخوته العرب في كل مكان وسينال العملاء وصنائع الاستعمار جزاءهم على ايدى الشعوب في يوم قريب ان شاء الله ٠